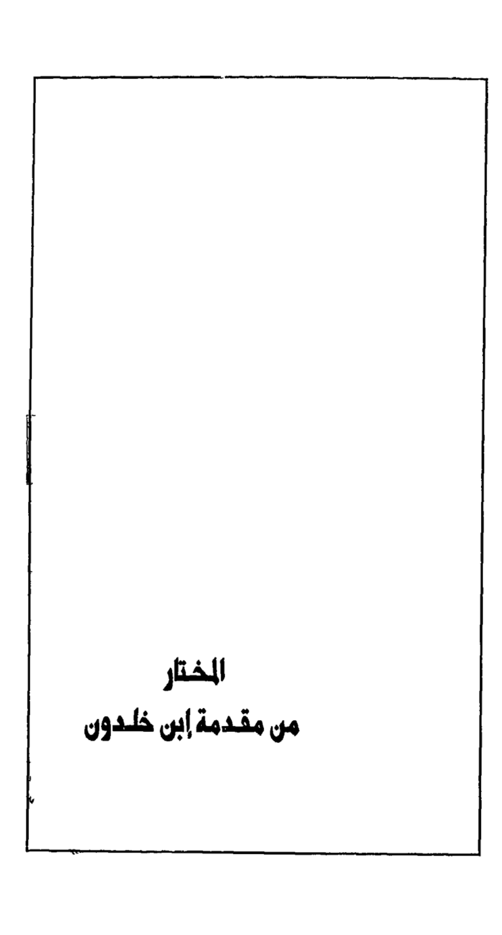

مهرجان القراءة للجميع
ابن خلدون
المختار من
المقدمة
الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب
1997
١٩٩٧



المختار
من مقدمة إبن خلدون

المختار

من مقدمة إبن خلدون

إعداد

د. محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(التراث)

المختار من مقدمة إبن خلدون

إعداد: د. سمير سرحان
د. محمد عنانى

الغلاف:
للفنان: جمال قطب

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وأن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

تصدير

لاحاجة للكاتب اليوم أن يتحدث عن شيخ فلاسفة التاريخ ومؤسس علم الاجتماع فى العالم – ابن خلدون – أو عبقريته التى سبق بها جميع نظريات العلوم الإنسانية الحديثة فى التاريخ والاجتماع .

ولذلك رأت مكتبة **الأسرة** أن تقدم إلى القارئ العربى مختارات موجزة (غير مقتسرة) من **المقدمة** تتضمن نظريته فى التأريخ ونشأة العمران (الحضارة أو المدنية) وفى نشأة الدول وتطورها وأسس بناء الملك وتطوره ، وهى النظرية التى استقاها من دراسته المستفيضة للتاريخ الذى انتهت إليه أخباره فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) .

ووجود هذه المختارات بين دفتى كتاب واحد ، صغير تسهل قراءته ويسهل الاستمتاع به ، من شأنه تشجيع الناشئة على قراءة المقدمة الكاملة فى طبعاتها المختلفة، فالنص الأصلى ذو لغة علمية معاصرة ، على بُعد الشقة،

وهو يبشر بلغة العلم والعلوم الإنسانية الحديثة التى تستخدمها اليوم ، ويؤكد أن اللغة العربية لغة طيعة متطورة قادرة على نقل أعقد الأفكار وأثراها وتبسيطها حتى يسهل على الجميع إدراكها .

والله من وراء القصد ،

مكتبة الأسرة

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها

إِعْلَمْ أَنَّ فَنَّ التَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ جَمُّ الْفَوَائِدِ شَرِيفُ الْغَايَةِ إِذْ هُوَ يُوقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الأُمَمِ فِي أَخْلاَقِهِمْ . والأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ . وَالْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ . حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ الاقْتِداءِ فِي ذلكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَي الْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلاَّتِ وَالْمَغَالِطِ لأَنَّ الأَخْبَارَ . إِذَا اعْتُمِدَ فِيهَا عَلَي مُجَرَّدِ النَّقْلِ وَلَمْ تُحْكَمْ أُصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ السِيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ وَالأَحْوَالُ فِي الاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ وَلاَقِيسَ الْغَائِبُ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ وَالْحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ الْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ وَالْحَيْدِ عَنْ

(١) قوله الفارسية أي المنسوبة إلى أبي فارس المتقدم ذكره أهـ.

جَادَّةِ الصِّدْقِ وكَثِيـراً مَاوقَعَ لِلمؤرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ وَأَيِمَّةِ النَّقْلِ مِنَ الْمَغَالِطِ في الْحكَايَاتِ وَالْوقَائِعِ لاعْتِمَادِهِم فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غثّاً أَوْ سَمِيناً ولَمْ يَعْرِضُوهاَ عَلَى أُصُولِهَا ولاَ قَاسُوها بِأَشْبَاهِهاَ وَلاَ سَبَرُوهاَ بِمِعْيَارِ الْحِكْمَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي الأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ وتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ ولاَ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ الأَعْدَادِ مِنَ الأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ الْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ الْهَذَرِ وَلاَبُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الأُصُولِ وَعَرْضِهاَ عَلَى الْقَوَاعِدِ وَهذاَ كَمَاَ نَقَلَ الْمَسْعُودِيُّ وكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَحْصَاهُمْ فِي التِّيهِ بَعْدَ أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ حَمْلَ السِّلاحِ خَاصَّةً مِنِ ابْنِ عِشْرِينَ فَمَاَ فَوْقَهَاَ فَكَانُوا سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَيَذْهَلُ فِي ذلكَ عَنْ تَقْدِيرِ مِصْرَ والشَّامِ وَاتِّسَاعِهِماَ لِمِثْلِ هَذاَ الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ لِكُلِّ مَمْلَكَةٍ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ الحَامِيَةِ تَتَّسِعُ لَهَاَ وَتَقُومُ بِوظَائِفِهاَ وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَاَ تَشْهَدُ بِذلكَ الْعَوَائِدُ الْمَعْرُوفَةُ وَالأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هَذاَ

الْعَدَدِ يَبْعُدُ أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لِضِيقِ سَاحَةِ الأَرْضِ عَنْهَا وَبُعْدِهَا إِذَا اصْطَفَّتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا أَوْ أَزْيَدَ فَكَيْفَ يَقْتَتِلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلَبَةُ أَحَدِ الصَّفَّيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ جَوَانِبِهِ لاَيَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الآخَرِ وَالْحَاضِرُ يَشْهَدُ لِذَلِكَ فَالْمَاضِي أَشْبَهُ بِالآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ . وَلَقَدْ كَانَ مُلْكُ الْفُرْسِ وَدَوْلَتُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بُخْتُنَصَّرَ لَهُمْ وَالْتِهَامِهِ بِلاَدَهُمْ وَاسْتِيلاَئِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ وَتَخْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَاعِدَةِ مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَّالِ مَمْلَكَةِ فَارِسَ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ مَرْزُبَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ تُخُومِهَا وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ وَخُرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالأَبْوَابُ أَوْسَعُ مِنْ مَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِكَثِيرٍ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جُيُوشُ الْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلاَقَرِيبًا مِنْهُ وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُمُوعُهُمْ بِالْقَادِسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ سَيْفٌ قَالَ وَكَانُوا فِي أَتْبَاعِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَتَي أَلْفٍ وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ فَإِنَّ جُمُوعَ رُسْتُمَ الَّذِينَ زَحَفَ بِهِمْ سَعْدٌ بِالْقَادِسِيَّةِ إِنَّمَا كَانُوا سِتِّينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتْبُوعٌ وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هَذَا

الْعَدَدِ لاتَّسَعَ نِطَاقُ مُلْكِهِمْ وَانْفَسَحَ مَدَى دَوْلَتِهِمْ فَإِنَّ الْعَمَالاَتِ وَالْمَمَالِكَ فِي الدُّوَلِ عَلَى نِسْبَةِ الحَامِيَةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا حَسْبَمَا نُبَيِّنُ فِي فَصْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الأَوَّلِ وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ إِلَى إِلَى غَيْرِ الأُرْدُنِّ وَفَلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ وَبِلاَدِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنَ الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَأَيْضاً فَالَّذِي بَيْنَ مُوسَى وَإِسْرَائِيلَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبَعَةُ آبَاءٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْمُحَقِّقُونَ فَإِنَّهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهُرَ بْنِ قَاهِتَ بِفَتْحِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا ابْنِ لاَوِي بِكَسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا ابْنِ يَعْقُوبَ وَهُوَ إِسْرَائِيلُ اللهِ هَكَذَا نَسَبُهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْمُدَّةُ بَيْنَهُمَا عَلَى مَانَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ قَالَ دَخَلَ إِسْرَائِيلُ مِصْرَ مَعَ وَلَدِهِ الأَسْبَاطِ وَأَوْلاَدِهِمْ حِينَ أَتَوْا إِلَى يُوسُفَ سَبْعِينَ نَفْساً وَكَانَ مَقَامُهُمْ بِمِصْرَ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى التِّيهِ مِائَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً تَتَدَاوَلُهُمْ مُلُوكُ الْقِبْطِ مِنَ الْفَرَاعِنَةِ وَيَبْعُدُ أَنْ يَتَشَعَّبَ النَّسْلُ فِي أَرْبَعَةِ أَجْيَالٍ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ عَدَدَ تِلْكَ الْجُيُوشِ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ وَمَنْ بَعْدَهُ فَبَعِيدٌ أَيْضاً إِذْ لَيْسَ بَيْنَ سُلَيْمَانَ وَإِسْرَائِيلَ إِلاَّ أَحَدَ عَشَرَ أَباً فَإِنَّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ يَشَا

بْنِ عُوفـــــيذَ وَيُقَالُ ابْنِ عُوفِذَ ابْنِ بَاعَزَ وَيُقَالُ بُوعَزَ بْنِ سَلَمُونَ بْنِ نَحْشُونَ بْنِ عَمِّينُوذَبَ وَيُقَالُ حَمِّينَا ذَابَ بْنِ رَمَّ بْنِ حَصْرُونَ وَيُقَالُ حَسْرُونَ بَنَ بَارَسَ وَيُقَالُ بِيْرَسَ بْنِ يَهُوذَا بْنِ يَعْقُوبَ وَلاَ يَتَــشَعَّبُ النَّسْلُ فِي أَحَدَ عَشَرَ مِنَ الْوِلْدِ إِلَى مِثْل هـذَا الْعَدَدِ الَّذِي زَعَمُوهُ اللَّهـمَّ إِلَى الْمِئَتَيْنِ وَالآلاَفِ فَرُبَّمَا يَكُونُ وَأَمَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ إِلَى مَا بَعْدَهُمَا مِنْ عُقُودِ لأَعْدَادِ فَبَعِيــدٌ وَاعْتَبِرْ ذلكَ فِي الْحَاضِرِ الْمُشَاهَدِ وَالْقَرِيبِ الْمَعْرُوفِ تَجِدْ زَعْمَهُمْ بَاطِلاً وَنَقْلَهُمْ كَاذِباً وَالَّذِي ثَبُتَ فِي الإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنَّ جُنُودَ سُلَيْمَانَ كَانَت اثْنَي عَشَرَ أَلْفاً خَاصَّةً وَأَنَّ مُقَرَّبَاتِه كَانَتْ أَلْفاً وَأَرْبَعَمِائَةِ فَرَسٍ مُرْتَبِطَةً عَلَى أَبْوَابِهِ هـذَا هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِهِم وَلاَ يُلْتَفَتُ إِلَى خُرَافَات الْعَامَّةِ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّامِ سُلَيْمَانَ (عليـه السـلام) وَمُلْكِهِ كَانَ عُنْفُوَانُ دَوْلَتِهِمْ وَاتِسَاعُ مُلْكِهِمْ هـذَا وَقَدْ نَجِـدُ الْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي لِعَهْدِهِمْ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ وَتَفَاوَضُوا فِي الأَخْبَارِ عَنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوِ النَّصَارَي أَوْ أَخَذُوا فِـي إِحْصَاءِ أَمْوَالِ الْجِبَايَات وَخَرَاجِ الســلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتْرَفِينَ وَبَضَائِعِ الأَغْنيـــاءِ الْمُوسِرِينَ تَوَغَّلُوا فِي الْعَدَدِ وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ

الْعَوَائِدِ وَطَاوَعُوا وَسَاوِسَ الإِغْرَابِ فَإِذَا اسْتُكْشِفَ أَصْحَابُ الدَّوَاوِينِ عَنْ عَسَاكِرِهِمْ وَاسْتُنْبِطَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بَضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ وَاسْتُجْلِيَتْ عَوَائِدُ الْمُتْرَفِينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ لَمْ تَجِدْ مِعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لِوُلُوعِ النَّفْسِ بِالْغَرَائِبِ وَسُهُولَةِ التَّجَاوُزِ عَلَى اللِّسَانِ وَالْغَفْلَةَ عَلَى الْمُتَعَقَّبِ وَالْمُنْتَقِدِ حَتَّى لاَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى خَطَإٍ وَلاَ عَمْدٍ وَلاَ يُطَالِبُهَا فِي الْخَبَرِ بِتَوَسُّطٍ وَلاَعَدَالَةٍ وَلاَ يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ وَتَفْتِيشٍ فَيُرْسِلُ عِنَانَهُ وَيَسِيمُ فِي مَرَاتِعِ الْكَذِبِ لِسَانَهُ وَيَتَّخِذُ آيَاتِ اللهِ هُزءاً وَيَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِوَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةً خَاسِرَةً وَمِنَ الأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ التَّبَابِعَةِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَغْزُونَ مِنْ قُرَاهُمْ بِالْيَمَنِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلاَدِ الْمَغْرِبِ وَأَنَّ أَفْرِيقَشَ بْنَ قَيْسِ بْنِ صَيْفِيٍّ مِنْ أَعَاظِمِ مُلُوكِهِمِ الأُوَلِ وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ غَزَا أَفْرِيقِيَّةَ وَأَثْخَنَ فِي الْبَرْبَرِ وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمُ بِهَذَا الاِسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَانَتَهُمْ وَقَالَ مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ فَأُخِذَ هَذَا الاِسْمُ عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حِينَئِذٍ وَأَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ

حَجَزَ هنَالكَ قبَائِلَ مِنْ حمْيَرَ فأقَامُوا بهاَ وَاخْتَلَطُوا بِأهْلِهاَ وَمِنْهُمْ صنْهاجَةُ وكِتَامَةُ وَمِنْ هـــذاَ ذَهبَ الـــطبَرِيُّ وَالْجَرْجَانِيُّ وَالْمَسْعُودِيُّ وَابْنُ الْكَلْبِي وَالْبِيلِي إِلَى أَنَّ صنْهَاجَةَ وَكِتَامَةَ مِنْ حِمْيَرَ وَتَأبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ وَهُوَ الـــصَّحِيـــحُ وَذَكَرَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً أَنَّ ذَا الإِذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمِ قَبْلَ أَفْرِيقِشَ وكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ (علـيـــه السـلام) غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ وكَذَلِكَ ذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ يَاسِرَ ابْنِه مِنْ بَعْدِه وأَنَّهُ بلَغَ وَادِيَ الـرَّمْلِ فِي بِلاَدِ الْمَغْرِبِ ولَمْ يَجِدْ فِيـــهِ مَسْلَكاً لِكَثْرَةِ الرَّمْلِ فَرَجَعَ وكَذلكَ يَقُولُونَ فِي تُبَّعِ الآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرِبٍ وكَانَ عَلَى عَهْدِ يَسْتَاسِفَ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ الْكيَانيَّةِ أنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وأَذْرَبِيـــجَانَ ولَقِيَ الـــتُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَثْخَنَ ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وثَالِثَةً كذَلكَ وأَنَّهُ بَعْدَ ذلكَ أَغْزَى ثَلاَثَةً مِنْ بَنِـيهِ بِلاَدَ فَارِسَ وإِلَـــى بِلاَدِ الـصُّغْدِ مِنْ بِلاَدِ أُمَمِ الـتُّرْكِ وَرَاءَ الـنَّهْرِ وإِلَى بِلاَدَ الـرُّومِ فَمَلَكَ الأَوَّلُ الْبِلاَدَ إِلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الـصِّينِ فَوَجَدَ أَخَاهُ الـــثَّانِيَ الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأثْخَنَا فِي بِلاَدِ الـصِّينِ وَرَجَعَا جَمِيـــعاً بالْغَنَائِمِ وتَرَكُوا بِبِلاَدِ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ حمْيَرَ فَهُمْ بِهاَ إِلَى هـذاَ الْعَهْدِ وبَلَغَ

الـثَّالثُ إِلَى قِسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا وَدَوَّخَ بِلاَدَ الـرُّوم وَرَجَعَ وَهذِهِ الأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيــدَةٌ عَنِ الـصِّحَّةِ عَرِيقَةٌ فـي الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ الْقَــصَصِ الْمَوْضُوعَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبَابِعَةِ إِنَّمَا كَانَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَقَرَارَهُمْ وَكُرْسِيَّهُمْ بِصَنْعَاءِ الْيَمَنِ . وَجَزِيــرَةُ الْعَرَبِ يُحِيــطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلاَثِ جِهَاتِهَا فَـبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَبَحْرُ الـسُّوَيْسِ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الـسُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ كَمَا تَرَاهُ فـي مُصَوَّرِ الْجُغْرَافِيَا فَلاَ يَجِدُ الـسَّالِكُونَ مِنَ الـيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ طَرِيقاً مِنْ غَيْرِ الـسُّوَيْسِ وَالْمَسْلَكُ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ الـسُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الـشَّامِيِّ قَدْرُ مَرْحَلَتَيْنِ فَمَا دُونَهُمَا وَيَبْعُدُ أَنْ يَمُرَّ بِهــــذَا الْمَسْلَكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرَ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيــرَ مِنْ أَعْمَالِهِ هـذِهِ مُمْتَنِعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ بِتِلْكَ الأَعْمَالِ الْعَمَالِقَةُ وَكَنْعَانُ بِالــشَّامِ وَالْقِبْطُ بِمِصْرَ ثُمَّ مَلَكَ الْعَمَالِقَةُ مِصْرَ وَمَلَكَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الــشَّامَ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ الـتَّبَابِعَةَ حَارَبُوا أَحَداً مِنْ هــؤُلاَءِ الأُمَمِ وَلاَ مَلَكُوا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ وَأَيْضاً فَالـشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيــدَةٌ وَالأَزْوِدَةُ وَالْعُلُوفَةُ لِلْعَسَاكِرِ

كَثِيرَةٌ فَإِذَا سَارُوا فِي أَعْمَالِهِمِ احْتَاجُوا إِلَى انْتِهَابِ الزَّرْعِ وَالنِّعَمِ وَانْتِهَابِ الْبِلاَدِ فِيمَا يَمُرُّونَ عَلَيْهِ وَلاَ يَكْفِي ذَلِكَ لِلأَزْوِدَةِ وَلِلْعُلُوفَةِ عَادَةً وَإِنْ نَقَلُوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلاَ تَفِي لَهُمُ الرَّوَاحِلُ بِنَقْلِهِ فَلاَبُدَّ وَأَنْ يَمُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكُوهَا وَدَوَّخُوهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ تِلْكَ الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَؤُلاَءِ الأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهَيِّجَهُمْ فَتَحْصُلُ لَهُمُ الْمِيرَةُ بِالْمُسَالَمَةِ فَذَلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعاً فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ .

وَأَمَّا وَادِي الرَّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ فَلَمْ يُسْمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي الْمَغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِهِ وَمَنْ يَقُصُّ طُرُقَهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقُرَى فِي كُلِّ عَصْرٍ وَكُلِّ جِهَةٍ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ . وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلاَدَ الشَّرْقِ وَأَرْضَ التُّرْكِ وَإِنْ كَانَ طَرِيقُهُ أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ إِلاَّ أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ وَأُمَمَ فَارِسَ وَالرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ التَّبَابِعَةَ مَلَكُوا بِلاَدَ فَارِسَ وَلاَ بِلاَدَ الرُّومِ وَإِنَّمَا كَانُوا يُحَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى حُدُودِ بِلاَدِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيرَةِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ وَالْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الأَعْمَالِ وَقَدْ

وقعَ ذلكَ بيْنَ ذي الإذْعارِ مـــنْهمْ وكيــكاوُسَ منْ ملُوك الكيانيَّةِ وبيْنَ تُبَّعِ الأصْغرِ أبي كرِبَ ويَسْتاسفَ منْهمْ أيْضاً ومَعَ ملُوكِ الطَّوائفِ بعْدَ الْكيانيَّةِ والسَّاسانيَّةِ منْ بعْدهمْ بمُجاوزَةِ أرْضِ فارسَ بالْغزْوِ إلَى بلادِ التـرْكِ والتُّبْتِ وهُوَ مُمْتنعٌ عادةً منْ أجْلِ الأُممِ الْمُعْترِضةِ منْهمْ والْحاجةِ إلَى الأزْوِدةِ والْعلُوفاتِ معَ بُعْدِ الشُّقَّةِ كمَا مرَّ فالأخْبارُ بذلكَ واهيةٌ مدْخُولةٌ وهِيَ لوْ كانتْ صحيحةَ النَّقْلِ لكانَ ذلكَ قادحاً فيهاَ فكيْفَ وهِيَ لمْ تُنْقلْ منْ وجْهٍ صحيحٍ وقوْلُ ابْنِ إسْحـــاقَ في خبَرِ يثْربَ والأوْسِ والْخزْرجِ أنَّ تبَّعاً الآخرَ سارَ إلَى الْمشْرِقِ محْمُولاً علَى الْعراقِ وبلادِ فارسَ وأمَّا بلادُ التُّرْكِ والتُّبْتِ فلاَ يصحُّ غزْوهُمْ إليْهاَ بوجْهٍ لماَ تقرَّرَ فلاَ تثِقنَّ بماَ يُلْقَى إليْكَ منْ ذلكَ وتأمَّلِ الأخْبارَ واعْرِضْها علَى الْقوانينِ الصحيحةِ يقعْ لكَ تمْحيصُها بأحْسنِ وجْهٍ واللهُ الْهادي إلى الصَّوابِ .

فصل

وأبْعدُ منْ ذلكَ وأعْرقُ في الْوهْمِ ماَ يتناقلُهُ الْمفسرُونَ في تفْسيرِ سُورةِ الفجْرِ في قوْله تعالَى ﴿ ألَمْ ترَ كيْفَ فعَلَ ربُّكَ بعادٍ إرمَ ذاتِ الْعمادِ ﴾ فيجْعلُونَ لفْظةَ إرمَ اسْماً

لِمَدِينَةٍ وُصِفَتْ بِأَنَهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَي أَساطِينَ وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ بْنِ عَوْضٍ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيـــدٌ وَشَدَّادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ الْمُلْكُ لِشَدَّادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ وَسَمِعَ وَصْفَ الْجَنَّةِ فَقَالَ لأَبْنِيَنَّ مِثْلَهَا فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مُدَّةِ ثَلَثِمَائَةِ سَنَةٍ وكَانَ عُمْرُهُ تِسْعَمَائَةَ سَنَةٍ وأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَساطِينُهَا مِنَ الزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُـوت وَفِـيهَا أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالأَنْهَارُ الْمُطَّرِدَةُ ولَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إِلَيْهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِم صَيْحَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُم . ذَكَرَ ذلِكَ الطَّبَرِيُّ والثَّعَالِبِيُّ والزَّمَخْشَرِيُّ وغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِين ويَنْقُلُونَ عَنْ عَبْدِاللـه بْنِ قَلاَبَةَ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَـهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَحَمَلَ مِنْهَا مَا قَدَرَ عَلَيْهِ وبَلَغَ خَبَرُهُ مُعَاوِيَةَ فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ فَبَحَثَ عَنْ كَعْبِ الأَخْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذلِكَ فَقَالَ هِيَ إِرَمُ ذَاتُ الْعِمَادِ وَسَيَدْخُلُهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحْمَرُ أَشْقَرُ قَصِيـــرٌ عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ يَخْرُجُ فِي طَلَبِ إِبِلٍ لَهُ ثُمَّ الْتَفَتَ فَأَبْصَرَ ابْنَ قَلاَبَةَ فَقَالَ هذَا وَاللـه ذلِكَ الرَّجُلُ . وَهذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ

لهَاَ خبَرٌ مِنْ يَومئِذٍ فِي شَيءٍ مِنْ بِقاَعِ الأَرْضِ وَصَحاَرَى عدَنَ الَّتي زَعمُوا أَنَّهاَ بُنِيَتْ فِيــهاَ هيَ فِي وَسَطِ الْيمَنِ وماَ زَالَ عمْرَانَهُ مُتعَاَقِباً وَالأدِلاَّءُ تقُصُّ طُرُقَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ولمَْ يُنْقلْ عنَْ هــذه المَدِيــنَةِ خبَرٌ ولاَ ذكَرهاَ أَحدٌ مِنَ الإِخْبَاريِّينَ ولاَ مِنَ الأُمَمِ ولَوْ قاَلُوا إِنَّهاَ دُرِستَْ فيِــماَ دُرِسَ مِنَ الآثَارِ لكَاَنَ أَشْبَهَ إِلاَّ انَّ ظَاهِرَ كلاَمِهِم أَنَّهاَ مَوْجُودَةٌ وبَعْضُهُمْ يقَُولُ إِنَّهاَ دِمَشْقُ بِناَءً علَىَ أَنَّ قَوْمَ عاَدٍ مَلَكُوهاَ وقَدْ ينَْتهَِي الْهذَيَانُ بِبعَْضِهِمْ إِلىَ أَنَّهاَ غاَئـــــبَةٌ وإِنَّماَ يَعْثُرُ علَيَْهاَ أَهْلُ الـــرِّياضَةِ والـــسِّحرِ مَزَاعِمُ كُلُّهاَ أَشْبَهُ بِالْخرَافاَتِ وَالَّذي حَملََ الْمُفسِّرِينَ علَىَ ذلكَ ماَ اقْتضََتْهُ صِناَعةُ الإِعْرَابِ فِي لــــــفْظَةِ ذَاتِ الْعماَدِ أَنَّهاَ صِفةُ إِرمَ وَحمَلُوا الْعماَدَ علَىَ الأَساَطِينِ فتَعَيََّنَ أَنْ يكَُونَ بِناَءً وَرَشَّحَ لهَمُْ ذلكَ قِرَاءَةُ ابنِْ الزُّبيَْرِ عاَدُ إِرمََ علَىَ الإِضاَفةَِ مِنْ غيَْرِ تنَْوِينٍ ثُمَّ وَقفَُوا علَىَ تِلْكَ الْحِكاَياَتِ الَّتِي هِي أَشْبهَُ بِالأَقاَصِيصِ الْمَوْضُوعةَِ الَّتي هِيَ أَقْرَبُ إِلىَ الْكذَِبِ الْمَنْقــولةَِ فِي عِداَدِ الْمُضْحِكاَتِ وإِلاَّ فاَلعِماَدُ هِيَ عِماَدُ الأَخْبِيةَِ بلَِ الْخِياَمِ وإِنْ أُرِيدَ بِهاَ الأَساَطِينُ فلَاَ بِدْعَ فِي وَصْفِهِمْ بِــأَنَّهُم أَهْلُ بِناَءٍ وأَساَطِينَ علَىَ الْعُمُومِ بِماَ اشْتهََرَ مِنْ قُوَّتِهِم لأَنَّهُ بِناَءٌ خاَصٌ فِي مَدِيـــنةٍَ مُعيََّنةٍَ أَوْ

غَيْرِهَا وَإِنْ اضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ كَمَا تَقُولُ قُرَيْشٌ كِنَانَةَ وَإِلْيَاسُ مُضَرَ وَرَبِيعَةُ نِزَارٍ وَأَيُّ ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا الْمَحْمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُمُحِّلَتْ لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ اللهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصِّحَةِ

الفصل الأول
من الكتاب
في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

اَلاولَى فِي أَنَّ الاجْتِمَاعَ الإِنْسَانِي ضَرُورِيٌّ وَيُعَبِّرُ الْحُكَمَاءُ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِمِ الأنْسَانُ مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ أَيْ لاَبُدَّ لَهُ مِنَ الاجْتِمَاعِ الَّذِي هُوَ الْمَدِينَةُ فِي اصْطِلاحِهِمْ وَهُوَ مَعْنَى الْعُمْرَانِ وَبَيَانُهُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الإِنْسَانَ وَرَكَّبَهُ عَلَى صُورَةٍ لِيَصِحُّ حَيَاتُهَا وَبَقَاؤُهَا إِلاَّ بِالْغِذَاءِ وَهَدَاهُ إِلَى التِمَاسِهِ بِفِطْرَتِهِ وَبِمَا رُكِّبَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِهِ إِلاَّ أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ غَيْرُ مُوفِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلَّ مَا يُمْكِنُ فَرْضُهُ وَهُوَ قُوتُ يَوْمٍ مِنَ الْحِنْطَةِ مَثَلاً

فَلاَ يَحصُلُ إلاَّ بِعِلاَجٍ كَثِيــرٍ مِنَ الـطَّحْنِ وَالْعَجْنِ وَالطَّبْخِ وكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هــذِهِ الأَعْمَالِ الـثَّلاَثَةِ يَحْتَاجُ إِلــي مَوَاعِـينَ وَآلاَتٍ لاَتَتِمُّ إلاَّ بِصِـــــــناعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَّادٍ وَنَجَّارٍ وَفَاخُورِيّ وَهَبْ أَنَّهُ يأكُلُهُ حبّاً مِنْ غَيْرِ عِلاَجٍ فَهُوَ أَيْضاً يَحـتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ أَيْضاً حبَـا إِلَى أعمَالٍ أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هذهِ مِنَ الزِّرَاعَةِ وَالْحِصَادِ وَالدِرَاسِ الَّذِي يُخرِجُ الْحَبَّ مِنْ غِلاَفِ الـسُّنْبُلِ وَيَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هــذِهِ الآتِ مُتَعدِدَةً وَصنَائِعَ كَثِيرَةً أَكـثَرَ مِنَ الأُولَى بِكَثِيرٍ وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَفَي بِذلِكَ كُلِّهِ أَوْ بِبَعْضِهِ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ فَلاَبُدَّ مِن اجْتِمَاعِ الــقُدَرِ الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ لِيَحْصُلَ الْقُوتُ لَهُ وَلَهُمْ فَيَحْصُلُ بِالـــتَّعَاوُنِ قَدَرُ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لأَكْثَرَ مِنْهُمْ بِأَضْعَافِ وكَذلِكَ يَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنهُـمْ أَيْضاً فِي الـدِفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الاسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءَ جِنْسِهِ لأَنَّ اللهَ سُبـحَانَهُ لَمــا رَكَّبَ الطِّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِهاَ وَقَسَمَ الْقَدَرَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيـــرٍ مِنَ الحَيَوانَاتِ الْعُجمِ مِنَ الْقُدْرَةِ أَكْمَلَ مِنْ حَظِ الإِنْسَانِ فَقُدْرَةُ الْفَرَسِ مَثَلاً أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ قُدْرَةِ الإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالثَّوْرِ وَقُدْرَةُ الأَسَدِ وَالْفِيلِ أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْعُدوَانُ طَبِيعِـيًّا فِي الْحَيَـوَانِ جَعَلَ لِكُلِّ

وَاحِدٍ مِنْهَا عُضْوًا يَخْتَصُّ بِمُدَافَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةِ غَيْرِهِ وَجَعَلَ لِلإِنْسَانِ عِوَضًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ فَالْيَدُ مُهَيِّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ وَالصَّنَائِعُ تُحَصِّلُ لَهُ الآلاَتِ الَّتِي تَنُوبُ لَهُ عَنِ الْجَوَارِحِ الْمُعَدَّةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ مِثْلَ الرِّمَاحِ الَّتِي تَنُوبُ عَنِ الْقُرُونِ النَّاطِحَةِ وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنِ الْمَخَالِبِ الْجَارِحَةِ وَالتِّرَاسِ النَّائِبَةِ عَنِ الْبَشَرَاتِ الْجَاسِيَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الأَعْضَاءِ فَالْوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لاَ تُقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ سِيَّمَا الْمُفْتَرِسَةِ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَحْدَهُ بِالْجُمْلَةِ وَلاَ تَفِي قُدْرَتُهُ أَيْضًا بِاسْتِعْمَالِ الآلاَتِ الْمُعَدَّةِ لَهَا فَلاَبُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلاَ يَحْصُلُ لَهُ قُوتٌ وَلاَ غِذَاءٌ وَلاَ تَتِمّ حَيَاتُهُ لِمَا رَكَّبَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ وَلاَ يَحْصُلُ لَهُ أَيْضًا دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِفُقْدَانِ السِّلاَحِ فَيَكُونُ فَرِيسَةً حَيَوَانَاتٍ وَيُعَاجِلُهُ الْهَلاَكُ عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوتُ لِلْغِذَاءِ وَالسِّلاَحُ لِلْمُدَافَعَةِ وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ

نَوْعِه فَإِذَنْ هَذَا الاجْتِمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ وَإِلاَّ لَمْ يَكْمُلْ وُجُودُهُم وَمَا أَرَادَهُ اللهُ مِنِ اعْتِمَارِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلاَفِهِ إِيَّاهُمْ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى العُمْرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعاً لِهَذَا الْعِلْمِ وَفِي هَذَا الْكَلاَمِ نَوْعُ إِثْبَاتٍ لِلْمَوْضُوعِ فِي فَنِّهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِباً عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ لِمَا تَقَرَّرَ فِي الصِّنَاعَةِ الْمَنْطِقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ إِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ فَلَيْسَ أَيْضاً مِنَ الْمَمْنُوعَاتِ عِنْدَهُمْ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ بِفَضْلِهِ . ثُمَّ إِنَّ هَذَا الاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمْرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ فَلاَبُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَدْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَا فِي طِبَاعِهِم الْحَيَوَانِيَّةِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ وَلَيْسَتِ السِّلاَحُ الَّتِي جُعِلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُمْ لأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِجَمِيعِهِمْ فَلاَ بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ وَلاَ يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَإِلْهَامَاتِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ وَاحِداً مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِم الْغَلَبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ حَتَّى لاَ يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ بِعُدْوَانٍ وَهَذَا هُوَ

مَعْنَى الْمَلِكِ وَقَدْ تَبيَّنَ لَكَ بِهذَا أَنَّ لِلإِنْسَانِ خَاصَةً طَبِيعِيَّةً وَلاَبُدَّ لَهُمْ مِنْهَا وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الحُكَمَاءُ كَمَا فِي النَّحْلِ وَالْجَرَادِ لِمَا استُقْرِئَ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ والانْقِيَادِ والاتبَاعِ لِرئِيسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا مُتَمَيِّزٍ عَنْهُمْ فِي خَلْقِهِ وَجُثْمَانِهِ إِلاَّ أَنَّ ذلكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الإِنْسَانِ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ والهِدَايَةِ لاَ بِمُقْتَضَى الْفِكْرَةِ وَالسِيَاسَةِ أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى وَتَزِيدُ الْفَلاسِفَةُ عَلَى هذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يُحَاوِلُونَ إِثْبَات النبُوَّة بِالدَّلِيلِ الْعَقْلِي وأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ فَيُقَرِّرُونَ هذَا الْبُرْهَانَ إِلَى غَايَةٍ وَأَنَّهُ لاَبُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الحُكْمِ الْوَازِعِ ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذلِكَ وَذلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ بِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ لاَبُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزاً عَنْهُمْ بِمَا يُودِعُ اللهُ فيهِ مِنْ خَوَاصِّ هِدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلاَ تَزَيُّفٍ وَهذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ تَتِمُّ مِنْ دُونِ ذلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الحَاكِمُ لِنَفْسِهِ أَوْ بِالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى قَهْرِهِمْ وَحَمْلِهِمْ عَلَى جَادَّتِهِ فَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُتَّبِعُونَ لِلأَنْبِيَاءِ

قَليلُونَ بِالنسبَةِ إِلَى الْمَجُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ وَمَعَ ذلكَ فَقَدَ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ والآثَارُ فَضْلاً عَنِ الْحيَاةِ وَكَذلكَ هِي لَهُمْ لِهذَا الْعَهْدِ فِي الأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي الشَّمَالِ وَالجَنُوبِ بِخِلاَفِ حَيَاةِ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ الْبَتَّةَ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وَبِهذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وُجُوبِ النُّبُوَّاتِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِعَقْلِي وَإِنَّمَا مُدْرِكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الأُمَّةِ وَاللهُ وَلِيُّ التَوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ .

* * * *

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم

إِعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاظِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ أَنَّ شَكْلَ الأَرْضِ كُرَوِيٌّ وَأَنَّهَا مَحْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ كَأَنَّهَا عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ عَلَيْهِ فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا لِمَا أَرَادَ اللهُ مِنْ تَكْوِينِ الحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَعُمْرَانِهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِي الذِي لَهُ الخِلاَفَةُ عَلَى سَائِرِها وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذلِكَ

أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الأَرْضِ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا التَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الأَرْضِ وَوَسَطُ كُرَتِهَا الَّذِي هُوَ مَرْكَزُهَا وَالْكُلُّ بِطَلَبِهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الثِّقَلِ وَمَا عَدَا ذلك من جَوَانِبِهَا وَأَمَّا الْمَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الأَرْضِ وَإِنْ قِيلَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الأَرْضِ فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الأَرْضِ فَهُوَ النِصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَتِهَا فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ احَاطَ الْعُنْصُرُ الْمَاءِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَحْرًا يُسَمَّى الْبَحْرَ الْمُحِيطَ وَيُسَمَّى أَيْضًا لَبْلاَيَه بِتَفْخِيمِ اللاَّم الثَّانِيَةِ وَيُسَمَّى أُوقِيَانُوس أَسْمَاءَ أَعْجَمِيَّةً وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الأَخْضَرُ وَالأَسْوَدُ ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشِفَ مِنَ الأَرْضِ لِلْعُمْرَانِ فِيهِ الْقِفَارُ وَ الْخَلاَءُ أَكْثَرُ مِنْ عُمْرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ وَإِنَّمَا الْمَعْمُورُ مِنْهُ أَمْيَلُ إِلَى الْجَانِبِ الشَّمَالِي عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ كُرَوِيَّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الاِسْتِوَاءِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى خَطٍ كُرَوِيٍ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ الْعُنْصُرِيِّ الَّذِى بَيْنَهُمَا سَدُّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةً إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى عُنْصُرِ الْمَاءِ أَيْضًا بِقِطْعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَة

الْمُحِيطَةِ وَهَذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الأَرْضِ قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَةِ أَوْ أَقَلُّ وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ رُبْعِهِ وَهُوَ الْمُنْقَسِمُ بِالأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ وَخَطُّ الاسْتِوَاءِ يَقْسِمُ الأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَهُوَ طُولُ الأَرْضِ وَأَكْبَرُ خَطٍ فِي كُرَتِهَا كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدِّلِ النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطٍ فِي الْفَلَكِ وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلِثمِائَةٍ وَسِتِينَ دَرَجَةً وَالدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرْسَخًا وَالْفَرْسَخُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إِصْبَعًا وَالإِصْبَعُ سِتُّ حَبَّاتِ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٌ مُلْصَقٌ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَبَيْنَ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسِمَ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَتُسَامِتُ خَطَّ الاسْتِوَاءِ مِنَ الأَرْضِ وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً لَكِنَّ الْعِمَارَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ خَطِ الاسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلاَءٌ لاَ عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَةِ الْبَرْدِ وَالْجُمُودِ كَمَا كَانَتِ الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلاَءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا نُبَيِّنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

ثُمَّ إِنَّ الْمُخْبِرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَعَمَّا فِيهِ مِنَ الأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرِّمَالِ

مِثْلَ بَطْلِيمُوس فِي كِتَابِ الْجُغْرَافِيَا وَصَاحِبِ كِتَابِ زَخَّارِ مِنْ بَعْدِهِ قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا الأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَهْمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةٍ فِي الْعَرْضِ مُخْتَلِفَةٍ فِي الطُّولِ فَالإِقْلِيمُ الأَوَّلُ أَطْوَلُ مِمَّا بَعْدَهُ وَهَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضْعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ انْحِسَارِ الْمَاءِ عَنْ كُرَةِ الأَرْضِ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ عَلَى التَّوَالِي وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخَبَرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُمْرَانِهِ .

وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الْمُحِيطَ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْبَحْرُ الرُّومِيُّ الْمَعْرُوفُ يَبْدَأُ فِي خَلِيجٍ مُتَضَايِقٍ فِي عَرْضِ اثْنَي عَشَرَ مِيلاً أَوْ نَحْوِهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةَ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى الزُّقَاقَ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشَرِّقًا وَيَنْفَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ وَنِهَايَتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الإِقْلِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرْسَخٍ وَمِائَةٍ وَسِتِّينَ فَرْسَخًا مِنْ مَبْدَئِهِ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ سَوَاحِلُ الشَّامِ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةُ ثُمَّ بَرْقَةُ إِلَى الاسْكَنْدَرِيَّةِ وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ سَوَاحِلِ

الْقسْطنْطِينيَّةِ عِنْدَ الخلِيجِ ثُمَّ الْبنَادقَةُ ثُمَّ رومَةُ ثُمَّ الافرنْجَةُ ثُمَّ الأنْدلُسُ إلَى طَرِيفَ عِنْدَ الزُّقَاقِ قُبَالَةَ طَنْجَةَ وَيُسَمَّى هذَا الْبَحْرُ الرُّومِيَّ وَالشَّامِيَّ وَفِيهِ جُزُرٌ كَثِيرةٌ عَامِرَةٌ كِبَارٌ مِثْل أَقْرِيطِشَ وَقُبْرُصَ وَصِقِلِّيَةَ وَمَيُورقَةَ وَسَرْدَانيَةَ قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْهُ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ بَحْرَانِ آخرَانِ مِنْ خلِيجَيْنِ . أَحَدُهُمَا مُسَامِتٌ لِلْقِسْطنْطِينِيَّةِ يَبْدَأُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُتَضَايِقاً فِي عَرْضٍ رَمْيَةِ السَّهْمِ وَيَمُرُّ ثَلاثَةَ بِحَارٍ فَيَتَّصِلُ بِالْقسطنْطِينِيَّةِ ثُمَّ يَتفسَحُ فِي عَرْض أَرْبَعَةَ أَمْيَالٍ وَيَمُرُّ فِي جَرْيِهِ سِتِّينَ مِيلاً وَيُسَمَّى خلِيجَ الْقسطنْطِينِيةِ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ عَرْضُهَا سِتَّةُ امْيَالٍ فَيَمُدُّ بَحْرَ نِيطِشَ وَهُوَ بَحْرٌ يَنْحَرِفُ مِنْ هُنَالِكَ فِي مَذْهَبِهِ إلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِأَرْضِ هِرَقْلَةَ وَيَنْتَهِي إلَى بِلاَدِ الْخَزَرِيَّةِ عَلَى أَلْف وَثَلثمائَةِ مِيلٍ مِنْ فُوهَتِهِ وَعَلَيْهِ مِنَ الجَانِبَيْنِ أُمَمٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّرْكِ وَبُرجَانَ وَالرُّوس . وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِن خلِيجيْ هذَا الْبَحْرِ الرُّومِي وَهُوَ بَحْرُ الْبنَادِقَةِ يَخْرُجُ مِنْ بِلاَدِ الرُّومِ عَلَى سَمْتِ الشَّمَالِ فَإذَا انْتَهَى إلَى سَمْتِ الجَبَلِ انْحَرَفَ فِي سَمْتِ الْمَغْرِبِ إلَى بِلاَدِ الْبنَادِقَةِ وَيَنْتَهِي إلى بِلادِ إنْكلايَةَ عَلَى أَلْف وَمِائَةِ مِيلٍ مِنَ مَبْدَإِهِ وَعَلَى حَافَتَيْهِ مِنَ الْبنَادِقَةِ

وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَمٌ وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْبَنَادِقَةِ . قَالُوا وَيَنْسَاحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْمُحِيطِ أَيْضاً مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّمَالِ مِنْ خَطِّ الاسْتِوَاءِ بَحْرٌ عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ قَلِيلاً حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مَغْرِباً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلاَدِ الْحَبَشَةِ وَالزِّنْجِ وَإِلَى بِلاَدِ بَابِ الْمَنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلافِ فَرْسَخٍ مِنْ مَبْدَإِهِ وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الصِّينِيَّ وَالْهِنْدِيَّ وَالْحَبَشِي وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلاَدُ الزِّنْجِ وَبِلاَدُ بَرْبَرَ الَّتِي ذَكَرَهَا امْرُؤُ الْقَيْسِ فِي شِعْرِهِ وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ ثُمَّ بَلَدُ مَقْدَسُو ثُمَّ بَلَدُ سُفَالَةَ وَأَرْضُ الْوَقْوَاقِ وَأُمَمٌ أُخَرُ لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلاَّ الْقِفَارُ وَالْخَلاَءُ وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدَإِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السِّنْدُ ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الأَحْقَافِ وَزَبِيدَ وَغَيْرِهَا ثُمَّ بِلادُ الزِّنْجِ عِنْدَ نِهَايَتِهِ وَبَعْدَهُمُ الْحَبَشَةُ . قَالُوا وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ بَحْرَانِ آخَرَانِ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نِهَايَتِهِ عِنْدَ بَابِ الْمَنْدَبِ فَيَبْدَأُ مُتَضَايِقاً ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْحِراً إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَمُغَرِّباً قَلِيلاً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْقُلْزُمِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَلْفِ

وأَرْبعمائة ميـــــل منْ مبْدإِه ويُسمَّى بَحْرَ الْقلْزُم وبَحْرَ
الـــــسُّوَيْس وبيْنَهُ وبيْنَ فسْطَاط مصْرَ منْ هنَالك ثلاَثُ
مرَاحل وعلَيْه منْ جهة الــشّرْق سوَاحلُ الْيمَن ثُمَّ الْحجَازُ
وَجدَّةُ ثُمَّ مدْينَ وأَيْلَةُ وفَارانُ عند نهايَتــه ومنْ جهــة الْغرْب
سوَاحلُ الصَّعيد وعيذَابُ وسوَاكنُ وزَيْلَعُ ثُمَّ بلاَد الْحبَشة
عنْدَ مبْدإِه وآخِرهُ عنْدَ الْقلْزُم يُسامتُ الْبــحْرَ الرُّوميَّ عنْدَ
الْعَرِيـــش وبيْنهمَا نحْوُ ستِ مرَاحلَ ومَا زَالَ الْملُوكُ في
الإسْلاَم وقبْلَهُ يرومُونَ خرْقَ ما بيْنهُمَا ولَمْ يتمَّ ذلكَ
وَالْبحْرُ الــثَّاني منْ هــذاَ الْبحْر الْحبَشيِّ ويُسمَّى الْخلَيجَ
الأخْضرَ يَخْرُجُ ماَ بيْنَ بــلاَد الــسنْد والأحْقاَف منَ الْيمَنِ
ويَمرُّ إِلَى نَاحيَة الشَّمَال مغَرِّباً قلَيــلاً إِلَى أَنْ ينْتَهيَ إِلَى
الأُبلَّة منْ سوَاحل الْبصْرَة في الْجُزْء الــسَّادس منَ الإِقْليم
الــثَّاني علَى أَربَعمـــائة فرْسخ وأَرْبعين فرْسخاً منْ مبْدإِه
ويُسمَّى بحْرَ فاَرسَ وعلَيْه منْ جهة الشّرْق سوَاحل السّنْد
ومكْرَانَ وكَرْماَنَ وفَارسَ والأُبلَّةُ وعنْدَ نهاَيَته مــنْ جــــهة
الْغرْب سوَاحلُ الْغرْب سوَاحلُ الْبحْرَيْن والْيمَامة وعُمانَ
والــشّحر والأحْقاَفُ عنْدَ مبْدإِه وفيــــماَ بيْنَ بحْر فاَرسَ
والْقلْزُم وجَزيرَةَ الْعرَب كــأَنَّهاَ دَاخلَةٌ منَ الْبرِّ في الْبحْر

يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ وَبَحْرُ الْقُلْزُمِ مِنَ الْغَرْبِ وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ وَتَفْضِي إِلَى الْعِرَاقِ بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفِ وَخَمْسمائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا وَهُنَالِكَ الْكُوفَةُ وَالْقَادِسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِسْرَى وَالْحِيرَةُ وَوَرَاءَ ذَلِكَ أُمَمُ الأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ بِلادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا وَبِلادُ الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَعُمَانَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا وَبِلادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا وَسَوَاحِلُهُ عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ . قَالُوا وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرُ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبِحَارِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرَ جُرْجَانَ وَطَبَرْسْتَانَ طُولُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ فِي غَرْبِيِّهِ أَذْرَبِيجَانُ وَالدَّيْلَمُ وَفِي شَرْقِيِّهِ أَرْضُ التُّرْكِ وَخُوَارِزْمَ وَفِي جَنُوبِيِّهِ طَبَرْسْتَانُ وَفِي شَمَالِيِّهِ أَرْضُ الْخَزَرِ وَاللاَّنِ . هَذِهِ جُمْلَةُ الْبِحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغْرَافِيَا . قَالُوا وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَعْظَمُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ وَهِيَ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخَ الْمُسَمَّى جَيْحُونَ . فَأَمَّا النِّيلُ فَمَبْدَأُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ الاسْتِوَاءِ بِسِتَّ عَشْرَةَ دَرَجَةً عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ

الإقْليمِ الأوَّلِ ويَسمَّى جبَلَ القمَرِ ولاَ يُعْلَمُ في الأرْضِ جبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ عيُونٌ كَثِيرَةٌ فيَصبُّ بعْضُهاَ في بُحيْرةٍ هُنَاكَ وبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ثُمَّ تَخْرُجُ أَنْهاَرٌ منَ البُحيْرَتَيْنِ فتَصُبُّ كلُّهاَ فِي بُحيْرَةٍ واحِدَةٍ عِنْدَ خَطِ الاسْتوَاءِ علَى عَشْرِ مرَاحِلَ منَ الْجبَلِ ويَخْرُجُ مِنْ هذِهِ الْبُحيْرَةِ نَهْرَانِ ذهبَ أَحدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّمَالِ علَى سمْتِهِ ويَمُرُّ بِبِلاَدِ النُّوْبَةِ ثُمَّ بِلاَدِ مِصْرَ فإِذَا جاوَزَهَا تَشعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبةٍ يُسمَّى كلُّ واحِدٍ مِنهاَ خلِيجاً وتَصُبُّ كلُّهاَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِ عِنْدَ الإسْكَنْدرِيَّةُ ويُسمَّى نيلَ مِصْرَ وعلَيهِ الصَّعِيدُ منْ شرْقِيهِ والْواَحاتُ منْ غرْبِيهِ ويذْهبُ الآخَرُ مُنْعطِفاً إِلَى الْمغْرِبِ ثُمَّ يمرُّ علَى سمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصبَّ فِي الْبحْرِ الْمُحيطِ وهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وأُمَمُهُمْ كلُّهُمْ علَى ضِفَّتَيْهِ . وأمَّا الْفُرَاتُ فَمَبْدأُهُ مِنْ بِلاَدِ أَرْمِينِيَّةَ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الإقْلِيمِ الْخَامِسِ ويَمُرُّ جنُوباً فِي أرْضِ الرُّومِ ومَلَطْيَةَ إِلَى منْبِجَ ثُمَّ يمرُّ بِصفَّيْنَ ثُمَّ بِالرَّقةِ ثُمَّ بِالْكُوفةِ إِلَى أَنْ ينْتَهِيَ إِلَى الْبطْحاَءِ الَّتِي بيْنَ الْبَصْرَةِ وواَسِطَ ومِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الحبَشِيِّ وتَنْجلِبُ إِليْهِ فِي طَرِيقهِ أَنْهَارٌ كثِيرَةٌ ويَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهاَرٌ أُخْرَى تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ .

وأَمَّا دِجْلَةُ فَمَبْدأُهاَ عيْنٌ بِبِلاَدِ خِلاَطٍ مِنْ أَرْمِينِــــيَّةَ أَيْضاً وَتَمرُّ علَى سمْتِ الْجَنُوبِ بالْموْصِلِ وأَذْرَبِيجاَنَ وبَغْدَاد إلَى وَاسِط فتَتَفَرَّقُ إلَى خلْجَانٍ كلُّهاَ تَصبُّ فِي بُحيْرةِ الْبَصْرةِ وَتُفْضِي إلَى بَحْرِ فارِسَ وَهُوَ فِي الـــشَّرْقِ علَى يمِينِ الْفُرَاتِ وينْجلِبُ إِلَيْهِ أنْهاَرٌ كثِيــرَةٌ عظِيــمةٌ منْ كلِّ جانِبٍ وفَـــيِماَ بيْنَ الْفُرَاتِ ودِجْلَةَ مِنْ أَوَّلِهِ جزِيرةُ الْموْصِلِ قبَالَ الشَّامِ مِنْ عدْوَتَي الْفُرَاتِ وقُبَالَةَ اذْربِيــجاَنَ مِنْ عدْوةِ دِجْلَةَ . وأَمَّا نهْرُ جيَحوْنَ فمَبْدأُهُ مِنْ بلَخَ فِي الْجُزْءِ الـــثَّامِنِ مِنَ الإِقْلِيمِ الثَّالثِ مِنْ عيُونٍ هُنَاكَ كثِيرةٍ . وتنْجلِبُ إِلَيْهِ أَنْهـارٌ عــــظَامٌ ويذْهبُ مِنَ الْجَنُوبِ إلَى الـــشَّمَالِ فيَمرُّ بِبِلاَدِ خُرَاسانَ ثُمَّ يَخْرُجُ منْهاَ إِلَى بِلاَد خُوارِزْمَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنَ الإِقْلِيــمِ الْخَامسِ فيَصبُّ فِي بُحيْرةِ الْجُرْجاَنيَّةِ الَّتِي بِأَسْفَلِ مَدِينَتِهاَ وَهِيَ مَسِيـــرَةَ شَهْرٍ فِي مِثْلِه وإِلَيْهاَ يَنْصبُّ نَهْرُ فرْغاَنَةَ والـــشَّاشِ الآتِي مِنْ بِلاَدِ الـــتُّرْك وعلَى غَرْبِي نَهْرِ جيْحوُنَ بلاَدُ خُرَاسانَ وَخُوارِزْمَ وَعلَى شرْقِيةِ بِلاَدُ بُخَارَى وتُرْمذَ وَسمَرْقَنْدَ ومنْ هُنَالِكَ إِلَى ماَ وَراءهُ بِلاَدُ الـــــتُّرْك وفَرْغاَنَةَ والْخَزْلَجيةِ وأُممِ الأَعاَجِمِ وقدْ ذكَرَ ذلِكَ كلَّهُ بَطْليـــموُسُ فِي كِتاَبِهِ والشَّرِيفُ فِي كِتاَبِ زَخَّارِ

وَصَوَّرُوا فِي الْجُغْرَافِيَا جَمِيعَ مَا فِي الْمَعْمُورِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ والأَوْدِيَةِ وَاسْتَوْفَوا مِنْ ذلكَ مَا لاَحَاجَةَ لَنَا بِهِ لِطُولِهِ وَلأَنَّ عِنَايَتَنَا فِي الأَكْثَرِ إِنَّمَا هِيَ بِالْمَغْرِبِ الَّذِي هُوَ وَطَنُ الْبَرْبَرِ وَبِالأَوْطَانِ الَّتِي لِلْعَرَبِ مِنْ الْمَشْرِقِ وَاللهُ الْمُوَفِّقُ.

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم

قَدْ بَيَّنَا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ وَسَطُهُ لإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ. وَلَمَّا كَانَ الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَجَبَ أَنْ تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسَطِ فَيَكُونَ مُعْتَدِلاً فَالإِقْلِيمُ الرَّابِعُ أَعْدَلُ الْعُمْرَانِ وَالَّذِي حَافَاتُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ إِلَى الاعْتِدَالِ وَالَّذِي يَلِيهِمَا وَالثَّانِي وَالسَّادِسُ بَعِيدَانِ مِنَ الاعْتِدَالِ وَالأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ فَلِهذَا كَانَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ وَالْمَبَانِي وَالْمَلاَبِسُ وَالأَقْوَاتُ وَالْفَوَاكِهُ بَلْ وَالْحَيَوَانَاتُ وَجَمِيعُ مَا يَتَكَوَّنُ فِي هذِهِ الأَقَالِيمِ الثَّلاَثَةِ

الْمُتَوَسِّطَةَ مَخْصُوصَةً بِالاعْتِدَالِ وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلاَقًا وَأَدْيَانًا حَتَّى النُّبُوَّاتُ فَإِنَّمَا تُوجَدُ فِي الأَكْثَرِ فِيهَا وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرِ بَعْثَةٍ فِي الأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلاَ الشَّمَالِيَّةِ وَذَلِكَ أَن الأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوْعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلاَقِهِم قَالَ تَعَالَى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَهْلُ هَذِهِ الأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لِوُجُودِ الاعْتِدَالِ لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِنِهِمْ وَمَلاَبِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُنَجَّدَةَ بِالْحِجَارَةِ الْمُنَمَّقَةِ بِالصِّنَاعَةِ وَيَتَنَاغَوْنَ فِي اسْتِجَادَةِ الآلاَتِ وَالْمَوَاعِينِ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ وَتُوجَدُ لَدَيْهِمِ الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرَصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلاَتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ وَيَبْعُدُونَ عَنِ الانْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ وَهَؤُلاَءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالسِّنْدِ وَالصِّينِ وَكَذَلِكَ الأَنْدَلُسُ وَمَنْ قَرُبَ مِنْهَا مِنَ الْفِرَنْجَةِ وَالْجَلاَلِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ وَمَنْ كَانَ مَعَ هَؤُلاَءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَقُ

وَالـشَّامُ أَعْدَلَ هـذِهِ كلِّهاَ لأَنَّهاَ وَسَطٌ مِنْ جَمِيـعِ الْجِهاَتِ . وَأَمَّا الأَقاَلِيمُ الْبَعِيـــدَةُ مِنَ الاعْتدَالِ مِثْل الأَوَّلِ والـثَّانِي وَالـسَّادِسِ وَالـسَّابـعِ فَأَهْلُهاَ أَبْعَدُ مِنَ الاعْتِداَلِ فِي جَمِيـعِ أَحْوَالِهِمْ فَبِناَؤُهُمْ بِالطِّينِ وَالْقَصَبِ وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ الـــذُّرَةِ وَالْعِشْبِ وَمَلاَبِسهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ الـشَّجَرِ يَخْصِفُونَهاَ علَيْهِمْ أَوِ الْجلُودِ وَأَكْثرهُمْ عرَاياَ مِنَ الــــلّبَاسِ وَفَوَاكهُ بِلاَدهِمْ وَأَدَمهاَ غَرِيـبَةُ الـتَّكْوِيـنِ ماَئِلةٌ إِلَى الانْحِرَافِ وَمُعاَملاَتُهُمْ بِغَيْرِ الْحَجَرَيْنِ الـشَّرِيـفَيْنِ مِنْ نُحاَسٍ أَوْ حَدِيـدٍ أَوْ جلُودٍ يَقْدُرُونَهاَ لـلمُعاَملاَتِ وَأَخْلاَقُهُمْ مـعَ ذلكَ قَرِيـبَةٌ مِنْ خلَقِ الْحيَوَاناَت الْعُجْمِ حتَّى ليُنْقَلُ عَنِ الْكثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلِ الإِقْلِيــمِ الأَوَّلِ أَنَّهمْ يسكُنُونَ الْكُهُوفَ وَالْغِياَضَ وَيأكلُونَ الْعشْبَ وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِشُونَ غَيْرُ مُسْتَـأْنسِينَ يأكُل بَعْضهُمْ بَعْضاً وكَذاَ الـصَّقاَلِبَة وَالـسَّبَبُ فِي ذلكَ أَنَّهمْ لِبُعْدِهِمْ عَنِ الاعْتِدَال يَقْرُبُ عرَضُ أَمْزِجتِهِمِ وَأَخْلاَقِهِمْ مِنْ عرَض الْحيَوَاناَتِ الْعُجْمِ وَيَبْعُدُونَ عـــنِ الإِنْساَنِيَّةِ بِمِقْدَارِ ذلكَ وكَذلكَ أَحْوَالُهُمْ فِي الــــدِّياَنَةِ أَيْضاً فَلاَ يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلاَ يَدِيـنُونَ بِشَرِيـعَةٍ إِلاَّ مَنْ قَرُبَ مِنْهُمْ مِنْ جوَانِبِ الاعْتِدَالِ وَهُوَ فِي الأَقَلِ الـنَّادِرِ مِثْلَ الْحبَشَةِ الْمُجاَوِرِيـــنَ لـلْيَمَنِ

الدَّائنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ الإِسْلاَمِ وَمَا بَعْدَهُ لِهذَا الْعَهْدِ وَمِثْلَ أَهْلِ مَالِي وَكُوكُو وَالتَّكْرُورِ الْمُجَاوِرِينَ لأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائنِينَ بِالإِسْلاَمِ لِهذَا الْعَهْدِ يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمائَةِ السَّابِعَةِ وَمِثْل مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ الصَّقَالِبَةِ وَالإِفْرَنْجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ وَمَنْ سِوَى هؤُلاَءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوباً وَشَمَالاً فَالدِّينُ مَجْهُولٌ عِنْدَهُمْ وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الأَنَاسِيِّ قَرِيبَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وَلاَ يُعْتَرَضُ عَلَى هذَا الْقَوْلِ بِوجُودِ الْيَمَنِ وَحَضْرَمُوتَ وَالأَحْقَافِ وَبِلاَدِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الإِقْلِيمِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي فَإِنَّ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْبِحَارُ مِنَ الْجِهَاتِ الثَّلاَثِ كَمَا ذَكَرْنَا فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا فَنَقَصَ ذلِكَ مِنَ الْيُبْسِ وَالانْحِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ الاعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ بَعْضُ النَّسَّابِينَ مِمَّنْ لا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وُلْدُ حَامِ بْنِ نُوحٍ اخْتُصُّوا بِلَوْنِ السَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ وَفِيمَا جَعَلَ اللهُ مِنَ الرِّقِّ

فِي عقَبِـــهِ ويَنْقلُونَ فِي ذلكَ حِكَايَةً مِنْ خُرَافَاتِ الْقُصَّاصِ وَدُعَاءُ نُوحٍ عَلَى ابْنِهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ فِي التَّوْرَاهِ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ السَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَبِيداً لِوُلْدِ إِخْوَتِهِ لا غَيْرُ وَفِي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ السَّوَادِ إِلَى حَامٍ غَفْلَةٌ عَنْ طَبِيـــعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِهِمَا فِي الْهَوَاءِ وَفِيمَـــا يَتَكَوَّنُ فِيـــهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَذلِكَ أَنَّ هـــذَا الـلَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الإِقْلِيـــمِ الأَوَّلِ وَالـــثَّانِي مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ فَإِنَّ الـشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ فِي كُلِّ سَنَةٍ قَرِيـبَةٍ إِحْدَاهُمَا مِنَ الأُخْرَى فَتَطُولُ الْمُسَامَتَةُ عَامَّةَ الْفُصُولِ فَيَكْثُرُ الـضَّوْءُ لأَجْلِهَا وَيُلِحِ الْقَيْظُ الـشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لإِفْرَاطِ الْحَرِّ وَنَظِيرُ هـذَيْنِ الإِقْلِيمَيْنِ مِمَّا يُقَابِلُهُمَا مِنَ الشَّمَالِ الإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ شَمَلَ سُكَّانَهُمَا أَيْضاً الْبَيَاضُ مِنْ مِزَاجِ هَوَائِهِمْ لِلْبَرْدِ الْمُفْرِطِ بِالـــــشَّمَالِ إِذِ الـــشَّمْسُ لاتَزَالُ بِأُفُقِهِمْ فِي دَائِرَةِ مَرْأَى الْعَيْنِ أَوْ مَاقَرُبَ مِنْهَا وَلاَ تَرْتَفِعُ إِلَى الْمُسَامَتَةِ وَلاَ مَا قَرُبَ مِنْهَا فَيَضْعُفُ الْحَرُّ فِيهَا وَيَشْتَدُّ الْبَرْدُ عَامَّةَ الْفُصُولِ فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إِلَى الزُّعُورَةِ وَيَتْبَعُ ذلكَ مَا يَقْتَضِيـــهِ مِزَاجُ الْبَرْدِ الْمُفْرِطِ مِنْ زُرْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِ الْجُلُودِ وَصُهُوبَةِ الـشُّعُورِ

وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الأَقَالِيمُ الثَّلاثَةُ الْخَامِسُ والرَّابِعُ والثَّالِثُ فكَانَ لهَا فِي الاعْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مِزَاجُ الْمُتَوَسِط حَظٌّ وافِرٌ والرَّابِعُ أَبْلَغُهَا فِي الاعْتِدَالِ غَايَةً لِنِهَايَتِهِ فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فكَانَ لأَهْلِهِ مِنَ الاعْتِدَالِ فِي خُلُقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ وَخَلْقِهِمْ مَا اقْتَضَاهُ مِزَاجُ أَهْوِيَتِهِمْ وتَبِعَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ الثَّالِثُ وَالْخَامِسُ وإِنْ لَمْ يَبْلُغَا غَايَةَ التَّوَسُّطِ لِمَيْلِ هذَا قَلِيلاً إِلَى الْجَنُوبِ الْحَارِّ وَهذا قَلِيلاً إِلَى الشَّمَالِ الْبَارِدِ إِلاَّ أَنَّهُمَا لَمْ يَنْتَهِيَا إِلَى الانْحِرَافِ وكَانَتِ الأَقَالِيمُ الأَرْبَعَةُ مُنْحَرِفَةً وأَهْلُهَا كَذلِك فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ فالأَوَّلُ والثَّانِي لِلْحَرِّ وَالسَّوَادِ والسَّابِعُ لِلْبَرْدِ وَالْبَيَاضِ ويُسَمَّى سُكَّانُ الْجَنُوبِ مِنَ الإِقْلِيمَيْنِ الأَوَّلِ وَالثَّانِي بِاسْمِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنْجِ والسُّودَانِ أَسْمَاءً مُتَرَادِفةً عَلَى الأُمَمِ الْمُتَغَيِّرَةِ بِالسَّوَادِ وإِنْ كَانَ اسْمُ الْحَبَشَةِ مُخْتَصاً مِنْهُمْ بِمَنْ تجَاهَ مَكَّةَ وَالْيَمَنِ والزَّنجِ بِمَنْ تجَاهَ بَحْرِ الْهِنْدِ ولَيْسَتْ هذِهِ الأَسْمَاءُ لَهُمْ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى آدَمِيٍّ أَسْوَدَ لاَ حَامٍ وَلاَ غَيْرِه وَقَدْ نَجِدُ مِنَ السُّودَانِ أَهْلِ الْجَنُوبِ مَنْ يَسْكُنُ الرُّبْعَ الْمُعْتَدِلَ أَوِ السَّابِعَ الْمُنْحَرِفَ إِلَى الْبَيَاضِ فتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ عَلَى التَّدْرِيجِ مَعَ الأَيَّامِ وَبِالعَكْسِ فِيمَنْ يَسْكُنُ مِنْ

أَهْلِ الشَّمَالِ أَوِ الرَّابعِ بِالْجَنُوبِ فَتَسْوَد أَلْوَانُ أَعْقَابِهِمْ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّوْنَ تَابِعٌ لِمِزَاجِ الْهَوَاءِ قَالَ ابْنُ سِينَا فِي أُرْجُوزَتِهِ فِي الطِّبِّ :

بِالزَّنْجِ حَرٌّ غَيَّرَ الأَجْسَادَا حَتَّى كَسَا جُلُودَهَا سَوَادَ

وَالصِّقْلِبُ اكْتَسَبَتِ الْبَيَاضَا حَتَّى غَدَتْ جُلُودُهَا بَضَاضَا

وَأَمَّا أَهْلُ الشَّمَالِ فَلَمْ يُسَمَّوا باعْتِبَارِ أَلْوَانِهِمْ لأَنَّ الْبَيَاضَ كَانَ لَوْنًا لأَهْلِ تِلْكَ اللُّغَةِ الْوَاضِعَةِ لِلأَسْمَاءِ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَرَابَةٌ تَحْمِلُ عَلَى اعْتِبَارِهِ فِي التَّسْمِيَةِ لِمُوَافَقَتِهِ وَاعْتِيَادِهِ وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغُرْ غُرِ وَالْخَزَرِ وَاللاَّنِ وَالْكَثِيرِ مِنَ الإِفْرَنْجَةِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَسْمَاءً مُتَفَرِّقَةً وَأَجْيَالاً مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَأَمَّا أَهْلُ الأَقَالِيمِ الثَّلاَثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ أَهْلِ الاعْتِدَالِ فِي خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ وَكَافَّةِ الأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلاعْتِمَارِ لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِنِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّئَاسَاتِ وَالْمُلْكِ فَكَانَتْ فِيهِمِ النُّبُوَّاتُ وَالْمُلْكُ وَالدُّوَلُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ وَالأَمْصَارُ وَالْمَبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِقَةُ وَسَائِرُ الأَحْوَالِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلُ هَذِهِ الأَقَالِيمِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ مِثْلَ الْعَرَبِ وَالرُّومِ

وَفَارِسَ وبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْيُونَانِ وَأَهْلِ السِّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ . ولَمَّا رأَى النَّسَّابُونَ اخْتِلاَفَ هذِهِ الأُمَمِ بِسمَاتِهاَ وَشِعاَرِهاَ حَسِبُوا ذلِكَ لأَجْلِ الأَنْسَابِ فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كلَّهُمُ السُّودَانَ مِنْ وُلْدِ حَامٍ وَارْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ فتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكاَيَةِ الْوَاهِيَةِ وجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وُلْدِ يَافِثَ وأَكْثَرَ الأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وأَهْلَ الْوَسَطِ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ والْمِلَلِ وَالشَّرَائِعِ والسِّيَاسَةِ وَالْمُلْكِ مِنْ وُلْدِ سَامٍ وَهذَا الزَّعْمُ وإِنْ صَادَفَ الْحَقَّ فِي انْتِسَابِ هؤُلاَءِ فلَيْسَ ذلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَّرِدٍ إِنَّماَ هُوَ إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ لاَ أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ وَالْحُبْشَانِ مِنْ أَجْلِ انْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الأَسْوَدِ . ومَا أَدَّاهُمْ إِلى هذاَ الْغَلَطِ إِلاَّ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الأُمَمِ إِنَّماَ يَقَعُ بِالأَنْسَابِ فقَطْ ولَيْسَ كَذلِكَ فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوِ الأُمَّةِ يكُونُ بِالنَّسَبِ فِي بَعْضِهِمْ كمَاَ لِلْعرَبِ وبَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْفُرْسِ ويَكُونُ بِالْجِهَةِ وَالسِّمَةِ كَمَا لِلزَّنْجِ وَالْحَبَشَةِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالسُّودَانِ ويَكُونُ بِالْعَوَائِدِ وَالشِّعَارِ وَالنَّسَبِ كَمَا لِلْعَرَبِ . وَيَكُونُ بِغَيْرِ ذلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الأُمَمِ وَخَوَاصِهِمْ وَمُمَيِّزَاتِهِمْ فتَعْمِيمُ الْقَوْلِ فِي أَهْلِ جِهَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِنْ جَنُوبٍ أَوْ

شَمَالٍ بِأَنَّهُمْ مِنْ وَلَدِ فُلاَنٍ الْمَعْرُوفِ لِمَا شَمَلَهُمْ مِنْ نِحْلَةٍ أَوْ لَوْنٍ أَوْ سِمَةٍ وُجِدَتْ لِذَلِكَ الأَبِ إِنَّمَا هُوَ مِنَ الأَغَالِيطِ الَّتِي أَوْقَعَ فِيهَا الْغَفْلَةُ عَنْ طَبَائِعِ الأَكْوَانِ وَالْجِهَاتِ وَإِنَّ هذِهِ كُلَّهَا تَتَبَدَّلُ فِي الأَعْقَابِ وَلاَيَجِبُ اسْتِمْرَارُهَا سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ بِغَيْبِهِ وَأَحْكَمُ وَهُوَ الْمَوْلَى الْمُنْعِمُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ .

المقدمة الرابعة
في أثر الهواء في أخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخِفَّةَ وَالطَّيْشَ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فَتَجِدُهُمْ مُولَعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوْقِيعٍ مَوْصُوفِينَ بِالْحُمْقِ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ انْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَتَفَشِّيهِ وَطَبِيعَةُ الْحُزْنِ بِالْعَكْسِ وَهُوَ انْقِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ . وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفَشِّيَةٌ لِلْهَوَاءِ وَالْبُخَارِ مُخَلْخِلَةٌ لَهُ زَائِدَةٌ فِي كَمِّيَّتِهِ وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُنْتَشِي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ مَا لاَيُعَبَّرُ عَنْهُ وَذَلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُخَارَ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنَ

الْحرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعثُهَا سَوْرَةُ الْخَمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مزَاجِهِ فيَتَفَشَّى الـرُّوحُ وتَجِيءُ طَبِيــعَةُ الْفرَحِ وكَذلِكَ نَجِدُ الْمُتَنَعمــــينَ بـالْحَمَّامَاتِ إذا تَنَفَّسُوا فِي هوَائِهَا واتَّصلَتْ حرَارَةُ الْهوَاءِ فِي أرْوَاحِهِمْ فتَسَخَّنَتْ لــذلِكَ حدَثَ لَهُمْ فرَحٌ ورُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيــرُ مِنْهُمْ بِالغِنَاءِ النَّاشِيءِ عَنِ السُّرُور .

ولَمـــا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ فِي الإِقْلِيمِ الْحارِّ واسْتَوْلَى الْحرُّ علَى أَمْزجَتِهِــمْ وفِي أَصلِ تَكْوِينِهِمْ كـانَ فِي أرْوَاحِهِمْ منَ الْحرَارَةِ علَى نِسبَةِ أَبْدَانِهِمْ وإِقْلِيمِهِمْ فتَكُونُ أرْوَاحُهُمْ بِالْقــيــاسِ إِلَى أرْوَاحِ أَهْلِ الإِقْلِيمِ الـرَّابِعِ أَشدَّ حرًّا فتَكُونُ أَكْثَرَ تَفَشِّيًا فتَكُونُ أَسْرَعَ فرَحًا وَسرُورًا وأَكْثَرَ انْبِسَاطًا ويَجِيءُ الطَّيْشُ علَى أَثَرِ هذِهِ وكَذلِكَ يلْحَقُ بِهِمْ قلِيــلاً أَهْلُ الْبِلاَدِ الْبَحْرِيَّةِ لَمَّا كَانَ هوَاؤُهَا متَضَاعِفَ الْحرَارَةِ بِمَا ينْعكِسُ علَيْهِ منْ أَضْوَاءِ بَسِيـــــطِ الْبَحْرِ وأَشِعَّتِهِ كَانَتْ حصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابـــعِ الْحرَارَةِ فِي الْفرَحِ والْخِفَّةِ موْجُودَةً أَكْثَرَ مِنْ بِلاَدِ التُّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ وقَدْ نَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلاَدِ الْجزِيـرِيَّةِ منَ الإِقْلِيــمِ الـثَّالِثِ لِتَوفُّرِ الْحرَارَةِ فِيـــهَا وفِي هوَائِهَا لأَنَّهَا عرِيقَةٌ فِي الْجنُوبِ عنِ الأَرْيَافِ وَالـتُّلُولِ واعْتَبِرْ ذلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ فإِنَّهَا مِثْلُ

عَرْضِ الْبِلاَدِ الْجَزِيـرِيَّةِ أَوْ قَرِيـباً مِنْهَا كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِـمْ وَالْخِفَّةُ وَالْغَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى أَنَّهُمْ لاَ يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَنَتِهِمْ وَلاَشَهْرِهِمْ وَعَامَّةُ مَأكَلِهِمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ . وَلَمَّا كَانَت فَاسُ مِنْ بِلاَدِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَغُّلِ فِي التُّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرِقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزْنِ وَكَيْفَ أَفْرَاطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ حَتَّى إِنَّ الـرَّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوتَ سَنَتَيْنِ مِنْ حُبُوبِ الْحِنْطَـةِ وَيُبَاكِرُ الأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةَ أَنْ يُرْزَأَ شَيْئاً مِنْ مُدَّخَرِهِ وَتَتبعْ ذَلِكَ فِي الأَقَالِيمِ وَالْبُلْدَانِ تَجِدْ فِي الأَخْلاَقِ أَثَراً مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ وَاللهُ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلْبَحْثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خِفَّةِ السُّودَانِ وَطَيْشِهِمْ وَكَثْرَةِ الطَّرَبِ فِيـهِمْ وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنَ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِيـنُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ لِضُعْفِ أَدْمِغَتِهِمْ وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِـنْ ضُعْفِ عُقُولِهِمْ وَهَـذَا كَلاَمٌ لاَ مُحَصَّلَ لَهُ وَلاَ بُرْهَانَ فِيهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

المقدمة الخامسة

فى اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى ابدان البشر وأخلاقهم

إِعلَمْ أَنَّ هـــذِهِ الأَقَالِيـــمَ الْمُعْتَدِلَةَ لَيْسَ كلُّهَا يُوجَدُ بِهَا الْخِصْبُ وَلا كلُّ سكَّانِهَا فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ بَلْ فِيـــهَا مَا يُوجَدُ لأَهْلِهِ خِصْبُ الْعَيْشِ مِنَ الْحبُوبِ وَالأُدْمِ وَالْحِنْطَةِ وَالْفوَاكهِ لِزَكَاءِ الْمَنَابِتِ وَاعْتِدَالِ الــطِّيــنَةِ ووُفُورِ الْعُمْرَانِ وَفِيهَا الأَرْضُ الْحرَّةُ الَّتِى لاَ تُنْبِتُ زَرْعًا وَلاَ عِشْبًا بِالْجُمْلَةِ فَسكَّانُهَا فِي شَظَفٍ مِــنَ الْعَيْشِ مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ وَمِــــثْلُ الْمُلَثَّمِينَ مِنْ صِنْهَاجَةَ السَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَفِ الرِّمَالِ فِيمــا بَيْنَ الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ فَإِنَّ هؤُلاءِ يَفْقِدُونَ الْحبُوبَ والأُدمَ جُمْلَةً وَإِنَّمَا أَغْذِيتهمْ وَأَقْوَاتهُمُ الأَلْبَانُ وَالــــلُّحُومُ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ فَإِنَّهـمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْحبُوبَ وَالأُدْمَ مِنَ الــتُّلُولِ إِلاَّ أَنَّ ذلِكَ فِي الأَحَايِينِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيــتِهَا وَعَلَى الإِقْلاَلِ لِقِلَّةِ وَجْدِهِمْ فَلاَ يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْخلَّةِ أَوْ دُونَهَا فَضْلاً عَنِ الرَّغْدِ وَالْخِصْبِ وَتَجِدهُـمْ يَقْتَـصِرُونَ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِمْ عَلَى الأَلْبَانِ وَتُعَوِّضُهُمْ مِنَ الْحِنْطَةِ احْسَنَ مَعَاضٍ

وَتَجِدُ مَعَ ذلِكَ هَـؤُلاءِ الـفَاقِدِيـنَ لِلْحُبُوبِ والأُدَمِ مِنْ أَهْلِ الْقِفَارِ أَحْسَنَ حَالاً فِي جُسُومِهِمْ وَأَخْلاَقِهِمْ مِنْ أَهْلِ التُّلُولِ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الْعَيْشِ فَأَلْوَانُهُمْ أَصْفَـى وَأَبْدَانُهُمْ أَنْقَى وَأَشْكَالُهُـمْ أَتَمّ وَأَحْسَنُ وَأَخْلاقُهُمْ أَبْعَدُ مِنَ الانْحِرَافِ وَأَذْهَانُهُمْ اثْقَبُ فِي الْمَعَارِف وَالإِدْرَاكَاتِ هَـذَا أَمْرٌ تَشْهَدُ لَهُ التَّجْرِبَةُ فِي كُلِّ جِيلٍ مِنْهُم فَكَثِيـرٌ مَا بَيْنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ فِيمَا وَصَفْنَاه وَبَيْنَ الْمُلَثَّمِينَ وَأَهْلِ التُّلُولِ يَعْرِفُ ذلِكَ مَنْ خَبَرَهُ وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ كَثْرَةَ الأَغْذِيَةِ وَكَثْرَةَ الأَخْلاَطِ الْفَاسِدَةِ الْعَفِنَةِ وَرُطُوبَاتِهَـا تُوَلِّد فِي الْجِسْمِ فَـضَلاَت رَدِيئَةً تَنْشَأُ عَنْهَا بَعْدَ إِقْطَارِهَا فِي غَيْرِ نِسْبَةٍ وَيَتْبَعُ ذلك انْكِسَافُ الأَلْـوَانِ وَقُبْحُ الأَشْكَـالِ مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ كَمَا قُلْنَاهُ وَتُغَطِّي الـرُّطُوبَاتُ عَلَى الأَذْهَانِ وَالأَفْكَارِ بِمَا يَصْعَدُ إِلَى الـدِّمَاغِ مِنْ أَبْخِرَتِهَا الـرَّدِيئَةِ فَتَجِيءُ الْبَلاَدَةُ وَالْغَفْلَةُ وَالانْحِرَافُ عَنِ الاعْتِدالِ بِـالْجُمْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذلِكَ فِي حَيَوَانِ الْقَفْرِ وَمَوَاطِنِ الْجَدْبِ مِنَ الْغِزَالِ وَالـنَّعَامِ وَالْمَهَا وَالـزَّرَافَةِ وَالْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ وَالْبَقَرِ مَعَ أَمْثَالِهَا مِنْ حَيَوَانِ التُّلُولِ وَالأَرْيَافِ وَالْمَرَاعِي الْخَـصِبَةِ كَيْفَ تَجِدُ بَيْنَهَا بَوْنًا بَعِيـدًا فِي صَفَاءِ أَدِيمِهَا وَحُسْنِ رَوْنَقِهَا وَأَشْكَالِهَا وَتَنَاسُبِ

أَعْضَائِهَا وَحِدَّةِ مَدَارِكِهَا فَالْغَزَالُ أَخُو الْمَعَزِ وَالزَّرَافَةُ أَخُو الْبَعِيرِ وَالْحِمَارُ وَالْبَقَرُ أَخُو الْحِمَارِ وَالْبَقَرِ وَالْبَوْنُ بَيْنَهَا مَا رَأَيْتَ وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لأَجْلِ أَنَّ الْخِصْبَ فِي التُّلُولِ فَعَلَ فِي أَبْدَانِ هَذِهِ مِنَ الْفَضَلاَتِ الرَّدِيَّةِ وَالأَخْلاَطِ الْفَاسِدَةِ مِمَّا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ وَالْجُوعُ لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَّنَ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الآدَمِيِّينَ أَيْضاً فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الأَقَالِيمِ الْمُخْصِبَةِ الْعَيْشِ الْكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ وَالأُدْمِ وَالْفَوَاكِهِ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِباً بِالْبَلاَدَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْخُشُونَةِ فِي أَجْسَامِهِمْ وَهَذَا شَأْنُ الْبَرْبَرِ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الأُدْمِ وَالْحِنْطَةِ مَعَ الْمُتَقَشِّفِينَ فِي عَيْشِهِمِ الْمُقْتَصِرِينَ عَلَى الشَّعِيرِ أَوِ الذُّرَةِ مِثْلَ الْمَصَامِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ غِمَارَةَ وَالسُّوسِ فَتَجِدَ هَؤُلاَءِ أَحْسَنَ حَالاً فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُومِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ بِلاَدِ الْمَغْرِبِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الأُدْمِ وَالْبُرِّ مَعَ أَهْلِ الأَنْدَلُسِ الْمَفْقُودِ بِأَرْضِهِمِ السَّمْنُ جُمْلَةً وَغَالِبُ عَيْشِهِمِ الذُّرَةُ فَتَجِدُ لأَهْلِ الأَنْدَلُسِ مِنْ ذَكَاءِ الْعُقُولِ وَخِفَّةِ الأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لاَ يُوجَدُ لِغَيْرِهِمْ وَكَذَا أَهْلُ الضَّوَاحِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجُمْلَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَضَرِ وَالأَمْصَارِ فَإِنَّ الأَمْصَارَ وَإِنْ كَانُوا مُكْثِرِينَ مِثْلَهُمْ مِنَ الأُدْمِ

وَمُخْصبِينَ فِي الْعَيْشِ إِلاَّ أَنَّ اسْتِعْمَالَهُم . إِيَّاهَا بَعْدَ الْعِلاَجِ بِالطَّبْخِ وَالتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلُطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ غِلَظُهَا وَيَرِقُّ قِوَامُهَا وَعَامَّةُ مَا كُلِهِمْ لُحُومُ الضَّأْنِ وَالدَّجَاجِ وَلاَ يَغْبِطُونَ السَّمْنَ مِنْ بَيْنَ الأُدَمِ لِتَفَاهَتِهِ فَتَقِلُّ الرُّطُوبَاتِ لِذَلِكَ فِي أَغْذِيَتِهِمْ وَيَخِفُّ مَا تُؤَدِيهِ إِلَى أَجْسَامِهِمْ مِنَ الْفَضَلاَتِ الرَّدِيَّةِ فَلَذَلِكَ تَجِد جُسُومَ اهْلِ الأَمْصَارِ أَلْطَفَ مِنْ جُسُومِ الْبَادِيَةِ الْمُخَشَّنِينَ فِي الْعَيْشِ وَكَذَلِكَ تَجِدُ الْمَعَوَّدِينَ بِالْجُوعِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لاَفَضَلاَتَ فِي جُسُومِهِم غَلِيظَةَ وَلاَ لَطِيفَةَ . وَاعْلَمْ أَنَّ أَثَرَ هَذَا الْخِصْبِ فِي الْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ يَظْهَرُ حَتَّى فِي حَالِ الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ فَنَجِدُ الْمُتَقَشِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَوِ الْحَاضِرَةِ مِمَّنْ يَأْخُذُ نَفْسَهُ بِالْجُوعِ وَالتَّجَافِي عَنِ الْمَلاَذِّ أَحْسَنَ دِينًا وَإِقْبَالاً عَلَى الْعِبَادَةِ مِنْ أَهْلِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ بَلْ نَجِدُ أَهْلَ الدِّينِ قَلِيلِينَ فِي الْمُدُنِ وَالأَمْصَارِ لِمَا يَعُمُّهَا مِنَ الْقَسَاوَةِ وَالْغَفْلَةِ الْمُتَّصِلَةِ بِالإِكْثَارِ مِنَ اللُّحْمَانِ وَالأُدَمِ وَلُبَابِ الْبُرِ وَيَخْتَصُّ وَجُودُ الْعُبَّادِ وَالزُّهَّادِ لِذَلِكَ بِالْمُتَقَشِفِينَ فِي غِذَائِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي وَكَذَلِكَ نَجِدُ هَؤُلاءِ الْمُخْصِبِينَ فِي الْعَيْشِ الْمُنْغَمِسِينَ فِي طَيِّبَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَوَاضِرِ

وَالأَمْصَارِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِم السِّنُونَ وَأَخَذَتْهُمُ الْمَجَاعَاتُ يُسْرِعُ إِلَيْهِمِ الْهَلاَكُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ مِثْل بَرَابِرَةِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِ مَدِينَةِ فَاسَ وَمِصْرَ فِيمَا يَبْلُغُنَا لا مِثْل الْعَرَبِ أَهْلِ الْقَفْرِ وَالصَّحْرَاءِ وَلاَ مِثْلَ أَهْلِ بِلاَدِ النَّخْلِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمِ التَّمْرُ وَلاَ مِثْلَ أَهْلِ أَفْرِيقِيَّةَ لِهذَا الْعَهْدِ الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمِ الشَّعِيرُ وَالزَّيْتُ وَأَهْلِ الأَنْدَلُس الَّذِينَ غَالِبُ عَيْشِهِمِ الذُّرَةُ وَالزَّيْتُ فَإِنَّ هؤُلاَءِ وَإِنْ أَخَذَتْهُمُ السِّنُونَ وَالْمَجَاعَاتُ فَلاَ تَنَالُ مِنْهُمْ مَا تَنَالُ مِنْ أُولَئِكَ وَلاَ يَكْثُرُ فِيهِمِ الْهَلاَكُ بِالْجُوعِ بَلْ وَلاَ يَنْدُرُ وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمُنْغَمِسِينَ فِي الْخِصْبِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلأَدَمِ وَالسَّمْنِ خُصُوصاً تَكْتَسِبُ مِنْ ذلِكَ أَمْعَاؤُهُمْ رُطُوبَةً فَوْقَ رُطُوبَتِهَا الأَصْلِيَّةِ الْمِزَاجِيَّةِ حَتَّى تُجَاوِزَ حَدَّهَا فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقِلَّةِ الأَقْوَاتِ وَفِقْدَانِ الأَدَمِ وَاسْتِعْمَالِ الْخَشِنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْمِعَا الْيُبْسُ وَالانْكِمَاشُ وَهُوَ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ فَيُسْرِعُ إِلَيْهِ الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لأَنَّهُ مِنَ الْمَقَاتِلِ فَالهَالِكُونَ فِي الْمَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشِّبَعُ الْمُعْتَادُ السَّابِقُ لاَ الْجُوعُ الْحَادِثُ اللاَّحِقُ . وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُون لِقِلَّةِ الأَدَمِ وَالسَّمْنِ فَلاَ تَزَالُ رُطُوبَتُهُمُ

الأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةً عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الأَغْذِيَةِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلاَ يَقَعُ فِي مَعَاهِمْ بِتَبَدُّلِ الأَغْذِيَةِ يَبَسٌ وَلاَ انْحِرَافٌ فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلاَكِ الَّذِي يَعْرِضُ لِغَيْرِهِمْ بِالْخِصْبِ وَكَثْرَةِ الأُدْمِ فِي الْمَآكِلِ وَأَصْلُ هَذَا كُلِّهِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الأَغْذِيَةَ وَائْتِلاَفَهَا أَوْ تَرْكَهَا إِنَّمَا هُوَ بِالْعَادَةِ فَمَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ غِذَاءً وَلاَءَمَهُ تَنَاوُلُهُ كَانَ لَهُ مَأْلُوفاً وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ بِالْجُمْلَةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُّوعِ[1] وَمَا أَفْرَطَ فِي الانْحِرَافِ فَأَمَّا مَا وُجِدَ فِيهِ التَّغَذِّي وَالْمُلاَءَمَةُ فَيَصِيرُ غِذَاءً مَأْلُوفاً بِالْعَادَةِ فَإِذَا أَخَذَ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ بِاسْتِعْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عِوَضاً عَنِ الْحِنْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَناً فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ غِذَاءً وَاسْتَغْنَى بِهِ عَنِ الْحِنْطَةِ وَالْحُبُوبِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَكَذَا مَنْ عَوَّدَ نَفْسَهُ الصَّبْرَ عَلَى الْجُوعِ وَالاسْتِغْنَاءَ عَنِ الطَّعَامِ كَمَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الرِّيَاضِيَّاتِ فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَخْبَاراً غَرِيبَةً يَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لاَ يَعْرِفُهَا وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ

---

(١) قال في القاموس اليتوع كصبور أو تنو نبات له لبن دار مسهل محرق مقطع والمشهور منه سبعة الشبرم واللاعية والعرطنشيا والماهودانة والمازريون والفلجلشت والعشر وكل اليتوعات إذا استعملت في غير وجهها هلكت . اهـ.

فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلَفت شَيْئًا صَارَ مِنْ جِبِلَّتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لأَنَّهَا كَثِيـــرَةُ التَّلَوُّنِ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِـــيَاءُ الْجُوعِ بِالتَّدْرِيجِ وَالـــرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعَةً لَهَا وَمَا يَـــتَوَهَّمُهُ الأَطِبَّاءُ مِنْ أَنَّ الْجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلاَّ إِذَا حُمِلَتِ الـــنَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً وَقُطِعَ عَنْهَا الْغِذَاءُ بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّهُ حِـــينَئِذٍ يَنْحَـــسِمُ الْمِعَاءُ وَيَنَالُهُ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ الـهَلاَكُ وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدَرُ تَدْرِيجَـــا وَرِيَاضَةً بِإِقْلاَلِ الْغِذَاءِ شَيْئًا فَشَيْـئًا كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُـتَصَوِّفَةُ فَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الـهَلاَكِ وَهَذَا الـتَّدْرِيـجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الرُّجُوعِ عَنْ هـذِهِ الـرِّيَاضَةِ فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغِذَاءِ الأَوَّلِ دَفْعَةً خِيـفَ عَلَيْهِ الْهَلاَكُ وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا بَدَأَ فِي الـرِّيَاضَةِ بِالـتَّدْرِيجِ وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وِصَالاً وَأَكْثَرَ .

وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ الـسُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ امْرَأَتَانِ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيـــرَةِ الْخَضْرَاءِ وَرَنْدَةَ حَبَسَتَا أَنْفُسَهُمَا عَنِ الأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ سِنِينَ وَشَاعَ أَمْرُهُمَا وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا فَصَحَّ شَأْنُهُمَا وَاتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَتَا وَرَأَيْنَا كَثِيـــرًا مِنْ أَصْحَابِنَا أَيْضًا مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَعَزِ يَلْتَقِمُ ثَدْيَهَا فِي بَعْضِ الـنَّهَارِ أَوْ عِنْدَ

الإفْطَارِ وَيَكُونُ ذلكَ غذاءَهُ وَاسْتَدَامَ عَلَى ذلكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ وَلاَ يُسْتَنْكَرُ ذلكَ . وَاعْلَمَ أَنَّ الْجُوعَ أَصْلَحُ لِلْبَدَنِ مِنْ إِكْثَارِ الأَغْذِيَةِ بِكُلِّ وَجْهٍ لِمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ أَوْ عَلَى الإِقْلاَلِ وَإِنَّ لَهُ أَثَرًا فِي الأَجْسَامِ وَالْعُقُولِ فِي صَفَائِهَا وَصَلاَحِهَا كَمَا قُلْنَاهُ وَاعْتَبِرْ ذلكَ بِآثَارِ الأَغْذِيَةِ الَّتِي تَحْصُلُ عَنْهَا فِي الْجُسُومِ فَقَدْ رَأَيْنَا الْمُتَغَذِّينَ بِلُحُومِ الْحَيَوَانَاتِ الفَاخِرَةِ الْعَظِيمَةِ الْجُثْمَانِ تَنْشَأُ أَجْيَالُهُمْ كَذَلِكَ وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ وَكَذَا الْمُتَغَذُّونَ بِأَلْبَانِ الإِبِلِ وَلُحُومِهَا أَيْضًا مَعَ مَا يُؤَثِّرُ فِي أَخْلاَقِهِمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالاحْتِمَالِ وَالقُدْرَةِ عَلَى حَمْلِ الأَثْقَالِ الْمَوجُودِ ذلكَ لِلإِبِلِ وَتَنْشَأُ أَمْعَاؤُهُمْ أَيْضًا عَلَى نِسْبَةِ أَمْعَاءِ الإِبِلِ فِي الصِّحَّةِ وَالغِلَظِ فَلاَ يَطْرُقُهَا الْوَهَنُ وَلاَ يَنَالُهَا مِنْ مَدَارِ الأَغْذِيَةِ مَا يَنَالُ غَيْرَهُمْ فَيَشْرَبُونَ الْيَتُّوعَاتِ لاسْتِطْلاَقِ بُطُونِهِمْ غَيْرَ مَحْجُوبَةٍ كَالْحَنْظَلِ قَبْلَ طَبْخِهِ وَالدَّرْيَاسِ وَالْقَرْبَيُونِ وَلا يَنَالُ أَمْعَاءَهُمْ مِنْهَا ضَرَرٌ وَهِيَ لَوْ تَنَاوَلَهَا أَهْلُ الْحَضَرِ الرَّقِيقَةُ أَمْعَاؤُهُم بِمَا نَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ لَطِيفِ الأَغْذِيَةِ لَكَانَ الْهَلاَكُ أَسْرَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ طَرْفَةِ الْعَيْنِ لِمَا فِيهَا مِنَ السَّمِّيَةِ وَمِنْ تَأْثِيرِ الأَغْذِيَةِ فِي الأَبْدَانِ مَا ذَكَرَهُ أَهْلُ

الْفِلاَحَةِ وَشَاهَدَهُ أَهْلُ التَّجْرِبَةِ أَنَّ الدَّجَاجَ إِذَا غُذِّيَتْ بِالحُبُوبِ الْمَطْبُوخَةِ فِي بَعَرِ الإِبِلِ وَاتَّخَذَ بَيْضَهَا ثُمَّ حَضَنَتْ عَلَيْهِ جَاءَ الدَّجَاجُ مِنْهَا أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَقَدْ يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَغْذِيَتِهَا وَطَبْخِ الْحُبُوبِ بِطَرْحِ ذَلِكَ الْبَعَرِ مَعَ الْبَيْضِ الْمُحَضَّنِ فَيَجِيءُ دَجَاجُهَا فِي غَايَةِ الْعِظَمِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فَإِذَا رَأَيْنَا هَذِهِ الآثَارَ مِنَ الأَغْذِيَةِ فِي الأَبْدَانِ فَلاَ شَكَّ أَنَّ لِلْجُوعِ أَيْضاً آثَاراً فِي الأَبْدَانِ لأَنَّ الضِّدَّيْنِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي التَّأْثِيرِ وَعَدَمِهِ فَيَكُونُ تَأْثِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الأَبْدَانِ مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخِلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّراً فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجِسْمِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ .

الفصل الثانى

في العمران البدويّ والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الأول

في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

إِعْلَمْ أَنَّ اخْتِلاَفَ الأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلاَفِ نِحْلَتِهِمْ مِنَ الْمَعَاشِ فَإِنَّ اجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوِنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَالابْتِدَاءِ بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَنَشِيطٌ قَبْلَ الحَاجِي وَالْكَمَالِي فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الفَلْحَ مِنَ الْغِرَاسَةِ وَالزِّرَاعَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ القِيَامَ عَلَى الْحَيَوَانِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعَزِ وَالنَّحْلِ وَالدُّودِ لِنِتَاجِهَا وَاسْتِخْرَاجِ فَضَلاَتِها وَهؤُلاءِ الْقَائِمونَ عَلَى الْفَلْحِ وَالحَيَوَانِ تَدْعُوهُمُ الضَّرُورَةَ وَلاَبُدَّ إِلَى الْبَدْوِ لأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لِمَا لاَيَتَّسِعَ لَهُ الْحَوَاضِرُ مِنَ الْمَزَارِعِ وَالْفُدُنِ وَالْمَسَارِحِ لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذلِك فَكَانَ اخْتِصَاصُ هؤُلاءِ بِالْبَدْوِ أَمْراً ضَرُورِيّاً لَهُمْ وَكَانَ حِينَئِذٍ اجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوِنُهُمْ فِي حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَعُمْرَانِهِمْ مِنَ الْقُوتِ وَالْكِنِ وَالدِّفْءِ إِنَّمَا هُوَ بِالْمِقْدَارِ الَّذِي

يَحْفَظ الحيَاة ويَحصَلُ بلُغَةَ الْعيْشِ منْ غيْرِ مزِيــدِ علَيْهِ للْعجْزِ عمَّا ورَاءَ ذلكَ ثمَّ إذاَ اتَّسعَت أَحْوَال هـــــــؤُلاءِ الْمُنتحلينَ للْمعَاشِ وحَصلَ لَهُمْ ماَ فوْقَ الحَاجةِ منَ الْغنى وَالرَّفَه دعَاهُمْ ذلكَ إلَى السُّكُونِ وَالـدَّعةِ وتَعَاونُوا فِي الزَّائدِ علَى الـضَّرُورةِ واسْتَكْثرُوا منَ الأَقْوَات وَالْملاَبِس وَالـتَّأَنُّقِ فيـهاَ وتَوْسعةَ الْبيُوتِ وَاخْتطَاطِ الْمدُنِ والأَمْصاَرِ للتَّحَضُّرِ ثُمَّ تَزِيدُ أَحْوَالُ الـرَّفَهِ وَالدعةَ فتَجِيءُ عوَائدُ الـتَّرَف الْبَالغةَ مبَالغهَاَ فِي الـــتَّأَنُّقِ فِي علاَجِ الْقُوتِ واسْتجادةَ الْمطاَبـــخِ وَانْتقاَءِ الْملاَبسِ الْفاَخرَةِ فِي أَنْوَاعهاَ منَ الْحرِيرِ وَالدِّيبـاجِ وَغيْر ذلكَ وَمُعاَلاَةَ الْبيُوتِ وَالـــصُّرُوحِ وإِحْكاَمِ وَضْعهاَ فِي تنْجِيــدِهاَ وَالانْتهاَءِ فِي الصَّناَئعِ فِي الخُرُجِ منَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفعْلِ إلَى غاَيتَــهاَ فيَتَّخذُونَ الْقُصُورَ وَالْمناَزِلَ ويُجــرونَ فيــهاَ الْمياَهَ ويُعاَلونَ فِي صرْحِهاَ ويُبَالغُونَ فِي تنْجِيـدِهاَ وَيَخْتلفُونَ فــي استجَادَةَ ماَ يتَّخذونهُ لـمعَاشِهِمْ منْ ملْبُوس أَوْ فرَاشِ أَوْ آنيةٍ أَوْ ماَعُونِ وَهــــؤُلاءِ هُمُ الْحضَرُ وَمعْناَهُ الحــاضرُونَ أَهْل الأَمْصاَرِ والْبلْداَنِ ومِنْ هؤُلاَءِ منْ ينْتَحلِ فِي معَاشه الـــصَّناَئعَ ومِنهُمْ منْ ينْتَحلُ الـــتجاَرةَ وتَكُونُ مكَاسبهُمْ أَنْمَى وأَرْفهَ من أَهْل الْبَدْوِ لأنَّ أَحْوَالهُمْ زَائدةٌ علَى

الـــــضَّرُورِي وَمَعَاشَهُمْ عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِم فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لاَبُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَاهُ .

الفصل الثانى

في أن جيل العرب فى الخلقة طبيعى

قَدْ قَدَّمْنا فِي الْفَصْلِ قَبْلَهُ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ هُمُ الْمُنتحِلُونَ لِلْمَعَاشِ الطَّبِيعِيّ مِنَ الْفَلْحِ وَالقِـيَامِ عَلَى الأَنْعَامِ وأَنَّهُمْ مُقْتَصِرُونَ عَلَى الـــــضَّرورِى مِنَ الأَقْوَاتِ وَالْمَلاَبِس وَالْمَسَاكِنِ وَسَائِرِ الأَحْوَالِ وَالْعَوَائد وَمُقَصِّرُونَ عَمَّا فَوْقَ ذَلِكَ مِنْ حَاجِيّ أَوْ كَمَالِـيّ يَتَّخِذونَ الْبُيُوتَ مِنَ الـــشَّعَرِ وَالْوَبَرِ أَوِ الشَّجَرِ أَوْ مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارة غَيْرَ مُنَجَّدَةٍ إِنَّمَا هُوَ قَصْدُ الاسْتِظْلاَلِ وَالْكِنّ لاَ مَا وَرَاءَهُ وَقَدْ يَأوُونَ إِلَى الْغِيرَانِ وَالْكُهُوفِ وَأَمَّا أَقْوَاتُهُمْ فيَتَنَاوَلُونَ بِهَا يَسِيراً بِعِلاَجٍ أَوْ بِغَيْرِ عِلاَجٍ الْبَتَّةَ إِلاَّ مَا مَسَّتْه الـــنَّار فَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ مِنْهُمْ فِي الـزِّرَاعَةِ وَالْقِيَامِ بِالْفَلْحِ كَانَ الْمُقَامُ بِهِ أَوْلَى مِنَ الظَّعْنِ وَهَـؤُلاَءِ سُكَّان الْمدَرِ وَالْقُرَى وَالْجِبَـالِ وَهُمْ عَامَّة الْبَرْبَرِ وَالأَعَاجِمِ وَمَنْ كَانَ مَعَاشُهُ فِي السَّائِمَةِ مِثْلِ الغَنَمِ وَالـــبَقَرِ فَهُمْ ظُعَّنٌ فِي الأَغْلَبِ لارْتِيَادِ الْمَسَارِحِ وَالْمِيَاهِ لِحَيَوَانَاتِهِمْ فَالتَّقَلُّب فِي الأَرْض أَصْلَح بِهِمْ وَيُسَمَّوْنَ شَاوِيَةً

وَمَعْنَاه الْقَائِمُونَ عَلَى الشَّاءِ وَالْبَقَرِ وَلاَ يبْعِدونَ في الْقَفْرِ لِفقْدَانِ الْمَسَارِحِ الطَّيِّبَةِ وَهؤُلاء مِثْل الْبَرْبَر والتُّرْك وَإِخْوَانِهِمْ مِنَ التُّرْكُمَانَ وَالصَّقَالِبَةِ وَأَمَّا مَنْ كَانَ مَعَاشُهُمْ فِي الإِبلِ فَهُمْ أَكثَرُ ظَعْنًا وَأَبْعَد فِي الْقَفْرِ مَجَالاً لأَنَّ مَسَارِحَ التُّلُولِ وَنَبَاتَهَا وَشَجَرَهَا لاَ يَسْتَغْنِي بِهَا الإِبلُ فِي قَوَام حَيَاتِهَا عَنْ مَرَاعِي الشَّجَر بالْقَفْرِ وَوُرُودِ مِيَاهِهِ الْمِلْحة وَالتَّقلُّبِ فَصْلَ الشتَاءِ فِي نَوَاحِيهِ فِرَاراً مِنْ أَذَى الْبَرْدِ إِلَى دِفْءِ هَوَائه وَطَلَبًا لِمَا خِضِ النِّتَاجِ فِي رِمَالِه إِذ الإِبلُ أَصْعَبُ الْحَيَوَانِ فِصَالاً وَمَخَاضاً وَأَحْوَجهَا فِي ذلكَ إِلَى الدِّفْءِ فَاضْطُرُّوا إِلَى إِبْعَادِ النُّجْعَةِ وَرُبَّمَا زَادَتْهُمُ الْحَامِيَةُ عَنِ التلُولِ أَيْضاً فَأَوْغَلُوا فِي الْقِفَارِ نَفْرَةً عَن الضَّعَةِ مِنْهمْ فَكَانُوا لِذلِكَ أَشَدَّ النَّاسِ تَوَحُّشاً وَيَنْزِلُونَ مِنْ أَهْلِ الحَوَاضِرِ مَنْزِلَةَ الْوَحْشِ غَيْرِ الْمَقْدُور عَلَيْه وَالْمُفْتَرِس مِنَ الحَيَوَانِ الْعُجْمِ وهؤُلاءِ هُمُ الْعَرَب وَفِي مَعْنَاهُم ظُعونُ الْبَرْبَر وزَنَاتَة بِالْمَغْرِب وَالأَكْرَاد وَالتُّرْكُمَانِ والتُّرْك بِالْمَشْرِقِ إِلاَّ أَنَّ الْعَرَبَ أَبْعَدُ نُجْعَةً وَأَشَدُّ بِدَاوَةً لأَنَّهُمْ مُخْتَصُّونَ بِالْقِيَامِ عَلَى الإِبلِ فقَطْ وَهؤُلاَءِ يَقُومُونَ عَلَيْهَا وَعَلَى الشِّيَاه وَالْبَقَرِ مَعَهَا فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ جِيلَ الْعَرَبِ طَبِيعِيٌّ لاَبُدَّ مِنْهُ فِي الْعُمْرَانِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثالث

فى أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها

قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْبَدْوَ هُمُ الْمُقْتَصِرُونَ عَلَى الضَّرُورِيِّ فِي أَحْوَالِهِمِ الْعَاجِزُونَ عَمَّا فَوْقَهُ وَأَنَّ الْحَضَرَ الْمُعْتَنُونَ بِحَاجَاتِ التَّرَفِ وَالْكَمَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَلاَ شَكَّ أَنَّ الضَّرُورِي أَقْدَمُ مِنَ الْحَاجِي وَالْكَمَالِيِّ وَسَابِقٌ عَلَيْهِ وَلأَنَّ الضَّرُورِيَّ أَصْلٌ وَالْكَمَالِيَّ فَرْعٌ نَاشِيءٌ عَنْهُ فَالْبَدْوُ أَصْلٌ لِلْمُدُنِ وَالْحَضَرِ وَسَابِقٌ عَلَيْهِمَا لأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ الإِنْسَانِ الضَّرُورِيُّ وَلاَ يَنْتَهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالتَّرَفِ إِلاَّ إِذَا كَانَ الضَّرُورِيُّ حَاصِلاً فَخُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ قَبْلَ رِقَّةِ الْحِضَارَةِ وَلِهذَا نَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يَجْرِي إِلَيْهَا وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيَاشِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ عَاجَ إِلى الدَّعَةِ وَأَمْكَنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ وَهكَذَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ الْمُبْتَدِيَةِ كُلِّهِمْ وَالْحَضَرِيُّ لاَ يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَادِيَةِ إِلاَّ لِضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ وَمِمَّا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدْوَ أَصْلٌ لِلْحَضَرِ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ أَنَّا إِذَا فَتَّشْنَا أَهْلَ

مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ الَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذلِكَ الْمِصْرِ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي فِي الحَضَرِ وَذلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ الْحِضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلٌ لَهَا فَتَفَهَّمْهُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ مُتَفَاوِتُ الأَحْوَالِ مِنْ جِنْسِهِ فَرُبَّ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ وَقَبِيلَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ وَمِصْرٍ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ وَمَدِينَةٍ أَكْثَرُ عُمْرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ الْبَدْوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمُدُنِ وَالأَمْصَارِ وَأَصْلٌ لَهَا بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمُدُنِ وَالأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الضَّرُورَةِ الْمَعَاشِيَّةِ وَاللهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع

فى ان أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وَسَبَبُهُ أَنَّ النَّفْسَ إِذَا كَانَتْ عَلَى الْفِطْرَةِ الأُولَى كَانَتْ مُتَهَيِّئَةً لِقَبُولِ مَا يَرِدُ عَلَيْهَا وَيَنْطَبِعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِه أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِه وَبِقَدْرِ مَا سَبَقَ إِلَيْهَا مِنْ أَحَدِ الْخُلُقَيْنِ تَبْعُدُ عَنِ الآخَرِ وَيَصْعُبُ عَلَيْهَا اكْتِسَابُهُ فَصَاحِبُ الخَيْرِ إِذَا سَبَقَتْ إِلَى نَفْسِهِ عَوَائِدُ الخَيْرِ

وَحَصلَتْ لهَا مَلَكَتُهُ بَعْدَ عَنِ الشَّرِّ وَصَعُبَ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ وكَذَا صاحِبُ الشَّرِّ إذَا سَبَقَتْ إليْهِ أَيْضاً عَوَائِدُهُ وأَهْلُ الْحَضَرِ لِكَثْرَةِ مَا يُعَانُونَ مِنْ فُنُونِ الْمَلاذِّ وَعَوَائِدِ التَّرَفِ والإقْبَالِ عَلَى الدُّنْيَا والْعُكُوفِ عَلَى شَهَوَاتِهِم مِنْهَا وَقَدْ تَلَوَّثَتْ أَنْفُسُهُم بِكَثِيرٍ مِنْ مَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ وَالشَّرِّ وبَعُدَتْ عَلَيْهِمْ طُرُقُ الْخَيْرِ وَمَسَالِكُهُ بِقَدْرِ مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ ذلكَ حتَّى لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنْهُمْ مَذَاهِبُ الْحِشْمَةِ فِي أَحْوَالِهِم فَتَجِدُ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ يَقْذَعُونَ فِي أَقْوَالِ الْفَحْشَاءِ فِي مَجَالِسِهِمْ وَبَيْنَ كُبَرَائِهِمْ وَأَهْلِ مَحَارِمِهِم لايَصُدُّهُمْ عَنْه وَازِعُ الْحِشْمَةِ لِمَا أَخَذَتْهُمْ بِهِ عَوَائِدُ السُّوْءِ فِي التَّظَاهُرِ بِالْفَوَاحِشِ قَوْلاً وَعَمَلاً وَأَهْلُ الْبَدْوِ وَإِنْ كَانُوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ إلاَّ أَنَّهُ فِي الْمِقْدَارِ الضَّرُورِيِّ لاَ فِي التَّرَفِ وَلاَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ واللَّذَّاتِ وَدَوَاعِيهَا فَعَوَائِدُهُمْ فِي مُعَامَلاَتِهِمْ عَلَى نِسْبَتِهَا وَمَا يحصُلُ فِيهِمْ مِنْ مَذَاهِبِ السُّوْءِ وَمَذْمُومَاتِ الخُلُقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الأُوَلَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النَّفْسِ مِنْ سُوْءِ الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وقُبْحِهَا فَيَسْهُلُ عِلاَجُهُمْ عَنْ عِلاَجِ الحَضَرِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَقَدْ يَتَوَضَّحُ

فِيمَـــا بَعْدُ أَنَّ الْحِضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ الْعُمْرَانِ وَخُرُوجِهِ إِلَى الْفَسَادِ وَنِهَايَةُ الشَّرِّ وَالْبُعْدِ عَـنِ الْخَيْرِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَلاَ يُعْتَرَضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيـــحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى الْبَادِيَةِ فَقَالَ لَهُ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ فَقَالَ لاَ وَلَـكِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْهِجْرَةَ افْتَـــرَضَتْ أَوَّلَ الإِسْلاَمِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَيَحْـرُسُونَهُ وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ لأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمَسُّهُمْ مِنْ عَصَبِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُظَاهَرَةِ وَالْحِرَاسَةِ مَا لاَيَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنْ بَادِيَةِ الأَعْرَابِ وَقَدْ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِيـــذُونَ بِاللهِ مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ لاَ تَجِبُ الْهِجْرَةُ وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيـــثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ مَرَضِهِ بِمَكَّةَ اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلاَ تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ وَمَعْنَاهُ أَنْ يُوَفِّقَهُمْ لِمُلاَزَمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ عَنْهَا فَلاَ يَرْجِعُوا

عَنْ هُجْرَتِهِم الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهاَ وَهُوَ بِهاَ وَهُوَ مِنْ بَابِ الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقِبِ فِي السَّعْيِ إِلَى وَجْهٍ مِنَ الْوُجوه وَقِيلَ أَنَّ ذلكَ كَانَ خَاصاً بِماَ قَبْلَ الْفَتْحِ حِينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيةً إِلَى الْهُجْرَةِ لِقِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحِينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُون وَاعْتَزُّوا وتَكَفَّلَ اللهُ لِنَبِيِه بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاس فَإِنَّ الْهُجْرَةَ سَاقِطةٌ حِينَئِذٍ لِقَوْله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ لاَهُجْرَةَ بَعْدَ الْفَتحِ وَقِيلَ سَقَطَ إِنْشَاؤُهاَ عَمَّنْ يُسْلِمُ بَعْدَ الْفَتْحِ وَقِيلَ سَقَطَ وُجُوبُهاَ عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ قَبْلَ الْفَتْحِ وَالْكُلُّ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهاَ بَعْدَ الْوَفَاة سَاقِطةٌ لأَنَّ الصَّحَابَةَ افْتَرَقُوا مِنْ يَوْمَئِذٍ فِي الآفَاقِ وَانْتَشَرُوا ولَمْ يبْقَ إِلاَّ فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هُجْرَةٌ فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ لِسلَمَةَ حِينَ سكَنَ الْبَادِيةَ ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقَبِيْكَ تَعَرَّبْتَ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ السُّكنى بِالْمَدِينَةِ بِالإِشَارَةِ إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ لاتَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِم وَقَوْلُهُ تَعَرَّبْتَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ صَارَ مِنَ الأَعْرَابِ الَّذِينَ لاَ يُهَاجِرُونَ وَأَجَابَ سلَمَةُ بِإِنْكَارِ ماَ أَلْزَمَهُ مِنَ الأَمْرَيْنِ وَأَنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ وَيَكُونُ ذلكَ خَاصاً بِهِ كَشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ وَعِنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ أَوْ يَكُونُ الْحَجَّاجُ إِنَّماَ نَعَى عَلَيْهِ

تَرْكَ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ لِعِلْمِهِ بِسُقُوطِ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الْوَفَاةِ وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّ اغْتِنَامَهُ لإِذْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى وَأَفْضَلُ فَمَا آثَرَهُ بِهِ وَاخْتَصَّهُ إِلاَّ لِمَعْنًى عَلِمَهُ فِيهِ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَلَيْسَ دَلِيلاً عَلَى مَذَمَّةِ الْبَدْوِ الَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ بِالتَّعَرُّبِ لأَنَّ مَشْرُوعِيَّةَ الْهِجْرَةِ إِنَّمَا كَانَتْ كَمَا عَلِمْتَ لِمُظَاهَرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحِرَاسَتِهِ لاَ لِمَذَمَّةِ الْبَدْوِ فَلَيْسَ فِي النَّعْيِ عَلَى تَرْكِ هَذَا الْوَاجِبِ دَلِيلٌ عَلَى مَذَمَّةِ التَّعَرُّبِ وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الخامس

فى أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْحَضَرِ أَلْقَوْا جُنُوبَهُمْ عَلَى مِهَادِ الرَّاحَةِ وَالدَّعَةِ وَانْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَالتَّرَفِ وَوَكَلُوا أَمْرَهُمْ فِي الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى وَالِيهِمْ وَالْحَاكِمِ الَّذِي يَسُوسُهُمْ وَالْحَامِيَةِ الَّتِي تَوَلَّتْ حِرَاسَتَهُمْ وَاسْتَنَامُوا إِلَى الأَسْوَارِ الَّتِي تَحُوطُهُمْ وَالْحِرْزِ الَّذِي يَحُولُ دُونَهُمْ فَلاَ تَهِيجُهُمْ هَيْعَةٌ وَلاَ يَنْفِرُ لَهُمْ صَيْدٌ فَهُمْ غَارُّونَ

آمِنُونِ قَدْ أَلْقَوْا السِّلاَحَ وَتَوالَت علَى ذلكَ مِنْهُمُ الأَجْيَالُ وَتَنَزَّلُوا مَنْزِلَةَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ علَى أَبِي مَثْوَاهُمْ حتَّى صارَ ذلكَ خُلُقًا يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَأَهْلُ الْبَدْوِ لتَفَرُّدِهِم عَنِ الْمُجْتَمَعِ وَتَوَحُّشِهِمْ فِي الضَّوَاحِي وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَامِيَةِ وَانْتِبَاذِهِمْ عَنِ الأَسْوَارِ وَالأَبْوَابِ قَائِمُونَ بِالْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لاَ يَكِلُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ وَلاَ يَثِقُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِمْ فَهُمْ دَائِماً يَحْمِلُونَ السِّلاَحَ وَيَتَلَفَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطُّرُقِ وَيَتَجَافَوْنَ عَنِ الْهُجُوعِ إِلاَّ غِرَاراً فِي الْمَجَالِسِ وَعَلَى الرِّحَالِ وَفَوْقَ الأَقْتَابِ وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَآتِ وَالْهَيْعَاتِ وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ مُدِلِّينَ بِبَأْسِهِمْ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ قَدْ صَارَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقاً وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوِ اسْتَنْفَرَهُمْ صَارِخٌ وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لاَ يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ وَذَلِكَ مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ حتَّى فِي مَعْرِفَةِ النَّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ وَمَشَارِعِ السُّبُلِ وَسَبَبِ ذلكَ مَاشَرَحْنَاهُ وَأَصْلُهُ أَنَّ الإِنْسَانَ ابْنُ عَوَائِدِهِ وَمَأْلُوفِهِ لاَ ابْنُ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ فَالَّذِي أَلِفَهُ فِي

الأَحْوَالِ حتَّى صارَ خلُقًا وَمَلَكَةً وَعَادَةً تنَزَّلَ منْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ وَالْجِبْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذلكَ فِي الآدَمِينَ تَجِدْهُ كثِيراً صَحِيحاً وَاللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .

الفصل السادس
فى أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم

وَذلكَ أَنَّهُ لَيْسَ كلُّ احَدٍ مَالِكَ أَمْرِ نَفْسِهِ إِذِ الرُّؤَسَاءُ وَالأُمَرَاءُ الْمَالِكُونَ لأَمْرِ النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنِسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ فَمِنَ الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الإِنْسَانُ فِي مَلَكَةِ غَيْرِهِ وَلاَبُدَّ فَإِنْ كَانَتِ الْمَلَكَةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً لاَيُعانَى مِنْهَا حُكْمٌ وَلاَمَنْعٌ وَصَدٌّ كَانَ النَّاسُ مِنْ تَحْتِ يَدِهَا مُدِلِينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ وَاثِقِينَ بِعَدَمِ الْوَازِعِ حتَّى صارَ لَهُمُ الإِدْلاَلُ جِبِلَّةً لاَيَعْرِفُونَ سِوَاهَا وَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْمَلَكَةُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ وَالسَّطْوَةِ وَالإِخَافَةِ فَتَكْسِرُ حِينَئِذٍ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِمْ وَتُذْهِبُ الْمَنْعَةَ عَنْهُمْ لِمَا يَكُونُ مِنَ التَّكَاسُلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَهَدَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَدْ نَهَى عُمَرُ سَعْداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ مِثْلِهَا لَمَّا أَخَذَ زُهْرَةُ بْنُ حَوْبَةَ سَلَبَ الْجَالِنُوسَ وَكَانَتْ قِيمَتُهُ خَمْسَةً وَسَبْعِينَ أَلْفاً مِنَ الذَّهَبِ

وكَانَ اتَّبَعَ الْجَالِنُوسَ يَوْمَ الْقَادِسيَّةِ فقَتَلَهَ وَأَخَذَ سلَبَهُ فَانْتَزَعَهُ مِنْـهُ سَعْدٌ وقَالَ لَـهُ هلاَّ انْتَظَرْتَ فِي اتْبَاعِهِ إِذْنِي وكَتَبَ إِلَى عمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ فكَتَبَ إِلَيْـهِ عمَرُ تَعْمدُ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ وَقَدْ صلَّى بِمَا صلَّى بِهِ وبَقِيَ علَيْكَ مَا بَقِي مِنْ حَرْبِكَ وتَكْسِرُ فُوْقَهُ وتُفْسِدُ قَلْبَهُ وَأَمْضَى لَهُ عمَرُ سلَبَهُ وَأَمَّا إِذَا كَـانَتِ الأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ فَمُذْهِبَةٌ لِلبَأْسِ بِالْكُلِّيَّةِ لأَنَّ وُقُوعَ الْعِقَابِ بِهِ ولَمْ يُدَافِعْ عَنْ نَفْسِهِ يُكْسِبُهُ الْمَذَلَّةَ الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سَوْرَةِ بَأْسِهِ بِلاَ شَكٍ وَأَمَّا إِذَا كَـانَتِ الأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وتَعْلِيـمِيَّةً وَأُخِذَتْ مِنْ عَهْدِ الصِّبَا أَثَّرَتْ فِي ذلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ لِمَرْبَاهُ علَى الْمَخَافَةِ وَالانْقِيَـادِ فلاَ يَكُونُ مُدِلاً بِبَأْسِهِ ولِهَـذَا نَجِدُ الْمُتَوَحِشِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَهْلِ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَأْساً مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الأَحْكَامُ ونَجِدُ أَيْضاً الَّذِيـنَ يُعَانُونَ الأَحْكَامَ وَمَلَكَتَهَا مِنْ لَدُنْ مَرْبَاهُمْ فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعلُومِ وَالدِيَانَاتِ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ بَأْسِهِمْ كَثِيراً ولاَ يَكَـادُونَ يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَةً بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ وَهَـذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْقِرَاءَةِ والأَخْذِ عَنِ الْمَشَايِخِ والأَيِمَّةِ الْمُمَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي مَجَالِسِ الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ فِيـهِمْ هـذِهِ الأَحْوَالُ وَذَهَابُهَا بِالْمَنْعَةِ وَالْبَأْسِ

وَلاَ تَسْتَنْكِرْ ذلكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ الدينِ وَالشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَنْقُصْ ذلكَ مِنْ بَأْسِهِمْ بَلْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ بَأْساً لأَنَّ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَازِعُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لِمَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ وَلَمْ يَكُنْ بِتَعْلِيمٍ صِنَاعِيِّ وَلاَ تَأْدِيبِ تَعْلِيمِي إِنَّمَا هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَآدَابُهُ الْمُتَلَقَّاةُ نَقْلاً يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ الإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ فَلَمْ تَزَلْ سَوْرَةُ بَأْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْدِشْهَا أَظْفَارُ التَّأْدِيبِ وَالْحُكْمِ .

الفصل السادس عشر

فى أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها

إِعْلَمْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْبِدَاوَةُ سَبَباً فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ الثَّالِثَةِ لاَ جَرَمَ كَانَ هذَا الْجِيلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجِيلِ الآخَرِ فَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغَلُّبِ وَانْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سِوَاهُمْ مِنَ الأُمَمِ بَلِ الْجِيلُ الْوَاحِدُ تَخْتَلِفُ أَحْوَالُهُ فِي ذلكَ بِاخْتِلاَفِ الأَعْصَارِ فَكُلَّمَا نَزَلُوا الأَرْيَافَ وَتَفَنَّقُوا النَّعِيمَ وَأَلِفُوا عَوَائِدَ الْخِصْبِ فِي الْمَعَاشِ وَالنَّعِيمِ نَقَصَ مِنْ شَجَاعَتِهِمْ بِمِقْدَارِ مَا نَقَصَ مِنْ

تَوحُّشِهِمْ وبَداوتِهِمْ واعْتَبِرْ ذلكَ في الْحيَوانَاتِ الْعُجْمِ بِدوَاجِنِ الظِّبَاءِ والْبقَرِ الْوَحْشِيَّةِ والْحُمُرِ إِذاَ زَالَ تَوَحُّشُهاَ بمُخَالَطَةِ الآدَميِّينَ وأَخْصبَ عَيْشُهاَ كيْفَ يَخْتَلِفُ حالُهاَ في الانْتِهاَضِ والشِّدَّةِ حتَّى في مِشْيَتِهاَ وَحُسْنِ أَدِيمِهاَ وكَذلكَ الآدَمِيُّ الْمُتَوَحِشُ إِذاَ أَنِسَ وأَلِفَ وَسبَبُهُ أَنَّ تكُونَ السَّجَاياَ والطَّبَائِعِ إِنَّماَ هُوَ عَنِ الْمأْلُوفَاتِ والْعوَائِدِ وإِذاَ كَانَ الْغلَبُ للأُمَمِ إِنَّماَ يكُونُ بالإِقْدَامِ والْبَسَالَةِ فمَنْ كَانَ منْ هذهِ الأَجْيَالِ أَعْرَقَ في الْبَدَاوةِ وأَكْثَرَ توَحُّشاً كاَنَ أَقْرَبَ إِلَى التَّغلُّبِ علَى سِواهُ إِذاَ تقَارباَ في الْعدَدِ وتَكَافأَ في الْقُوَّةِ الْعَصبَيَّةِ وَانْظُرْ في ذلكَ شأْنَ مُضَرَ مَعَ مَنْ قبْلَهُمْ منْ حِمْيَرَ وكَهْلاَنَ السَّابِقِينَ إِلَى الْمُلْكِ والنَّعيمِ ومَعَ رَبِيعةَ الْمُتَوَطِنينَ أَرْيَافَ الْعرَاقِ ونَعِيمهِ لمَّا بقِيَ مُضَرُ في بِداَوتِهِمْ وتَقَدَّمَهُمُ الآخَرُون إِلَى خِصْبِ الْعيْشِ وغَضَارَةِ النَّعيمِ كيْفَ أَرْهفَتِ الْبداَوةُ في التَّغلُّبِ فغَلَبُوهُمْ علَى ماَ في أَيْدِيهِمْ وانْتَزَعُوهُ منْهُمْ وَهذاَ حَالُ بَنِي طَيِّءٍ وبَنِي عَامرِ ابْنِ صعْصعَةَ وبَنِي سُلَيمِ بْن منْصُورٍ ومَنْ بعْدَهُمْ لمَّا تأَخَّرُوا في بَادِيتِهِمْ عَنْ سَائِرِ قبَائِلِ مُضَرَ والْيَمَنِ ولَمْ

يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ دُنْيَاهُمْ كَيْفَ أَمْسَكَتْ حَالُ الْبِدَاوَةِ عَلَيْهِمْ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ وَلَمْ تَخْلُقْهَا مَذَاهِبُ التَّرَفِ حَتَّى صَارُوا أَغْلَبَ عَلَى الأَمْرِ مِنْهُمْ وَكَذَا كُلُّ حيٍّ مِنَ الْعَرَبِ بِلِي نَعِيماً وَعَيْشاً خَصِباً دُونَ الْحَيِّ الآخَرِ فَإِنَّ الْحَيَّ الْمُبْتَدِىءَ يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَأَ فِي الْقُوَّةِ وَالْعَدَدِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل السابع عشر

فى أن الغاية التى تجرى إليها العصبية هى الملك

وَذَلِكَ لأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الآدَمِيِّينَ بِالطَّبِيعَةِ الإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ اجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ فَلاَبُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّباً عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ وَإِلا لاَلَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا التَّغَلُّبُ هُوَ الْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرِّئَاسَةِ لأَنَّ الرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُؤْدَدٌ وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغَلُّبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُهَا مَتْبُوعٌ وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغَلُّبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ وَصَاحِبُ الْعَصَبِيَّةِ إِذَا

بلَغَ إِلَى رُتْبَةٍ طلَبَ مَا فَوْقَهَا فَإِذَا بلَغَ رُتْبَةَ الـسُّؤْدَدِ والاتِّبَاعِ وَوَجَدَ السَّبِـــيلَ إِلَى الـتَّغلُّبِ وَالْقَهْرِ لاَ يَتْرُكُهُ لأَنَّهُ مَطْلُوبٌ للـنَّفْسِ ولاَ يَتِمُّ اقْتِدَارُهَا عليْهِ إلا بالْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يكُونُ بهَا مَتْبُوعاً فَالـــتَّغلُّبُ الْمُلْكِي غَايَةٌ لِلْعَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيــهِ بُيُوتَاتٌ مُفْتَرِقَةٌ وَعَصَبِــيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ فَلاَبُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ جَمِيــعِهَا تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتْبِعُهَا وَتَلْتَحِمُ جَمِيعُ الْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا وَتَصِيـرُ كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كُبْرَى وَإِلاَّ وَقَعَ الافْتِرَاقُ الْمُفْضِي إِلَى الاخْتِلاَفِ وَالـتَّنَازُعِ ولَوْلاَ دَفْعُ اللـهِ الـنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الـتَّغلُّبُ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطبْعِهَا الـــــتَّغلُّبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالاً وَأَنْظَاراً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا الـــتَّغــلُّبُ عَلَى حَوْزَتِهَا وَقَوْمِهَا شَأْنَ الْقَبَائِلِ وَالأُمَمِ الْمُفْتَرِقَةِ فِي الْعَالَمِ وَإِنْ غَلَبَتْهَا وَاسْتَتْبَعَتْهَا الْتَحَمَتْ بِهَا أَيْضاً وَزَادَتْ قُوَّةً فِي الـــتَّغلُّبِ إِلَى قُوَّتِهَا وَطَلَبَتْ غَايَةً مِنَ الـتَّغلُّبِ وَالـتَّحَكُّمِ أَعْلَى مِنَ الْغَايَةِ الأُولَى وَأَبْعَدَ وَهَـكَذَا دَائِماً حَتَّى تُكَافِئَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مُمَانِعٌ مِــنْ أَوْلِيَاءِ الـــدَّوْلَةِ أَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا

وَانْتَزَعَتِ الأَمْرَ مِنْ يَدِهَا وَصَارَ الْمُلْكُ أَجْمَعُ لَهَا وَإِن انْتَهَتْ قُوَّتُهَا وَلَمْ يُقَارِنْ ذَلِكَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتَهَا إِلَى الاسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصَبِيَّات انْتَظَمَتْهَا الدَّوْلَةُ فِي أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَايَعِنُّ مِنْ مَقَاصِدِهَا وَذَلِكَ مُلْكٌ آخَرُ دُونَ الْمُلْكِ الْمُسْتَبِدِ وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَلِصنْهَاجَةَ وَزَنَاتَةَ مَعَ كُتَامَةَ وَلِبَنِي حَمْدَانَ مَعَ مُلُوكِ الشِّيعَةِ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصَبِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمُلْكُ إِمَّا بِالاسْتِبْدَادِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسَعُهُ الْوَقْتُ الْمُقَارِنُ لِذَلِكَ وَإِنْ عَاقَهم عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ عَوَائِقُ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَفَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِي اللهُ بِأَمْرِهِ .

الفصل الثامن عشر
فى أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل فى النعيم

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصَبِيَّتِهَا بَعْضَ الْغَلَبِ اسْتَوْلَتْ عَلَى النِّعْمَةِ بِمِقْدَارِه وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخِصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخِصْبِهِمْ وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ بِمِقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتِظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا فَإِنْ كَانَتِ

الـدَّوْلَةُ مِنْ الْقُوَّةِ بِحَيْثُ لاَ يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي انْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلاَ مُشَارَكَتِهَا فِيهِ أَذْعَنَ ذَلِكَ الْقَبِيلُ لِوِلاَيَتِهَا وَالْقُنُوعِ بِمَا يُسَوِّغُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا وَيُشْرِكُونَ فِيهِ مِنْ جِبَايَتِهَا وَلَمْ تَسْمُ آمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازِعِ الْمُلْكِ وَلاَ أَسْبَابِهِ إِنَّمَا هِمَّتُهُمُ النَّعِيمُ وَالْكَسْبُ وَخِصْبُ الْعَيْشِ وَالسُّكُونُ فِي ظِلِ الدَّوْلَةِ إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمُلْكِ فِي الْمَبَانِي وَالْمَلاَبِسِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنْ ذَلِكَ وَالتَّأَنُّقِ فِيهِ بِمِقْدَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الرِّيَاشِ وَالتَّرَفِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ تَوَابِعِ ذَلِكَ فَتَذْهَبُ خُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ وَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَسَالَةُ وَيَتَنَعَّمُونَ فِيمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنَ الْبَسْطَةِ وَتَنْشَأُ بَنُوهُمْ وَأَعْقَابُهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ مِنَ التَّرَفُّعِ عَنْ خِدْمَةِ أَنْفُسِهِمْ وَوِلاَيَةِ حَاجَاتِهِمْ وَيَسْتَنْكِفُونَ عَنْ سَائِرِ الأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ فِي الْعَصَبِيَّةِ حَتَّى يَصِيرَ ذَلِك خُلُقاً لَهُمْ وَسَجِيَّةً فَتَنْقُصُ عَصَبِيَّتُهُمْ وَبَسَالَتُهُمْ فِي الأَجْيَالِ بَعْدَهُمْ يَتَعَاقَبُهَا إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ الْعَصَبِيَّةُ فَيَأْذَنُونَ بِالانْقِرَاضِ وَعَلَى قَدَرِ تَرَفِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ يَكُونُ إِشْرَافُهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ فَضْلاً عَنِ الْمُلْكِ فَإِنَّ عَوَارِضَ التَّرَفِ وَالْغَرَقِ فِي النَّعِيمِ كَاسِرٌ مِنْ سَوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا التَّغَلُّبُ وَإِذَا انْقَرَضَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَصَّرَ

الْقَبِيلُ عَنِ الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ فَضْلاً عَنِ الْمُطَالَبَةِ وَالْتِهَمَتْهُمُ الأُمَمُ سِوَاهُمْ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ التَّرَفَ مِنْ عَوَائِقِ الْمُلْكِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع عشر
فى أن من عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم

وَسَبَبُ ذلِكَ أَنَّ الْمَذَلَّةَ وَالانْقِيَادَ كَاسِرَانِ لِسَوْرَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَشِدَّتِهَا فَإِنَّ انْقِيَادَهُمْ وَمَذَلَّتَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى فِقْدَانِهَا فَمَا رَئِمُوا لِلْمَذَلَّةِ حَتَّى عَجِزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ فَأَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَاجِزاً عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ وَاعْتَبِرْ ذلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا دَعَاهُمْ مُوسى عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى مُلْكِ الشَّامِ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ اللهَ قَدْ كَتَبَ لَهُمْ مُلْكَهَا كَيْفَ عَجِزُوا عَنْ ذلِكَ وَقَالُوا إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا أَي يُخْرِجَهُم اللهُ تَعَالَى مِنْهَا بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرَ عَصَبِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجِزَاتِكَ يَا مُوسَى وَلَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَجُّوا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ وَمَا ذلِكَ إِلاَّ لِمَا أَنِسُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ

عَنِ الْمُقَاوَمَةِ وَالْمُطَالَبَةِ كَمَا تَقْتَضِيــــه الآيَة وَمَا يُؤْثَر فِي تَفْسيــرِهَا وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيــهِمْ مِنْ خُلُقِ الانْقِيَادِ وَمَا رَئِمُوا مِنَ الــذُّلِ لِلْقِبْطِ أَحْقَابًا حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصَبِيَّةُ مِنْهُمْ جُمْلَةً مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الإِيمَــــــانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الـشَّامَ لَهُمْ وَأَنَّ الْعَمَالِقَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرِيحَا فَرِيــسَتُهُمْ بِحُكْمٍ مِنَ الـلــهِ قَدَّرَهُ لَهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ وَعَجِزُوا تَعْوِيـــــــلاً عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمُطَالَبَةِ لِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِن خُلُقِ الْمَذَلَّةِ وَطَعَنُوا فِيــــمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَعَاقَبَهُمُـــا اللهُ بِـالـتِيْهِ وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفْرٍ مِنَ الأَرْضِ مَا بَيْنَ الـشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا الْعُمْرَانَ وَلاَ نَزَلُوا مِصْرًا وَلاَ خَالَطُوا بَشَـرًا كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ لِغِلْظَةِ الْعَمَالِقَةِ بِالشَّامِ وَالْقِبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ لِعَجْزِهِمْ عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ وَيَظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الآيَـةِ وَمَفْهُومِهَا أَنَّ حِكْمَةَ ذَلِكَ الــتِيْهِ مَقْصُودَةٌ وَهِيَ فَنَاءُ الْجِيلِ الَّذِيـنَ خَرَجُوا مِنْ قَبْضَةِ الـذُّلِ وَالْقَهْرِ وَالْقُوَّةِ وَتَخَلَّــقُوا بِهِ وَأَفْسَدُوا مِنْ عَصَبِيَّتِهِمْ حَتَّى نَشَأَ فِي ذَلِكَ الــتِيْهِ جِيــلٌ آخَرُ عَزِيـــزٌ لاَ يَعْرِفُ الأَحْكَامَ وَالْقَهْرَ وَلاَ يُسَامُ بِالْمَذَلَّةِ فَنَشَأَتْ بِذَلِكَ عَصَبِيَّةٌ أُخْرَى

فتدَروا بِهاَ علَى الْمُطَالبَةِ وَالــتَّغلُّبِ ويَظْهرُ لكَ منْ ذلكَ أَنّ الأرْبَعِينَ سنَةً أقلُّ ماَ يأتِي فِيهاَ فنَاءُ جِيلٍ ونَشْأةُ جِيلٍ آخَرَ سبْحَانَ الْحكِيمِ الْعلَيمِ وفِي هذاَ أوْضحُ دلِيل علَى شأنِ الْعَصَبِيَّةِ وأنَّهاَ هِي الَّتِي تكُونْ بِهاَ الْمُدَافعَةُ والْمقَاوِمَةُ والْحِماَيَةُ والْمُطَالبَةُ وأنَّ منْ فقَدهَا عَجزَ عنْ جمِيــعِ ذلكَ كلِّه ويلْحَقُ بِهـذاَ الْفَصلِ فِيـماَ يُوجِبُ الْمذَلَّةَ لِلْقَبِيلِ شأْنَ الْمغارِمِ والضَّرَائبِ فإنَّ الْقَبِيلَ الْغَارِمينَ ماَ أعطَواُ الْيدَ منْ ذلكَ حتَّى رَضُوا بِالْمذَلَّةِ فِيــهِ لأن فِي الْمغَارِمِ والضَّرَائبِ ضيَماً ومَذَلَّةً لاتَحتَمِلهاَ النُّفُوسُ الأبِيَّةُ إلاَّ إذاَ استَهْوَنَتْهُ عنِ الْقَتْلِ والتَّلَفِ وأنَّ عَصبِيَّتهُمْ حِينئِذٍ ضعِيفةٌ عنِ الْمُدَافعةِ والْحِماَيَةِ ومَنْ كانَتْ عصَبِيَّتهُ لاَ تدْفعُ عنْهُ الضَّيْمِ فكَيْفَ لهُ بالْمُقاَومَةِ والْمُطَالبَةِ وقدْ حصَلَ لهُ الانْقِياَدُ لِلــذُّلِّ والْمذَلَّةُ عائِقةٌ كمَا قدَّمْناَهُ . ومِنْهُ قوْلُهُ صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ شأْنُ الْحَرثِ لمَّا رأَى سِكَّةَ الْمِحْرَاثِ فِي بعْضِ دُورِ الأنْصاَرِ ماَ دخَلَتْ هذِهِ دارَ قوْمٍ إلاَّ دخَلَهُمُ الذُّلُّ فهُوَ دلِيلٌ صرِيحٌ علَى أنَّ الْمغْرَمِ مُوجِبٌ لِلذِّلَّةِ هذاَ إلَى ماَ يَصْحَبُ ذُلَّ الْمــغَارِمِ منْ خُلُقِ الْمكْرِ والْخَدِيــعةِ بِسبَبِ ملَكَةِ الْقهْرِ فإذاَ رأَيْتَ الْقَبِيلَ بِالْمغَارِمِ فِي رِبْقةٍ منَ الــذُّلِّ فلاَ تطْمعَنَّ لهاَ بِملْكٍ

آخرَ الــدَّهْرِ ومِنْ هنَا يتبيَّنُ لكَ غلَطُ مَنْ يزْعمُ أنَّ زناتةَ بالمَغْرِبِ كانُوا شاوِيةً يؤدُّونَ المغَارِمَ لمَنْ كانَ علَى عهْدِهِمْ منَ المُلُوكِ وهُوَ غلَطٌ فاحِشٌ كمَا رأَيْتَ إذْ لوْ وقَعَ ذلكَ لمَا استتَبَّ لهُمْ ملْكٌ ولاَ تمَّتْ لهُمْ دوْلَةٌ وانْظُرْ فِيمَا قَالَهُ شهْرَ برَازُ ملِكُ البَابِ لعبْدِ الرَّحْمنِ ابْنِ ربِيعةَ لمَّا أطَلَّ عليْهِ وسأَلَ شهْرَ برَازُ أمَانَهُ علَى أنْ يكُونَ لهُ فقَالَ أنَا اليوْمَ منْكُمْ يدِي فِي أيْدِيكُمْ وصعَرِي معَكُمْ فمرْحبًا بكُمْ وبَارَك اللهُ لنَا ولكُمْ وجِزْيتُنَا إليكُمُ النَّصْرُ لكُمْ والقِيَامُ بمَا تُحبُّونَ ولاَ تُذلُّونا بالجِزْيَةِ فتُوهِنُونَا لعدُوكُمْ فاعْتَبِرْ هذَا فِيمَا قلْنَاهُ فإنَّهُ كافٍ .

الفصل العشرون
في أن من علامات الملك التنافس
في الخلال الحميدة وبالعكس

لمَّا كانَ المُلْكُ طبِيعيًا للإنْسانِ لمَا فِيهِ منَ طبِيعةِ الاجْتِماعِ كمَا قلْنَاهُ وكَانَ الإنْسانُ أقْربَ إلَى خِلاَلِ الخيْرِ منْ خِلاَلِ الشَّرِّ بأصْلِ فِطْرتِهِ وقُوَّتِهِ النَّاطقَةِ العَاقلَةِ لأنَّ الشَّرَّ إنَّمَا جاءَهُ منْ قبَلِ القُوَى الحيَوانِيَّةِ الَّتِي فيهِ وأمَّا منْ حيْثُ هوَ إنْسانٌ فهُوَ إلَى الخيْرِ وخِلاَلِهِ أقْربُ والمُلْكُ

وَالسِياَسةُ إِنَّماَ كَانَا لَهُ مِنْ حيْث هُوَ إِنْسانٌ لأَنَّهُماَ لِلإِنْسَانِ خَاصّةً لاَ لِلْحيَوَانِ فَإِذاَ خِلاَلُ الْخيْرِ فِيه هِيَ الَّتِي تُنَاسِبُ السِياَسةَ وَالْمُلْكَ إِذ الْخَيْرُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِياَسةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمَجْدَ لَهُ أَصلٌ يبْنَى علَيْه وَتَتَحقَّقُ بِه حقِيقَتُهُ وَهُوَ الْعَصَبِيَّةُ وَالْعَشِيرُ وَفَرْعٌ يتَمِمُ وُجودَهُ ويُكْمِلُهُ وَهُوَ الْخِلاَلُ وإِذاَ كَانَ الْمُلْكُ غَايَةً لِلْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ غَايَةٌ لِفُرُوعِهاَ وَمُتَمِماَتِهاَ وَهِيَ الْخِلاَلُ لأَنَّ وُجودَهُ دُونَ مُتَمماَتِه كَوُجُودِ شَخْصٍ مَقْطُوعِ الأَعْضاَءِ أَوْ ظُهُورِهِ عُرْياَنَا بيْنَ النَّاسِ وإِذاَ كَانَ وجُودُ الْعَصَبِيَّةِ فقَطْ مِنْ غَيْرِ انْتِحاَلِ الْخِلاَلِ الْحَمِيدَةِ نَقْصاً فِي أَهْلِ الْبُيُوتِ وَالأَحْساَبِ فَماَ ظَنُّكَ بِأَهْلِ الْمُلْكَ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لِكُلِ مَجْدٍ ونِهَايَةٌ لِكُلِ حَسَبٍ وأَيْضاً فَالسِيَاسةُ وَالْمُلْكُ هِيَ كَفَالَةٌ لِلْخَلْقِ وخِلاَفَةٌ للهِ فِي الْعِبَادِ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ فِيهِمْ وأَحْكَامُ اللهِ فِي خَلْقِه وَعِبَادِهِ إِنَّماَ هِيَ بِالْخيْرِ ومُرَاعَاةُ الْمَصاَلِحِ كَماَ تَشْهَدُ بِهِ الشَّرَائِعُ وأَحْكَامُ الْبَشَرِ إِنَّماَ هِيَ مِنَ الْجَهْلِ وَالشَّيْطَانِ بِخِلاَفِ قُدْرَةِ اللهِ سبْحاَنَهُ وَقَدَرِهِ فَإِنَّهُ فَاعِلٌ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِ معاً وَمُقَدِرُهُماَ إِذْ لاَ فَاعِلَ سِوَاهُ فَمَنْ حَصلَتْ لَهُ الْعَصبِيَّةُ الْكَفِيلَةُ بِالْقُدْرَةِ وأُونِسَتْ مِنْهُ خِلاَلُ الْخَيرِ الْمُنَاسِبَةُ لِتَنْفِيذِ أَحْكَامِ اللهِ فِي

خلْقه فقَدْ تهيَّأَ للْخلاَفَةِ فِي الْعبادِ وكَفَالَة الْخلْقِ ووُجِدَتْ فيــه الـصَّلاَحيَّةُ لذلكَ وَهذاَ الْبرْهانُ أَوْثَقُ منَ الأَوَّل وأَصحُّ مَبْنىً فَقَدْ تبيَّنَ أَنَّ خلاَلَ الْخيْرِ شاَهدَةٌ بِوجُودِ الْملْك لمَنْ وُجدَتْ لهُ الْعصبيَّةُ فإذَا نظَرْنَا فِي أَهْلِ الْعصبيَّةِ ومَنْ حَصلَ لهُمْ منَ الْغلَبِ علَى كثيــــرٍ منَ النَّواحي والأُمَمِ فوَجَدْناهُم يتَنَافسُونَ فِي الْخيْرِ وَخلاَله منَ الْكرَمِ والْعفْوِ عَنِ الـزَّلاَّتِ وَالاحْتمَال منْ غيْرِ الْقادرِ وَالْقرَى للـضُّيوف وَحمْلِ الْكلِّ وكَسْب الْمـعْدمِ والصَّبْرِ علَى الْمكاَرِه والْوفَاء بِالْعهْدِ وبذْلِ الأَمْوَالِ فِي صوْنِ الأَعْراَضِ وتَعْظيمِ الـشَّرِيعَة وإِجْلاَل الْعلَماَءِ الْحاَملينَ لهاَ وَالْوُقُوف عنْدَ ما يُحدِّدونَهُ لهُمْ منْ فعْل أَوْ ترْك وحُسْنِ الـظَّنِّ بهمْ واعْتقَاد أَهْلِ الدِّيـنِ وَالــتَّبرُّك بهِمْ ورَغْبَة الــدُّعاَءِ منْهُمْ والْحيَاء منَ الأكَابِرِ وَالْمشاَيخِ وتوْقيــــرِهمْ وإِجْلاَلهِمْ والانْقيادِ إِلَى الْحقِ معَ الـدَّاعِي إِلَيْهِ وإِنْصَاف الْمُسْتَضْعفينَ منَ أَنْفُسهِمْ والـتَّبذُّلِ فِي أَحْوَالهِمْ والانْقيادِ للْحقِ والتَّوَاضُعِ للْمسْكينِ واسْتماَعِ شكْوَى الْمُسْتَغيـثينَ والـتَّديُّنِ بالشَّرائعِ والْعباَداَتِ والْقيَامِ علَيْهاَ وَعلَى أَسْبَابِهاَ والتـجَافِي عَنِ الْغدْرِ والْمكْرِ والْخدِيعَةِ ونَقْضِ الْعهْدِ وأَمْثَالِ ذلكَ علمْناَ أَنَّ هذه خلُقُ الـسياَسَة قدَ

حَصلَتْ لديْهِمْ وَاستَحـقُّوا بِهاَ أَنْ يكُونُوا ساَسةً لِمَنْ تَحْتَ
ايْدِيهِمْ أَوْ علَى الْعُمُومِ وأَنَّهُ خَيْرٌ ساَقهُ الـلـهُ تعَالَى إِلَيْهِمْ
مُنَاسِبٌ لِعَصَـبيَّتِهِمْ وَغلَبِهِمْ ولَيْس ذلِكَ سدًى فِيـهِمْ ولاَ
وُجِدَ عَبثًا مِنْهُمْ وَالْمُلْكُ أَنْسَبُ الْمرَاتِبِ والْخيْرَاتِ
لِعَصبيَّتِهِمْ فعَلِمنْا بِذلِكَ أَنَّ اللـهَ تأَذَّنَ لَهُمْ بِالْمُلـكِ وَساَقهُ
إِلَيْهِمْ وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذلِكَ إِذاَ تأَذَّنَ اللـهُ بـانْقِراَضِ الْمُلْكِ مِنْ
أُمَّةٍ حمَلَهُمْ علَى ارْتِكاَبِ الْمذْمُومَاتِ وَانْتحـالِ الرَّذاَئِلِ
وَسلُوكِ طرُقِهاَ فتَفْقدُ الْفضَائِلُ السياَسِيَّةُ مِنْهُمْ جمْلَةً ولاَ
تَزاَلُ فِي انْتِقاَصٍ إِلَى أَنْ يَخْرُجَ الْمُلْكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيتَبدَّلَ بِهِ
سِواَهُمْ لِيكُونَ نَعْياً علَيْهِمْ فِي سلْبِ ماَ كاَنَ اللـهُ قَدْ أَتاَهمْ
مِنَ الْمُلْكِ وَجعَلَ فِي أَيْدِيـهِمْ مِنَ الْخيْرِ وَإِذاَ أَرَدْناَ أَنْ نُهْلِكَ
قَرْيَةً أَمرْناَ مُتْرفِيـهاَ ففَسقُوا فِيـهاَ فحقَّ علَيْهاَ الْقوْلُ
فَدَمَّرْنَاهاَ تدْمِيراً وَاسْتَقْرِئْ ذلِكَ وَتتَبَّعْهُ فِي الأُمَمِ السَّابِقةِ
تَجِدْ كَثِيـراً مِمَّا قُلْنَاهُ وَرَسَمْناَهُ وَاللـهُ يَخْلُقُ ماَ يَشاَءُ
وَيَخْتاَرُ وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ خِلاَلِ الْكَماَلِ الَّتِي يتَنَافسُ فِيـهاَ
الْقبَائِلُ أُلُو الْعَصبِيَّةِ وتَكُونُ شاَهِدةً لَهُمْ بِالْمُلْكِ إِكْراَمُ
الْعلَماَءِ وَالصَّالِحِينَ وَالأَشْراَفِ وأَهْلِ الأَحْساَبِ وأَصْناَفِ
التِجاَرِ وَالْغُرَباَءِ وَإِنْزاَلُ النَّاسِ مناَزِلَهُمْ وَذلِكَ أَنَّ إِكْراَمَ

الْقَبَائِلَ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ وَالْعَشَائِرِ لِمَنْ يُنَاهِضُهُمْ فِي الشَّرَفِ وَيُجَاذِبُهُمْ حَبْلَ الْعَشِيرِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الأَكْثَرِ الرَّغْبَةُ فِي الْجَاهِ أَوِ الْمَخَافَةُ مِنْ قَوْمِ الْمُكْرَمِ أَوِ الْتِمَاسُ مِثْلِهَا مِنْهُ وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلاءِ مِمَّنْ لَيْسَ لَهُمْ عَصَبِيَّةٌ تُتَّقَى وَلاَ جَاهٌ يُرْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشَّكُّ فِي شَأْنِ كَرَامَتِهِمْ وَيَتَمَحَّضُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْمَجْدِ وَانْتِحَالِ الْكَمَالِ فِي الْخِلاَلِ وَالإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكُلِّيَّةِ لأَنَّ إِكْرَامَ أَقْتَالِهِ وَأَمْثَالِهِ ضَرُورِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنُظَرَائِهِ وَإِكْرَامُ الطَّارِئِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ وَالْعُلَمَاءُ لِلْجَاءِي إِلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ مَرَاسِمِ الشَّرِيعَةِ وَالتُّجَّارُ لِلتَّرْغِيبِ حَتَّى تَعُمَّ الْمَنْفَعَةُ بِمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَالْغُرَبَاءُ مِنَ مَكَارِمِ الأَخْلاَقِ وَإِنْزَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ مِنَ الإِنْصَافِ وَهُوَ مِنَ الْعَدْلِ فَيَعْلَمُ بِوُجُودِ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ انْتِمَاؤُهُمْ لِلسِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الْمُلْكُ وَأَنَّ اللهَ قَدْ تَأَذَّنَ بِوُجُودِهَا فِيهِمْ لِوُجُودِ عَلاَمَاتِهَا وَلِهَذَا كَانَ أَوَّلُ مَا يَذْهَبُ مِنَ الْقَبِيلِ أَهْلَ الْمُلْكِ إِذَا تَأَذَّنَ اللهُ تَعَالَى بِسَلْبِ مُلْكِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ إِكْرَامَ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْخَلْقِ

فَإِذَا رَأَيْتَهُ قَدْ ذَهَبَ مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَضَائِلَ قَدْ أَخَذَتْ فِي الذَّهَابِ عَنْهُمْ وَارْتَقِبْ زَوَالَ الْمُلْكِ مِنْهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي والعشرون

في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى التَّغَلُّبِ وَالاِسْتِبْدَادِ كَمَا قُلْنَاهُ وَاسْتِعْبَادِ الطَّوَائِفِ لِقُدْرَتِهِمْ عَلَى مُحَارَبَةِ الأُمَمِ سِوَاهُمْ وَلأَنَّهُمْ يَتَنَزَّلُونَ مِنَ الأَهْلِينَ مَنْزِلَةَ الْمُفْتَرِسِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ وَهَؤُلاءِ مِثْلُ الْعَرَبِ وَزَنَاتَةَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الأَكْرَادِ وَالتُّرْكُمَانِ وَأَهْلِ اللِّثَامِ مِنْ صَنْهَاجَةَ وَأَيْضاً فَهَؤُلاءِ الْمُتَوَحِّشُونَ لَيْسَ لَهُمْ وَطَنٌ يَرْتَافُونَ مِنْهُ وَلاَ بَلَدٌ يَجْنَحُونَ إِلَيْهِ فَنِسبَةُ الأَقْطَارِ وَالْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ فَلِهَذَا لاَيَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَةِ قُطْرِهِم وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنَ الْبِلاَدِ وَلاَيَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أُفُقِهِمْ بَلْ يَظْفُرُونَ إِلَى الأَقَالِيمِ الْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الأُمَمِ النَّائِيَةِ وَانْظُرْ مَايُحْكَى فِي ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمَّا بُويِعَ وَقَامَ يُحَرِّضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ فَقَالَ إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ

إلاَّ علَى الــــنُّجْعَةِ ولاَ يقْوَى علَيْه أهلُهُ إلاَّ بذلكَ أيْنَ الْقرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللهِ سيــرُوا فِي الأرْضِ الَّتي وَعَدَكُمُ اللهُ فِي الْكِتَابِ أنْ يُورِثَكُمُوهاَ فقَالَ لِيُظْهِرَهُ علَى الدّينِ كلهِ ولَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ واعْتَبِرْ ذلكَ أيْضاً بِحَالِ الْعَرَبِ السَّالفَةِ منْ قَبْلُ مثْلَ التَّبَابِعَةِ وَحمْيَرَ كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ منَ الْيَمَنِ إلَى الْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإلَى الْعِرَاقِ والْهِنْدِ أُخْرَى ولَمْ يَكُنْ ذلكَ لِغَــيْرِ الْعَرَبِ منَ الأُمَمِ وكَذَا حَالُ الْمُلَثَّمِينَ مِنَ الْمَغْرِبِ لَمَّا نَزَعُوا إلَى الْمُلْكِ طَفِرُوا منَ الإقْلِيــــمِ الأوَّلِ وَمَجَالاتُهُمْ منْهُ فِي جِوَارِ الــسُّودَانِ إلَى الإقْلِيــمِ الــرَّابــعِ وَالْخَامسِ في ممَالك الأنْدَلُسِ منْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ وَهَـذَا شأنُ هذه الأُمَمِ الْوَحْشيَّةِ فلَذلكَ تكُونُ دوْلَتُهُمْ أوْسَعَ نطاقاً وأبْعَدَ منْ مَرَاكِزِهَا نِهَايَةً وَاللـهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لاَ شَرِيكَ لَهُ .

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلابد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

وَالــــــسَّبَبُ في ذلكَ أنَّ الْمُلْكَ إنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بَعْدَ سَوْرَةِ الْغَلَبِ وَالإذْعَانِ لَهمْ منْ سَائِرِ الأُمَمِ سِوَاهُمْ فيَتَعَيَّنُ

مِنْهُمُ الْمُبَاشِرُونَ لِلأَمْرِ الْحَامِلُونَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَلاَ يَكُون ذَلِكَ لِجَمِيعِهِمْ لِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ الَّتِي يَضِيقُ عَنْهَا نِطَاقُ الْمُزَاحَمَةِ وَالْغَيْرَةِ الَّتِي تَجْدَعُ أُنُوفَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَطَاوِلِينَ لِلرُّتْبَةِ فَإِذَا تَعَيَّنَ أُولَئِكَ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ انْغَمَسُوا فِي النَّعِيمِ وَغَرِقُوا فِي بَحْرِ التَّرَفِ وَالْخِصْبِ وَاسْتَعْبَدُوا إِخْوَانَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجِيلِ وَأَنْفَقُوهُمْ فِي وُجُوهِ الدَّوْلَةِ وَمَذَاهِبِهَا وَبَقِيَ الَّذِينَ بَعُدُوا عَنِ الأَمْرِ وَكُبِحُوا عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي ظِلٍ مِنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ الَّتِي شَارَكُوهَا بِنَسَبِهِمْ وَبِمَنْجَاةٍ مِنَ الْهَرَمِ لِبُعْدِهِمْ عَنِ التَّرَفِ وَأَسْبَابِهِ فَإِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَى الأَوَّلِينَ الأَيَّامُ وَأَبَادَ غَضْرَاءَهُمُ الْهَرَمِ فَطَبَخَتْهُمُ الدَّوْلَةُ وَأَكَلَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَشَرِبَ بِمَا أَرْهَفَ النَّعِيمُ مِنْ حَدِّهِمْ وَاسْتَقَتْ غَرِيزَةُ التَّرَفِ مِنْ مَائِهِمْ وَبَلَغُوا غَايَتَهُمْ مِنْ طَبِيعَةِ التَّمَدُّنِ الإِنْسَانِيِّ وَالتَّغَلُّبِ السِيَاسِيِّ (شعر)

كَدُودِ الْقَزِّ يَنْسِجُ ثُمَّ يَفْنَى بِمَرْكَزِ نَسْجِهِ فِي الانْعِكَاسِ

كَانَتْ حِينَئِذٍ عَصَبِيَّةُ الآخَرِينَ مَوْفُورَةً وَسَوْرَةُ غَلْبِهِمْ مِنَ الْكَاسِرِ مَحْفُوظَةً وَشَارَتُهُمْ فِي الْغَلْبِ مَعْلُومَةً فَتَسْمُوا

آمَالَهُمْ إِلَى الْمُلْكِ الَّذِي كَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنْهُ بِـالْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ مِن جِنْسِ عَصَبِيَّتِهِمْ وَتَرْتَفِعُ الْمُنَازَعَةُ لِمَا عُرِفَ مِنْ غَلَبِهِمْ فَيَسْتَوْلُونَ عَلَى الأَمْرِ وَيَصِيـرُ إِلَيْهِمْ وَكَذَا يَتَّفِقُ فِيـهِمْ مَعَ مَنْ أَيْضاً مُنْتَبِذاً عَنْهُ مِنْ عَشَائِرِ أُمَّتِهِمْ فَلاَ يَزَالُ الْمُلْكُ مُلْجِئاً فِي الأُمَّةِ إِلَى أَنْ تَنْكَسِرَ سَوْرَةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْهَا أَوْ يَفْنَى سَائِرُ عَشَائِرِهَا سُنَّةُ اللـهِ فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَالآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ وَاعْتَبِرْ هـذَا بِمَا وَقَعَ فِي الْعَـــرَبِ لَمَّا انْقَرَضَ مُلْكُ عَادٍ قَامَ بِهِ مِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ ثَمُودَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ الْعَمَالِقَةُ وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ حِمْيَرَ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمْ إِخْوَانُهُمُ التَّبَابِعَــةُ مِنْ حِمْيَرَ أَيْضاً وَمِنْ بَعْدِهِمِ الأَذْوَاءُ كَــذَلِكَ ثُمَّ جَاءَتِ الدَّوْلَةُ لِمُضَرَ وَكَذَا الْفُرْسُ لَمَّا انْقَرَضَ أَمْرُ الْكِينِيَّةِ مَلَكَ مِنْ بَعْدِهِمِ الـسَّاسَانِيَّةُ حَتَّى تَأَذَّنَ اللـهُ بِانْقِرَاضِهِمْ أَجْمَعَ بِالإِسْلاَمِ وَكَـــذَا الْيُونَانِيُّونَ انْقَرَضَ أَمْرُ مِغْرَاوَةَ وَكُتَامَةَ الْمُلُوكِ الأُوَلِ مِنْهُمْ رَجَعَ إِلَى صِنْهَاجَةَ ثُمَّ الْمُلَثَّمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ثُمَّ مَنْ بَقِيَ مِنْ شُعُوبِ زَنَاتَةَ وَهَكَذَا سُنَّةُ اللـهِ فِي عِبَادِهِ وَخَلْقِهِ وَأَصْلُ هـذَا كُلِّهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الأَجْيَالِ وَالْمُلْـكُ يَخْلُقُهُ الـتَّرَفُ وَيُذْهِبُهُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ بَعْدُ فَإِذَا انْقَرَضَتْ دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا

يَتَنَاوَلُ الأَمْرَ مِنهُمْ مَنْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصَبِيَّتِهِمِ الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالانْقِيَادُ وأُونِسَ مِنْهَا الْغَلَبُ لِجَمِيعِ العَصَبِيَّاتِ وذلكَ إنَّمَا يُوجَدُ فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنهُمْ لأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قَرُبَ مِنْ ذلكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعُدَ حَتَّى إذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُمْرَانٍ أَوْمَا شَاءَ اللهُ مِنْ قُدْرَتِهِ فَحِينَئِذٍ يَخْرُجُ عَنْ ذلك الْجِيلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللهُ بِقِيَامِهِ بِذلكَ التَّبْدِيلِ كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الأُمَمِ وَالدُّوَلِ وأَخَذُوا الأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ احْقَاباً .

الفصل الثالث والعشرون

في أن المغلوب مولع ابداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده

وَالسَّبَبُ فِي ذلكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَداً تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِي غَلَبِهَا وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ إِمَّا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَقَرَ عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ أَوْ لِمَا تُغَالِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيَادَهَا لَيْسَ لِغَلَبٍ طَبِيعِي إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ فَإِذَا غَالَطَتْ بِذلِكَ وَاتَّصَلَ لَهَا

اعْتِقَاداً فَانْتَحلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الاقْتِدَاءُ أَوْ لِمَا تَرَاهُ وَاللهُ أَعْلَمُ مِنْ أَنَّ غَلَبَ الْغَالِبَ لَهَا لَيْسَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلاَ قُوَّةِ بَأْسٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا انْتَحَلَتْهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضاً بِذَلِكَ عَنِ الْغَلَبِ وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَتَشَبَّهُ أَبَداً بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلاَحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِماً وَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لاِعْتِقَادِهِمِ الْكَمَالَ فِيهِمْ وَانْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ الْحَامِيَةِ وَجُنْدُ السُّلْطَانِ فِي الأَكْثَرِ لأَنَّهُمُ الْغَالِبُونَ لَهُمْ حَتَّى أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تُجَاوِرُ أُخْرَى وَلَهَا الْغَلَبُ عَلَيْهَا فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ مِنْ هَذَا التَّشَبُّهِ وَالاقْتِدَاءِ حَظٌّ كَبِيرٌ كَمَا هُوَ فِي الأَنْدَلُسِ لِهَذَا الْعَهْدِ مَعَ أُمَمِ الْجَلاَلِقَةِ فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلاَبِسِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ حَتَّى فِي رَسْمِ التَّمَاثِيلِ فِي الْجُدْرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبُيُوتِ حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ ذَلِكَ النَّاظِرُ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عَلاَمَاتِ الاسْتِيلاَءِ وَالأَمْرُ لِلَّهِ . وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا سِرَّ قَوْلِهِمِ الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ فَإِنَّهُ مِنْ بَابِهِ إِذِ الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ

تَحْتَ يَدِهِ وَالـرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لاِعْتِقَادِ الْكَمَالِ فِيـــهِ اعْتِقَادَ الأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيـهِم وَاللهُ الـعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوْفِيقُ .

الفصل الرابع والعشرون

فيى أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناءُ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ مَايَحْصُلُ فِي النُّفُوسِ مِنَ الـتَّكَاسُلِ إِذَا مَلَكَ امْرُهَا عَلَيْهَا وَصَارَتْ بِالاسْتِعْبَـــادِ آلَةً لِسِوَاهَا وَعَالَةً عَلَيْهِمْ فَيَقْصُرُ الأَمَلُ وَيَضْعُفُ الــتَّنَاسُـــلُ وَالاِعْتِمَارُ إِنَّمَا هُوَ عَنْ جِدَّةِ الأَمَلِ وَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ مِنَ الـنَّشَاطِ فِي الْقُوَى الْحَيَوَانِيَّةِ فَإِذَا ذَهَبَ الأَمَلُ بِالـتَّكَـاسُلِ وَذَهَبَ مَايَدْعُو إِلَيْهِ مِنَ الأَحْوَالِ وَكَانَتِ الْعَصَـــبِيَّةُ ذَاهِبَةً بِالْغَلَبِ الْحَاصِلِ عَلَيْهِمْ تَنَاقَصَ عُمْرَانُهُمْ وَتَلاَشَتْ مَكَاسِبُهُمْ وَمَسَاعِيهِمْ وَعَجِزُوا عَنِ الْمُدَافَعَةِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا خَضَدَ الْغَلَبُ مِنْ شَوْكَتِهِمْ فَأَصْبَحُوا مُغَلَّبِينَ لِكُلِّ مُتَغَلِّبٍ وَطَعْمَةً . لِكُلِّ آكِلٍ وَسَوَاءٌ كَانُوا حَصَلُوا عَلَى غَايَتِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ أَمْ لَمْ يَحْصُلُوا . وَفِيهِ وَاللهُ أَعْلَمُ سِرٌّ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الإِنْسَانَ رَئِيـس بِطَبْعِهِ بِمُقْتَضَى الاِسْتِخْلاَفِ الَّذِي

خلُقَ لَهُ وَالرَّئيسُ إِذَا غُلِبَ عَلَى رِئَاسَتِهِ وكُبِحَ عَنْ غَايَةِ عِزِّهِ تَكَاسَلَ حَتَّى عَنْ شِبَعِ بَطْنِهِ وَرِيِّ كَبِدِهِ وَهَـــذَا مَوْجُودٌ فِي أَخْلاَقِ الأَنَاسِيِّ . وَلَقَدْ يُقَالُ مِثْلُهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ وَإِنَّهَا لاَتُسَافِد إِلاَّ إِذَا كَانَت فِي مَلَكَةِ الآدَمِيِّينَ فَلاَ يَزَالُ هذَا الْقَبِيلُ الْمَمْلُوكُ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فِي تَنَاقُصٍ وَاضْمِحْلاَلٍ إِلَى أَنْ يَأْخُذَهُمُ الفَنَاءُ وَالْبَقَاءُ لله وَحدَهُ وَاعْتَبِرْ ذلِكَ فِي أُمَّةِ الْفُرْسِ كَيْفَ كَانَتْ قَدْ مَلأَتِ الْعَالَمَ كَثْرَةً وَلَمَّا فَنِيَتْ حَامِيَتُهُمْ فِـي أَيَّامِ الْعَرَبِ بِقَيَ مِنْهُمْ كَثِيـــرٌ وَأَكْثَرُ مِنَ الـكَثِيـــرِ يُقَالُ إِنَّ سَعْدًا أَحْصَـــــــى مَا وَرَاءَ الْمَدَائِنَ فَكَانُوا مِائَةَ أَلْف وَسَبْعَةَ وَثَلاَثـــــــينَ أَلْفًا مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلاَثُونَ أَلْفًا رَبُّ بَيْتٍ وَلَمَّا تَحَصَّلُوا فِي مَلَكَةِ الْعَرَبِ وَقَبْضَةِ الْقَهْرِ لَمْ يَكُنْ بَقَاؤُهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَدَثَرُوا كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا وَلا تَحْسَبَنَّ أَنَّ ذلك لِظُلْمٍ نَزَلَ بِهِـــمْ أَوْ عُدْوَانٍ شَمَلَهُمْ فَمَلَكَةُ الإِسْلاَمِ فِي الْعَدْلِ مَاعَلِمْتَ وَإِنَّمَا هِيَ طَبِيـعَةٌ فِي الإِنْسَانِ إِذَا غُلِبَ عَلَى أَمْرِهِ وَصَارَ آلَةً لِغَيْرِهِ وَلِهَـــذَا إِنَّمَا تُذْعِنُ لِلـرِّقِ فِي الْغَالِبِ أُمَمُ الـسُّودَانِ لِنَقْصِ الإِنْسَانِيَّةِ فِيـــــهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ كَمَا قُلْنَاهُ أَوْ مَنْ يَرْجُو بِانْتِظَامِهِ فِي رِبْقَةِ الـــرِّقِّ حُصُولَ رُتْبَةٍ أَوْ إِفَادَةَ مَالٍ أَوْ عِـزٍ كَمَا يَقَعُ لِمَمَـالِكِ التُّرْكِ

بِالْمَشْرِقِ وَالْعُلُوجِ مِنَ الْجَلاَلِقَةِ وَالإِفْرَنْجَةِ فَإِنَّ الْعَادَةَ جَارِيَةٌ بِاسْتِخْلاَصِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ فَلاَ يَأْنَفُونَ مِنَ الرِّقِ لِمَا يَأْمُلُونَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالرُّتْبَةِ بِاصْطِفَاءِ الدَّوْلَةِ وَاللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصل الخامس والعشرون

في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ بِطَبِيعَةِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمْ أَهْلُ انْتِهَابٍ وَعَيْثٍ يَنْتَهِبُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُغَالَبَةٍ وَلاَرُكُوبِ خَطَرٍ وَيَفِرُّونَ إِلَى مُنْتَجَعِهِمْ بِالْقَفْرِ وَلاَ يَذْهَبُونَ إِلَى الْمُزَاحَفَةِ وَالْمُحَارَبَةِ إِلاَّ إِذَا دُفِعُوا بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَكُلُّ مَعْقِلٍ أَوْ مُسْتَصْعَبٍ عَلَيْهِمْ فَهُمْ تَارِكُوهُ إِلَى مَا يَسْهُلُ عَنْهُ وَلاَ يَعْرِضُونَ لَهُ وَالْقَبَائِلُ الْمُمْتَنِعَةُ عَلَيْهِمْ بِأَوْعَارِ الْجِبَالِ بِمَنْجَاةٍ مِنْ عَيْثِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَتَسَنَّمُونَ إِلَيْهِمِ الْهِضَابَ وَلاَ يَرْكَبُونَ الصِّعَابَ وَلاَ يُحَاوِلُونَ الْخَطَرَ وَأَمَّا الْبَسَائِطُ فَمَتَى اقْتَدَرُوا عَلَيْهَا بِفِقْدَانِ الْحَامِيَةِ وَضَعْفِ الدَّوْلَةِ فَهِيَ نَهْبٌ لَهُمْ وَطُعْمَةٌ لآكِلِهِمْ يُرَدِّدُونَ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالنَّهْبَ وَالزَّحْفَ لِسُهُولَتِهَا عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ يُصْبِحَ أَهْلُهَا

مُغَلَّبِينَ لَهُمْ ثُمَّ يَتَعَاوَرُونَهُمْ بِاخْتِلافِ الأَيْدِي وَانْحِرَافِ السِيَاسَةِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ عُمْرَانُهُمْ وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لاَ رَبَّ غَيْرَهُ .

الفصل السادس والعشرون
في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَحْشِيَّةٌ بِاسْتِحْكَامِ عَوَائِدِ التَّوَحُّشِ وَأَسْبَابِهِ فِيهِمْ فَصَارَ لَهُمْ خُلُقاً وَجِبِلَّةً وَكَانَ عِنْدَهُمْ مَلْذُوذاً لِمَا فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنْ رِبْقَةِ الحُكْمِ وَعَدَمِ الانْقِيَادِ لِلسِيَاسَةِ وَهَذِهِ الطَّبِيعَةُ مُنَافِيَةٌ لِلْعُمْرَانِ وَمُنَاقِضَةٌ لَهُ فَغَايَةُ الأَحْوَالِ الْعَادِيَةِ كُلِّهَا عِنْدَهُمُ الرِّحْلَةُ وَالتَّغَلُّبُ وَذلِكَ مُنَاقِضٌ لِلسُّكُونِ الَّذِي بِهِ الْعُمْرَانُ وَمُنَافٍ لَهُ فَالْحَجَرُ مَثَلاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِنَصْبِهِ أَثَافِيَّ الْقِدْرِ فَيَنْقُلُونَهُ مِنَ الْمَبَانِي وَيُخَرِّبُونَهَا عَلَيْهِ وَيُعِدُّونَهُ لِذلك وَالْخَشَبُ أَيْضاً إِنَّمَا حَاجَتُهُمْ إِلَيْهِ لِيُعَمِّرُوا بِهِ خِيَامَهُمْ وَيَتَّخِذُوا الأَوْتَادَ مِنْهُ لِبُيُوتِهِمْ فَيُخَرِّبُونَ السَّقْفَ عَلَيْهِ لِذلِكَ فَصَارَت طَبِيعَةُ وُجُودِهِمْ مُنَافِيَةً لِلبِنَاءِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ

الْعُمْرَانِ هذاَ فِي حَالِهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وأَيْضاً فَطَبِيعَتُهُمْ انْتِهَابُ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وأَنَّ رِزْقَهُمْ فِي ظِلاَلِ رِمَاحِهِمْ ولَيْسَ عِنْدَهُمْ فِي أَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ حدٌّ يَنْتَهُونَ إِلَيْهِ بَلْ كلَّمَا امْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ إِلى مَالٍ أَوْ مَتَاعٍ أَوْ مَاعُونٍ انْتَهَبُوهُ فإِذَا تَمَّ اقْتِدَارُهُمْ عَلَى ذلِكَ بِالتَّغَلُّبِ وَالْمُلْكِ بَطَلَتِ السياسةُ في حِفْظِ أَمْوَالِ النَّاسِ وَخَرِبَ الْعُمْرَانُ وأَيْضاً فَلأَنَّهُمْ يُكَلِّفُونَ عَلَى أَهْلِ الأَعْمَالِ مِنَ الصَّنَائِعِ وَالْحِرَفِ أَعْمَالَهُمْ لاَيَرَوْنَ لَهَا قِيمَةً وَلاَ قِسْطاً مِنَ الأَجْرِ وَالثَّمَنِ وَالأَعْمَالُ كَمَا سَنَذْكُرُهُ هِيَ أَصْلُ الْمَكَاسِبِ وَحَقِيقَتُهَا وَإِذَا فَسَدَتِ الأَعْمَالُ وَصَارَتْ مَجَّاناً ضَعُفَتِ الآمَالُ فِي الْمَكَاسِبِ وَانْقَبَضَتِ الأَيْدِي عَنِ الْعَمَلِ وَابْذَعَرَّ السَّاكِنُ وَفَسَدَ الْعُمْرَانُ وأَيْضاً فَإِنَّهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ عِنَايَةٌ بِالأَحْكَامِ وَزَجْرِ النَّاسِ عَنِ الْمَفَاسِدِ وَدِفَاعِ عَنْ بَعْضٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ مَا يَأْخُذُونَهُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ نَهْباً أَوْ غَرَامَةً فَإِذَا تَوَصَّلُوا إِلَى ذلِكَ وَحَصَلُوا عَلَيْهِ أَعْرَضُوا عَمَّا بَعْدَهُ مِنْ تَسْدِيدِ أَحْوَالِهِمْ وَالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَقَهْرِ بَعْضِهِم عَنْ أَغْرَاضِ الْمَفَاسِدِ وَرُبَّمَا فَرَضُوا الْعُقُوبَاتِ فِي الأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَحْصِيلِ الْفَائِدَةِ وَالْجِبَايَةِ وَالاِسْتِكْثَارِ مِنْهَا كَمَا هُوَ شَأْنُهُمْ وَذلِكَ

لَيْسَ بِمُغْنٍ فِي دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَزَجْرِ الْمُتَعَرِّضِ لَهَا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ زَائِداً فِيهَا لاِسْتِسْهَالِ الْغُرْمِ فِي جَانِبِ حُصُولِ الْغَرَضِ فَتَبْقَى الرَّعَايَا فِي مَلَكَتِهِمْ كَأَنَّهَا فَوْضَى[1] دُونَ حُكْمٍ وَالْفَوْضَى مُهْلِكَةٌ لِلْبَشَرِ مُفْسِدَةٌ لِلْعُمْرَانِ بِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ أَنَّ وُجُودَ الْمَلِكِ خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلإِنْسَانِ لاَيَسْتَقِيمُ وُجُودُهُمْ وَاجْتِمَاعُهُمْ إِلاَّ بِهَا وَتَقَدَّمَ ذَلِكَ أَوَّلَ الْفَصْلِ وَأَيْضاً فَهُمْ مُتَنَافِسُونَ فِي الرِّئَاسَةِ وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمُ الأَمْرَ لِغَيْرِهِ وَلَوْ كَانَ أَبَاهُ أَوْ أَخَاهُ أَوْ كَبِيرَ عَشِيرَتِهِ إِلاَّ فِي الأَقَلِّ وَعَلَى كُرْهٍ مِنْ أَجْلِ الْحَيَاءِ فَيَتَعَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالأُمَرَاءُ وَتَخْتَلِفُ الأَيْدِي عَلَى الرَّعِيَّةِ فِي الْجِبَايَةِ وَالأَحْكَامِ فَيَفْسُدُ الْعُمْرَانُ وَيَنْتَقِضُ قَالَ الأَعْرَابِيُّ الْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنِ الْحَجَّاجِ وَأَرَادَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ بِحُسْنِ السِّيَاسَةِ وَالْعُمْرَانِ فَقَالَ تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكُوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنَ الأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَوَّضَ عُمْرَانُهُ وَأَقْفَرَ سَاكِنُهُ وَبُدِّلَتِ الأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الأَرْضِ فَالْيَمَنُ قَرَارُهُمْ خَرَابٌ إِلاَّ قَلِيلاً مِنَ

---

(١) ومما يعزى إلى سيدنا علي لاتصلح الناس فوضى لاسراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

الأَمْصَارِ وَعِرَاقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمْرَانُهُ الَّذِي كَانَ لِلْفُرْسِ أَجْمَعَ وَالشَّامُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ وَأَفْرِيقِيَّةُ وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَازَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لِثَلَاثِمِائَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا وَعَادَتْ بَسَائِطُهُ خَرَابًا كُلُّهَا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ الرُّومِي كُلِّهِ عُمْرَانًا تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمْرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ وَتَمَاثِيلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ وَاللهُ يَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل السابع والعشرون
في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِخُلُقِ التَّوَحُّشِ الَّذِي فِيهِمِ أَصْعَبُ الأُمَمِ انْقِيَادًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لِلْغِلْظَةِ وَالأَنَفَةِ وَبُعْدِ الْهِمَّةِ وَالْمُنَافَسَةِ فِي الرِّئَاسَةِ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ أَهْوَاؤُهُمْ فَإِذَا كَانَ الدِّينُ بِالنُّبُوَّةِ أَوِ الْوِلَايَةِ كَانَ الْوَازِعُ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَذَهَبَ خُلُقُ الْكِبْرِ وَالْمُنَافَسَةِ سِهِمْ فَسَهُلَ انْقِيَادُهُمْ

وَاجْتِمَاعُهُمْ وَذَلِكَ بِمَا يَشْمَلُهُمْ مِنَ الدِّينِ الْمُذْهِبِ لِلْغِلْظَةِ وَالأَنَفَةِ الوَازِعِ عَنِ التَّحَاسُدِ وَالتَّنَافُسِ فَإِذَا كَانَ فِيهِمِ النَّبِيُّ أَوِ الْوَلِيُّ الَّذِي يَبْعَثُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ يُذْهِبُ عَنْهُمْ مَذْمُومَاتِ الأَخْلاَقِ وَيَأْخُذُهُمْ بِمَحْمُودِهَا وَيُؤَلِّفُ كَلِمَتَهُمْ لإِظْهَارِ الْحَقِ تَمَّ اجْتِمَاعُهُمْ وَحَصَلَ لَهُمُ التَّغَلُّبُ وَالْمُلْكُ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَسْرَعُ النَّاسِ قَبُولاً لِلْحَقِ وَالْهُدَى لِسَلاَمَةِ طِبَاعِهِمْ مِنْ عِوَجِ الْمَلَكَاتِ وَبَرَاءَتِهَا مِنْ ذَمِيمِ الأَخْلاَقِ إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ خُلُقِ التَّوَحُّشِ الْقَرِيبِ الْمُعَانَاةِ الْمُتَهَيِءِ لِقَبُولِ الْخَيْرِ بِبَقَائِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الأُولَى وَبُعْدِهِ عَمَّا يَنْطَبِعُ فِي النُّفُوسِ مِنْ قَبِيحِ الْعَوَائِدِ وَسُوءِ الْمَلَكَاتِ فَإِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الفصل الثامن والعشرون
في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ أَكْثَرُ بِدَاوَةً مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ وَأَبْعَدُ مَجَالاً فِي الْقَفْرِ وَأَغْنَى عَنْ حَاجَاتِ التُّلُولِ وَحُبُوبِهَا لاعْتِيَادِهِمِ الشَّظَفَ وَخُشُونَةَ الْعَيْشِ فَاسْتَغْنَوا عَنْ غَيْرِهِمْ فَصَعُبَ انْقِيَادُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ لإِيلاَفِهِمْ ذَلِكَ وَلِلتَّوَحُّشِ

وَرَئِيسُهُمْ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمْ غَالِباً لِلْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْمُدَافَعَةُ فَكَانَ مُضْطَراً إِلَى إِحْسَانِ مَلَكَتِهِمْ وَتَرْكِ مُرَاغَمَتِهِمْ لِئَلاَّ يَخْتَلَّ عَلَيْهِ شَرْنُ عَصَبِيَتِهِ فَيَكُونَ فِيهَا هَلاَكُهُ وَهَلاَكُهُمْ وَسِيَاسَةُ الْمَلِكِ وَالسُّلْطَانِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ السَّائِسُ وَازِعاً بِالْقَهْرِ وَإِلاَّ لَمْ تَسْتَقِمْ سِيَاسَتُهُ وَأَيْضاً فَإِنَّ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَخْذَ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ خَاصَّةً وَالتَّجَافِي عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَدِفَاعِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ فَإِذَا مَلَكُوا أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ جَعَلُوا غَايَةَ مُلْكِهِمِ الانْتِفَاعَ بِأَخْذِ مَا أَيْدِيهِمْ وَتَرَكُوا مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَحْكَامِ بَيْنَهُمْ وَرُبَّمَا جَعَلُوا الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْمَفَاسِدِ فِي الأَمْوَالِ حِرْصاً عَلَى تَكْثِيرِ الْجِبَايَاتِ وَتَحْصِيلِ الْفَوَائِدِ فَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ وَازِعاً وَرُبَّمَا يَكُونُ بَاعِثاً بِحَسَبِ الأَغْرَاضِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْمَفَاسِدِ وَاسْتِهَانَةِ مَا يُعْطِي مِنْ مَالِهِ فِي جَانِبِ فَتَنْمُو الْمَفَاسِدُ بِذَلِكَ وَيَقَعُ تَخْرِيبُ الْعُمْرَانِ فَتَبْقَى تِلْكَ الأُمَّةُ كَأَنَّهَا فَوْضَى مُسْتَطِيلَةً أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلاَ يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمْرَانٌ وَتَخْرَبُ سَرِيعاً شَأْنَ الْفَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَبَعُدَتْ طِبَاعُ الْعَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ عَنْ سِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلاَبِ طِبَاعِهِمْ وَتَبَدُّلِهَا بِصِبْغَةٍ دِينِيَّةٍ تَمْحُو ذَلِكَ مِنْهُمْ

وَتَجعَلُ الْوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي الْمِلَّةِ لَمَّا شَيَّدَ لَهُمُ الدِينُ أَمْرَ السِيَاسَةِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا الْمُرَاعِيَةِ لِمَصَالِحِ الْعُمْرَانِ ظَاهِراً وَبَاطِناً وَتَتَابَعَ فِيهَا الْخُلَفَاءُ عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ كَانَ رُسْتُمُ إِذَا رَأَى الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلاَةِ يَقُوْلُ أَكَلَ عُمَرُ كَبِدِي يُعَلِّمُ الْكِلاَبَ الآدَابَ ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا الدِينَ فَنَسُوا السِيَاسَةَ وَرَجَعُوا إِلَى قَفْرِهِمْ وَجَهِلُوا شَأْنَ عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بِبُعْدِهِمْ عَنِ الانْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ النَّصَفَةِ فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنِ اسْمِ الْمُلْكِ إِلاَّ أَنَّهُمْ مِنْ جِنْسِ الْخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ الْخِلاَفَةِ وَامُّحِيَ رَسْمُهَا انْقَطَعَ الأَمْرُ جُمْلَةً مِنْ أَيْدِيهِمْ وَغَلَبَ عَلَيْهِمِ الْعَجَمُ دُونَهُمْ وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قِفَارِهِم لاَيَعْرِفُونَ الْمُلْكَ وَلاَ سِيَاسَتَهُ بَلْ قَدْ يَجْهَلُ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُم مُلْكٌ فِي الْقَدِيمِ وَمَا كَانَ فِي الْقَدِيمِ لأَحَدٍ مِنَ الأُمَمِ فِي الْخَلِيقَةِ مَا كَانَ لأَجْيَالِهِمْ مِنَ الْمُلْكِ وَدُوَلُ عَادٍ وَثَمُودَ وَالْعَمَالِقَةِ وَحِمْيَرَ وَالتَّبَابِعَةِ شَاهِدَةٌ بِذَلِكَ ثُمَّ دَوْلَةُ مُضَرَ فِي الإِسْلاَمِ بَنِي امَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ لَكِنْ بَعُدَ

عَهْدُهُمْ بِالسِيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبَدَاوَةِ وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى الدُّوَلِ الْمُسْتَضْعَفَةِ كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ فَلاَ يَكُونُ مَآلُهُ وَغَايَتُهُ إِلاَّ تَخْوِيبَ مَا يَسْتَوْلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمْرَانِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل التاسع والعشرون
في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّ عُمْرَانَ الْبَادِيَةِ نَاقِصٌ عَنْ عُمْرَانِ الْحَوَاضِرِ وَالأَمْصَارِ لأَنَّ الأُمُورَ الضَرُورِيَّةَ فِي الْعُمْرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً لأَهْلِ الْبَدْوِ . وَإِنَّمَا تُوجَدُ لِدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورُ الْفَلْحِ وَمَوَادُّهَا مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا الصَنَائِعُ فَلاَ تُوجَدُ لَدَيْهِمْ فِي الْكُلِّيَّةِ مِنْ نَجَّارٍ وَخَيَّاطٍ وَحَدَّادٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَاشِهِمْ فِي الْفَلْحِ وَغَيْرِهِ وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لِدَيْهِمْ وَإِنَّمَا بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مُغَلِّ الزِرَاعَةِ وَأَعْيَانِ الْحَيَوَانِ أَوْ فَضَلاَتِهِ أَلْبَانًا وَأَوْبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الأَمْصَارِ

فَيُعَوِضُونَهُمْ عنْهُ بِالدَّنَانِيرِ وَالدَّرَاهِمِ إلاَّ أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الأَمْصَارِ فِي الضَّرُورِيِ وَحَاجَةُ أَهْلِ الأَمْصَارِ إِلَيْهِمْ فِي الْحَاجِي وَالْكَمَالِي فَهُم مُحْتَاجُونَ إِلَى الأَمْصَارِ بِطَبِيعَةِ وُجُودِهِمْ فَمَا دَامُوا فِي الْبَادِيَةِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُم مُلْكٌ وَلاَ اسْتِيلاَءٌ عَلَى الأَمْصَار فَهُمْ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَهْلِهَا وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مَصَالِحِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ مَتَى دَعَوْهُمْ إِلَى ذَلِكَ وَطَالَبُوهُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ فِي الْمِصْرِ مَلِكٌ كَانَ خُضُوعُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِغَلَبِ الْمَلِكِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمِصْرِ مَلَكٌ فَلاَبُدَّ فِيهِ مِنْ رِئَاسَةٍ وَنَوْعِ اسْتِبْدَادٍ مِنْ بَعْضِ أَهْلِهِ عَلَى الْبَاقِينَ وَإِلاَّ انْتَقَضَ عُمْرَانُهُ وَذَلِكَ الرَّئِيسُ يَحْمِلُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالسَّعْي فِي مَصَالِحِهِ إِمَّا طَوْعاً بِبَذْلِ الْمَالِ لَهُمْ ثُمَّ يُبْدِي لَهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ فِي مِصْرِهِ فَيَسْتَقِيمُ عُمْرَانُهُمْ وَإِمَّا كُرْهاً إِنْ تَمَّتْ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ وَلَوْ بِالتَّغْرِيبِ بَيْنَهُمْ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ جَانِبٌ مِنْهُمْ يُغَالِبُ بِهِ الْبَاقِينَ فَيَضْطَرُّ الْبَاقُونَ إِلَى طَاعَتِهِ بِمَا يَتَوَقَّعُونَ لِذَلِكَ مِنْ فَسَادِ عُمْرَانِهِمِ وَرُبَّمَا لاَيَسَعُهُمْ مُفَارَقَةُ تِلْكَ النَّوَاحِي إِلَى جِهَاتٍ أُخْرَى لأَنَّ كُلَّ الْجِهَاتِ مَعْمُورٌ بِالْبَدْوِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيْهَا وَمَنَعُوهَا مِنْ غَيْرِهَا فَلاَ يَجِدُ هَؤُلاءِ مَلْجأً إلاَّ طَاعَةَ

الْمِصـــرِ فَهُمْ بِالضَّرُورَةِ مَغْلُوبُونَ لأَهْلِ الأَمْصَارِ وَاللهُ قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الأَحَدُ الْقَهَّارُ .

الفصل الثالث من الكتاب الأول في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول
في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيل والعصبية

وَذَلِكَ أَنَّا قَرَّرْنَا فِي الْفَصْلِ الأَوَّلِ أَنَّ الْمغَالَبَةَ وَالْمُمَانَعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ لِمَا فِيـــهَا مِنَ النُّعْرَةِ وَالتَّذَامُرِ وَاسْتِمَاتَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ دُونَ صَاحِبِهِ . ثُمَّ إِنَّ الْمُــــلْكَ مَنْصِبٌ شَرِيـــفٌ مَلْذُوذٌ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيـــعِ الْخَيْرَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالْمَلاَذِّ النَّفْسَانِيَّةِ فَيَقَعُ فِيـــهِ الـــتَّنَافُسُ غَالِباً وَقَلَّ أَنْ يُسَلِّمَهُ أَحَدٌ لِصَاحِبِهِ إِلاَّ إِذَا غَلَبَ عَلَيْهِ فَتَقَعُ الْمُنَازَعَةُ وَتُفْضِي إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْمُغَالَبَةُ وَشَيْءٌ مِنْهَا لاَيَقَعُ إِلاَّ بِالْعَصَبِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفاً وَهَذَا الأَمْرُ

بَعِيدٌ عَنْ أَفْهَامِ الْجُمْهُورِ بِالْجُمْلَةِ وَمُتَنَاسُونَ لَهُ لأَنَّهُمْ نَسُوا عَهْدَ تَمْهِيدِ الدَّوْلَةِ مُنْذُ أَوَّلِهَا وَطَالَ أَمَدُ مَرْبَاهُمْ فِي الْحِضَارَةِ وَتَعَاقُبِهِمْ فِيهَا جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ فَلاَ يَعْرِفُونَ مَا فَعَلَ اللهُ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يُدْرِكُونَ أَصْحَابَ الدَّوْلَةِ وَقَدِ اسْتَحْكَمَتْ صِبْغَتُهُمْ وَوَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُمْ وَالاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فِي تَمْهِيدِ أَمْرِهِمْ وَلاَ يَعْرِفُونَ كَيْفَ كَانَ الأَمْرُ مِنْ أَوَّلِهِ وَمَا لَقِيَ أَوَّلُهُمْ مِنَ الْمَتَاعِبِ دُونَهُ وَخُصُوصاً أَهْلُ الأَنْدَلُسِ فِي نِسْيَانِ هَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ وَأَثَرِهَا لِطُولِ الأَمَدِ وَاسْتِغْنَائِهِمْ فِي الْغَالِبِ عَنْ قُوَّةِ الْعَصَبِيَّةِ بِمَا تَلاَشَى وَطَنُهُمْ وَخَلاَ مِنَ الْعَصَائِبِ وَاللهُ قَادِرٌ عَلَى مَا يَشَاءُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيل .

الفصل الثاني
في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الدُّوَلَ الْعَامَّةَ فِي أَوَّلِهَا يَصْعُبُ عَلَى النُّفُوسِ الانْقِيَادُ لَهَا إِلاَّ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْغَلَبِ لِلْغَرَابَةِ وَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَأْلَفُوا مُلْكَهَا وَلاَ اعْتَادُوهُ فَإِذَا اسْتَقَرَّتِ الرِّئَاسَةُ فِي أَهْلِ النِّصَابِ الْمَخْصُوصِ بِالْمُلْكِ فِي الدَّوْلَةِ

وَتَوَارَثُوهُ وَاحِداً بَعْدَ آخَرَ فِي أَعْقَابِ كَثِيـرِينَ وَدُوَلٍ مُتَعَاقِبَةٍ نَسِيَتِ الـنُّفُوسُ شَأْنَ الأَوَّلِيَّةِ وَاسْتَحْكَمَتْ لأَهْلِ ذَلِكَ النِّصَابِ صِبْغَةُ الـرِّئَاسَةِ وَرَسَخَ فِي الْعَقَائِدِ دِيـنُ الانْقِيَادِ لَهُمْ وَالتَّسْلِيـمِ وَقَاتَلَ النَّاسُ مَعَهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ قِتَالَهُمْ عَلَى الْعَقَائِدِ الإِيمَـانِيَّةِ فَلَمْ يَحْتَاجُوا حِينَئِذٍ فِي أَمْرِهِمْ إِلَى كَبِيرِ عِصَابَةٍ بَلْ كَـأَنَّ طَاعَتَهَا كِتَابٌ مِنَ اللـهِ لاَيُبَدَّلُ وَلاَيُعْلَمُ خِلاَفُهُ وَلأَمْرٍ مَا يُوضَعُ الْكَلاَمُ فِي الإِمَامَةِ آخِرَ الْكَلاَمِ عَلَى الْعَقَائِدِ الإِيمَـانِيَّةِ كَـأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ عُقُودِهَا وَيَكُونُ اسْتِظْهَارُهُمْ حِينَئِذٍ عَلَـى سُلْطَانِهِمْ وَدَوْلَتِهِـمِ الْمَخْصُوصَةِ إِمَّـا بِالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعِينَ الَّذِينَ نَشَأُوا فِي ظِلِّ الْعَصَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَإِمَّا بِالْعَصَائِبِ الْخَارِجِينَ عَنْ نَسَبِهَا الدَّاخِلِينَ فِي وِلاَيَتِهَا وَمِثْلُ هَـذَا وَقَعَ لِبَنِي الْعَبَّاسِ فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ الْعَرَبِ كَانَتْ فَسَدَتْ لِعَهْدِ دَوْلَةِ الْمُعْتَصِمِ وَابْنِهِ الْوَاثِـقِ وَاسْتِظْهَارُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَوَالِي مِنَ الْعَجَمِ وَالـتُّرْكِ وَالـدَّيْلَمِ وَالسَّلْجُوقِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ ثُمَّ تَغَلَّبَ الْعَجَـمُ الأَوْلِيَاءُ عَلَى الـنَّوَاحِي وَتَقَلَّصَ ظِلُّ الـدَّوْلَةِ فَلَمْ تَكُنْ تَعْدُو أَعْمَالَ بَغْدَادَ حَتَّى زَحَفَ إِلَيْهَا الـدَّيْلَمُ وَمَلَكُوهَا وَصَارَ الْخَلاَئِقُ فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَمَلَكَ الـسَّلْجُوقِيَّةُ

مِنَ بَعْدِهِـــمْ فَصَارُوا فِي حُكْمِهِمْ ثُمَّ انْقَرَضَ أَمْرُهُمْ وَزَحَفَ آخِرُ التَّتَارِ فَقَتَلُوا الْخَلِيــــفَةَ وَمَحَوا رَسْمَ الدَّوْلَةِ وَكَذَا صِنْهَاجَةُ بِالْمَغْرِبِ فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهُمْ مُنْذُ الْمِائَةِ الْخَامِسَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا وَاسْتَمَرَّتْ لَهُمُ الدَّوْلَةُ مُتَقَلِّصَةَ الظِّلِ بِالْمَهْدِيَّةِ وَبِجَايَةَ وَالْقَلْعَةِ وَسَائِرِ ثُغُورِ أَفْرِيقِــيَّةَ وَرُبَّمَا انْتَزَى بِتِلْكَ الثُّغُورِ مَنْ نَازَعَهُمُ الْمُلْكَ وَاعْتَصَمَ فِيهَا وَالسُّلْطَانُ وَالْمُلْكُ مَعَ ذَلِكَ مُسَلَّمٌ لَهُمْ حَتَّى تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِ الدَّوْلَةِ وَجَاءَ الْمُوَحِّدُونَ بِقُوَّةٍ قَوِيَّةٍ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ فِي الْمَصَامِدَةِ فَمَحَوا آثَارَهُمْ وَكَذَا دَوْلَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ لَمَّا فَسَدَتْ عَصَبِيَّتُهَا مِنْ الْعَرَبِ اسْتَوْلَى مُلُوكُ الطَّوَائِفِ عَلَى أَمْرِهَا وَاقْتَسَمُوا خِطَّتَهَا وَتَنَافَسُوا بَيْنَهُمْ وَتَوَزَّعُوا مَمَالِكَ الدَّوْلَةِ وَانْتَزَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا كَانَ فِي وِلاَيَتِهِ وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ وَبَلَغَهُمْ شَأْنُ الْعَجَمِ مَعَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ فَتَلَقَّبُوا بِأَلْقَابِ الْمُلْكِ وَلَبِسُوا شَارَتَهُ وَأَمِنُوا مِمَّنْ يَنْقُضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُغَيِّرُهُ لأَنَّ الأَنْدَلُسَ لَيْسَ بِدَارِ عَصَائِبَ وَلاَقَبَائِلَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ وَاسْتَمَرَّ لَهُمْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ ابْنُ شَرَفٍ :

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِــي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ

أَسْمَاءُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِــدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِــي غَيْرِ مَوْضِعِهَا
كَالهِرّ يَحكِي انْتِفَاخاً صُورَةَ الأَسَدِ

فَاسْتَظْهَرُوا عَلَــى أَمْــرِهِمْ بِالْمَوَالِــي وَالْمُصْطَنَعِينَ وَالــطُرَّاءِ عَلَى الأَنْدَلُسِ مِنْ أَهْلِ الْعُدْوَةِ مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ وَزَنَاتَةَ وَغَيْرِهِمِ اقْتِدَاءً بِالــدَّوْلَةِ فِي اخِرِ أَمْرِهَا فِي الاِسْتِظْهَارِ بِهِم حِينَ ضَعُفَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ وَاسْتَبَدَّ ابْنُ أَبِي عَامِرٍ عَلَى الدَّوْلَةِ فَكَانَ لَهُمْ دُوَلٌ عَظِيــمَةٌ اسْتَبَدَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ مِنَ الأَنْدَلُسِ وَحَظٌّ كَبِيــرٌ مِنَ الْمُلْكِ عَلَى نِسْبَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي اقْتَسَمُوهَا وَلَمْ يَزَالُوا فِي سُلْطَانِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى جَازَ إِلَيْهِمِ الْبَحْرُ الْمُرَابِطُونَ أَهْلُ الْعَصَبِــيَّةِ الْقَوِيَّةِ مِنْ لَمْتُونَةَ فَاسْتَبْــدَلُوا بِهِمْ وَأَزَالُوهُمْ عَنْ مَرَاكِزِهِمْ وَمَحَوْا آثَارَهُمْ وَلَمْ يَقْتَدِرُوا عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ لِفِقْدَانِ الْعَصَبِيَّةِ لَدَيْهِمْ فَبِهَــذِهِ الْعَصَبِيَّةِ يَكُونُ تَمْهِيــدُ الدَّوْلَةِ وَحِمَايَتُهَا مِنْ أَوَّلِهَا وَقَدْ ظَنَّ الــطُرْطُوشِيُّ أَنَّ حَامِيَةَ الــدُّوَلِ بِإِطْلاَقٍ هُمُ الْجُنْدُ أَهْلُ الْعَطَاءِ الْمَفْرُوضِ مَعَ الأَهِلَّةِ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي سَمَّاهُ سِرَاجَ الْمُلُوكِ وَكَلاَمُهُ لاَ يَتَنَاوَلُ تَأْسِيسَ الدُّوَلِ الْعَامَّةِ فِي أَوَّلِهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَخْصُوصٌ بِالدُّوَلِ الأَخِيــرَةِ بَعْدَ التَّمْهِيــدِ وَاسْتِقْرَارِ الْمُلْكِ فِي النِصَابِ وَاسْتِحْكَامِ الصِبْغَةِ

لأهْلِه فَالرَّجلُ إنَّماَ أَدْركَ الـدَّوْلَةَ عِنْدَ هرَمِهـا وَخلَق جدَّتِهاَ وَرُجُوعِهاَ إِلَى الاستِظْهاَرِ بِالْمَوَالــي وَالــصنَّائِعِ ثُمَّ إِلَى الْمُستَخْدِمينَ مِنْ ورَائِهِمْ بِالأُجرِ علَى الْمدَافعَةِ فَإِنَّهُ إِنَّماَ أَدْرَكَ دُوَلَ الــطَّوَائِفِ وَذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلاَلِ بَنِي امِيَّةَ وَانْقِرَاضِ عَصَبِيَّتِهاَ مِنَ الْعَرَبِ وَاستِبْدَادِ كُلِ أَمِيــرٍ بِقُطْرِه وكَانَ فِي إِيَالَةِ الْمُسْتَعِينِ بْنِ هُودَ وَابْنِهِ الْمظَفَّرِ أَهْلُ سرَقَسْطَةَ ولَمْ يَكُنْ بِقَي لَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْعَصَبِيَّةِ شَيْءٌ لاِستِيلاَءِ التَّرَفِ علَى الْعَرَبِ مُنْذُ ثَلاَثِماَئَةِ مِنَ الـــسنِينَ وَهلاَكِهِمْ وَ لَمْ يرَ إلاَّ سلْطَاناَ مُستَبِداً بِالْمُلْك عَنْ عَشَــائِرِه قَدِ استَحْكَمَتْ لَهُ صِبغَةُ الاستِبْدَادِ مُنْذُ عَهْدِ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ فَهُوَ لذلكَ لاَ يُنَازِعُ فِيــه وَيَستَعِينُ علَى أَمْرِهِ بِالأجرَاءِ مِنَ الْمُرْتَزقَةِ فَأَطْلَقَ الـــطَّرْطُوشِيُّ الْقَوْلَ فِي ذلِكَ وَلَمْ يَتَفَطَّنْ لِكَيْفِيَّةِ الأَمْرِ مُنْذُ أَوَّلِ الـدَّوْلَةِ وَإِنَّهُ لاَ يَتِمَّ إلاَّ لأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ فَتَفَطَّنْ أَنْتَ لَهُ وَافْهَمْ سرَّ اللهِ فِيهِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ .

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية

وَذلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِعَصَبِيَّةٍ غَلْبٌ كَثِيــــرٌ عَلَى الأُمَمِ وَالأَجْيَالِ وَفِي نُفُوسِ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَاصِيَةِ إِذْعَانٌ لَهُمْ وَانْقِيَــادٌ فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هذَا الْخَارِجُ وَانْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبِتِ عِزِّهِ اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ وَعُنُوا بِتَمْهِيدِ دَوْلَتِهِ يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ وَتَنَاوُلَهُ الأَمْرَ مِنْ يَدِ أَعْيَاصِهِ وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مُظَاهَرَتِهِ بِاصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ الْمُلْكِ وَخُطَطِهِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلاَيَةِ ثَغْرٍ وَلاَ يَطْمَعُونَ فِي مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيماً لِعَصَبِيَّتِهِ وَانْقِيَاداً لِمَا اسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ صِبْغَةِ الْغَلْبِ فِي الْعَالَمِ وَعَقِيدَةٍ إِيمَانِيَّةٍ اسْتَقَرَّتْ فِي الإِذْعَانِ لَهُمْ فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزَلْزَلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَهــــــذَا كَمَا وَقَعَ لِلأَدَارِسَةِ بِالْمَغْرِبِ الأَقْصَى وَالْعُبَيــــدِيِينَ بِأَفْرِيقِيَةَ وَمِصْرَ لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ وَابْتَعَدُوا عَنْ مَقَرِّ الْخِلاَفَةِ وَسَمَوْا

إِلَى طَلَبِهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ بَعْدَ أَنِ اسْتَحْكَمَتِ الصِّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدَ مَنَافٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلاً ثُمَّ لِبَنِي هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ فَخَرَجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَوا لأَنْفُسِهِمْ وَقَامَ بِأَمْرِهِمِ الْبَرَابِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فَأُورُبَةُ وَمَغِيلَةُ لِلأَدَارِسَةِ وَكُتَامَةُ وَصِنْهَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلْعُبَيْدِيِّينَ فَشَيَّدُوا دَوْلَتَهُمْ وَمَهَّدُوا بِعَصَائِبِهِمْ أَمْرَهُمْ وَأَمْرَهُمْ وَاقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ أَفْرِيقِيَّةَ وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَظِلُّ الْعُبَيْدِيِّينَ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ مَلَكُوا مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ وَقَاسَمُوهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الإِسْلامِيَّةِ شِقَّ الأَبْلُمَةِ وَهَؤُلاءِ الْبَرَابِرَةُ الْقَائِمُونَ بِالدَّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ لِلْعُبَيْدِيِّينَ أَمْرَهُمْ مُذْعِنُونَ لِمُلْكِهِمْ وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتْبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ الْمُلْكِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلِمَا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْغَلَبِ لِقُرَيْشَ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الأُمَمِ فَلَمْ نَزَلِ الْمُلْكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنِ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ.

الفصل الرابع
في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق

وَذلكَ لأنَّ الْمُلْكَ إنَّمَا يَحْصلُ بِالتَّغلُّبِ وَالتَّغلُّبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَاتِّفَاقُ الأَهْوَاء عَلَى الْمُطَالَبَةِ وَجَمْعُ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةٍ مِنَ اللهِ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ قَالَ تَعَالَى لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَسِرُّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمَيْلِ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفَشَا الْخِلاَفُ وَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِ وَرَفَضَتِ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللهِ اتَّحَدَتْ وِجْهَتُهَا فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلاَفُ وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّعَاضُدُ وَاتَّسَعَ نِطَاقُ الْكَلِمَةِ لِذلكَ فَعَظُمَتِ الدَّوْلَةُ كَمَا نُبَيِنُ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِهِ التَّوْفِيقُ لاَ رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الخامس
في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ الصِبْغَةَ الدِينِيَّةَ تَذْهَبُ بِالتَّنَافُسِ وَالتَّحَاسُدِ الذي فِي أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ وَتُفْرِدُ الْوِجْهَةَ إِلَى الْحَقِ فَإِذَا حَصَلَ لَهُمُ الاسْتِبْصَارُ فِي أَمْرِهِم لَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ لأَنَّ الْوِجْهَةَ وَاحِدَةٌ وَالمَطْلُوبُ مُتَسَاوٍ عِنْدَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِيتُونَ عَلَيْهِ وَأَهْلُ الدَّوْلَةِ الَّتِي هُمْ طَالِبُوهَا وَإِنْ كَانُوا أَضْعَافَهُمْ فَأَغْرَاضُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ بِالْبَاطِلِ وَتَخَاذُلُهُمْ لِتَقِيَّةِ الْمَوْتِ حَاصِلٌ فَلاَ يُقَاوِمُونَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ بَلْ يَغْلِبُونَ عَلَيْهِمْ وَيُعَاجِلُهُمُ الْفَنَاءُ بِمَا فِيهِمْ مِنَ التَّرَفِ وَالذُّلِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ صَدْرَ الإِسْلاَمِ فِي الْفُتُوحَاتِ فَكَانَتْ جُيُوشُ الْمُسْلِمِينَ بِالْقَادِسِيَّةِ وَالْيَرْمُوكِ بِضْعَةً وَثَلاَثِينَ أَلْفاً فِي كُلِ مُعَسْكَرٍ وَجُمُوعُ فَارِسَ مَائَةً وَعِشْرِينَ أَلْفاً بِالْقَادِسِيَّةِ وَجُمُوعُ هِرَقْلَ عَلَى مَا قَالَهُ الْوَاقِدِيُ أَرْبَعَمَائَةَ أَلْفٍ فَلَمْ يَقِفْ لِلْعَرَبِ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ وَهَزَمُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ وَاعْتَبِرْ ذلِكَ أَيضاً فِي دَوْلَةِ لِمَتُونَةَ وَدَوْلَةِ المُوَحِدِينَ كَانَ فَقَدْ بِالْمَغْرِبِ مِنَ الْقَبَائِلِ

كَثِيرٌ مِمَّنْ يُقَاوِمُهُمْ فِي الْعَدَدِ وَالْعَصَبِيَّةِ أَوْ يَشِفُّ عَلَيْهِمْ إِلاَّ أَنَّ الاجْتِمَاعَ الـــدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصَبِيَّتِهِمْ بِالاسْتِبْصَارِ وَالاسْتِمَاتَةِ كَـمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ إِذَا حَالَتْ صِبْغَةُ الدِّينِ وَفَسَدَتْ كَيْفَ يَنْتَقِضُ الأَمْرُ وَيَصِيـرُ الْغَلَبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصَبِيَّةِ وَحْدَهَا دُونَ زِيَادَةِ الدِّينِ فَتَغْلِبُ الـــدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الْعَصَائِبِ الْمُكَافِئَةِ لَهَا أَوِ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلَبَتْـهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصَبِيَّةً مِنْهَـا وَأَشَدَّ بَدَاوَةً وَاعْتَبِرْ هَـذَا فِي الْمُوَحِّدِيـــنَ مَعَ زَنَاتَةَ لَمَّا كَانَتْ زَنَاتَةُ أَبْدَى مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الـدَّعْوَةِ الـدِّيـنِيَّةُ بِاتِّبَاعِ الْمَهْدِي فَلَبِسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصَبِيَّتِـــهِم بِهَا فَغَلَبُوا عَلَى زَنَاتَةَ أَوَّلاً وَاسْـــتَتْبَعُوهُمْ وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصَبِيَّةُ وَالْبَدَاوَةُ أَشَدَّ مِنْهُمْ فَلَمَّا خَلَوْا مِنْ تِلْكَ الـصِّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ زَنَاتَةُ مِنْ كُلِّ جَانٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى الأَمْرِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ .

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وَهَـذَا لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ الْكَافَّةُ فَلَابُدَّ لَهُ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًا إِلاَّ فِي مِنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَإِذا كَانَ هَـذَا فِي الأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِخَرْقِ الْعَوَائِدِ فَمَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِم أَنْ لاَ تَخْرُقَ لَهُ الْعَادَةُ فِي الْغَلَبِ بِغَيْرِ عَصَبِيَّةٍ وَقَدْ وَقَعَ هَـذَا لابنِ قَسِي شَيْخِ الصُّوفِيةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ النَّعْلَيْنِ فِي التَّصَوُّفِ ثَارَ بِالأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِ وَسُمِيَ أَصْحَابُهُ بِالْمُرَابِطِينَ قُبَيْلَ دَعْوَةِ الْمَهْدِي فَاسْتَتَبَّ لَهُ الأَمْرُ قَلِيلاً لِشُغْلِ لِمَتُونَةَ بِمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمُوَحِدِينَ وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلاَ قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ اسْتَوْلَى الْمُوَحِدُون عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أَذْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحِصْنِ أَرْكَش وَأَمْكَنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالأَنْدَلُسِ وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ الْمُرَابِطِينَ وَمِنْ هَـذَا الْبَابِ أَحْوَالُ الثُّوَّارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُقَهَاءِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ

الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ الدِينِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الأُمَرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ فَيَكْثُرُ أَتْبَاعُهُمْ وَالْمُتَلَبِّثُونَ بِهِمْ مِنْ الغَوْغَاءِ وَالدَّهْمَاءِ وَيُعَرِضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذلِكَ لِلْمَهَالِكِ وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي هـذَا السَّبِيلِ مَأْزُورِينَ غَيْرَ مَأْجُورِينَ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ ذلِكَ عَلَيْهِمْ وَإِنَّمَا أَمَرَ بِهِ حَيْثُ تَكُونُ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَأَحْوَالُ الْمُلُوكِ وَالدُّوَلِ رَاسِخَةٌ قَوِيَّةٌ لاَ يُزَحْزِحُهَا وَيَهْدِمُ بِنَاءَهَا إِلاَّ الْمُطَالَبَةُ الْقَوِيَّةُ الَّتِي مِنْ وَرَائِهَا عَصَبِيَّةُ الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَـكَذَا كَانَ حَالُ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ فِي دَعْوَتِهِمْ إِلَي اللهِ بِالْعَشَائِرِ وَالْعَصَائِبِ وَهُمُ الْمُؤَيَّدُونَ مِنَ اللهِ بِالْكَوْنِ كُلِهِ لَوْ شَاءَ لَكِنَّهُ إِنَّمَا أَجْرَى الأُمُورَ عَلَى مُسْتَقَرِ الْعَادَةِ وَاللهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فَإِذَا ذَهَبَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ هـذَا الْمَذْهَبَ وَكَانَ فِيهِ مُحِقًا قَصَّرَ بِهِ الانْفِرَادُ عَنِ الْعَصَبِيَّةِ فَطَاحَ فِي هُوَّةِ الْهَلاَكِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُتَلَبِسِينَ بِذلِكَ فِي طَلَبِ الرِّئَاسَةِ فَأَجْدَرُ أَنْ تَعُوقَهُ

الْعَوَائِقُ وَتَنْقَطِعُ بِهِ الْمَهَالِكُ لأَنَّهُ أَمْرُ اللـهِ لاَ يَتِمُّ إِلا بِرِضَاهُ وَإِعَانَتِهِ وَالإِخْلاَصِ لَهُ وَالنَّصِيحَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَلاَ يَشُكُّ فِي ذَلِكَ مُسْلِمٌ وَلاَ يَرْتَابُ فِيهِ ذُو بَصِيرَةٍ وَأَوَّلُ ابْتِدَاءِ هَذِهِ النَّزْعَةِ فِي الْمِلَّةِ بِبَغْدَادَ حِينَ وَقَعَتْ فِتْنَةُ طَاهِرٍ وَقَتْلَ الأَمِينُ وَأَبْطَأَ الْمَأْمُونُ بِخُرَاسَانَ عَنْ مَقْدَمِ الْعِرَاقِ ثُمَّ عَهِدَ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَى مِنْ آلِ الْحُسَيْنِ فَكَشَفَ بَنُو الْعَبَّاسِ عَنْ وَجْهِ النَّكِيرِ عَلَيْهِ وَتَدَاعَوا لِلْقِيَامِ وَخَلْعِ طَاعَةِ الْمَأْمُونِ وَالاسْتِبْدَالِ مِنْهُ وَبُويِعَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ فَوَقَعَ الْهَرْجُ بِبَغْدَادَ وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي الزَّعَرَةِ بِهَا مِنَ الشُّطَّارِ وَالْحَرْبِيَّةِ عَلَى أَهْلِ الْعَافِيَةِ وَالصَّوْنِ وَقَطَعُوا السَّبِيلَ وَامْتَلأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نِهَابِ النَّاسِ وَبَاعُوهَا عَلاَنِيَةً فِي الأَسْوَاقِ وَاسْتَعْدَى أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ يَعْدُوهُمْ فَتَوَافَرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلاَحِ عَلَى مَنْعِ الْفُسَّاقِ وَكَفِّ عَادِيَتِهِمْ وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدٍ الدَّرْيُوسِ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ الزَّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّنْكِيلِ ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ ابْنِ سَلاَمَةَ الأَنْصَارِيِّ وَيُكْنَى أَبَا حَاتِمٍ وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ

وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الأمرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْعَمَلِ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِهِ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَةً مِنْ بيْنِ شَرِيفٍ وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَمَنْ دُونَهُمْ وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ وَاتَّخَذَ الدِيوَان وَطَافَ بِبغْدَادَ وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَّةَ وَمَنَعَ الْخِفَارَةَ لأُولَئِكَ الشُّطَّارِ وَقَالَ لَهُ خَالِدُ الدُّرِيوس أَنَا لاَ أَعِيبُ عَلَى السُّلْطَانِ فَقَالَ لَهُ سَهْلٌ لكِني أُقَاتِلُ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَذَلِكَ سَنَةَ إِحْدَى وَمَائِتَيْنِ وَجَهَّزَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِي الْعَسَاكِرَ فَغَلَبَهُ وَأَسَرَهُ وَانْحَلَّ أَمْرُهُ سَرِيعًا وَذَهبَ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ثُمَّ اقْتَدَى بِهَذَا الْعَمَلِ بَعْدُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُوَسْوِسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحَقِ وَلاَ يَعْرِفُونَ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي إِقَامَتِهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَلاَيَشْعُرُونَ بِمَغَبَّةِ أَمْرِهِمْ وَمَآلِ أَحْوَالِهِمْ وَالَّذِي يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ هَؤُلاَءِ إِمَّا الْمُدَاوَاةُ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجُنُونِ وَإِمَّا التَّنْكِيلُ بِالْقَتْلِ أَوِ الضَّرْبِ إِنْ أَحْدَثُوا هَرْجاً وَإِمَّا إِذَاعَةُ السُّخْرِيَّةِ مِنْهُمْ وَعَدُّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الصَّفَّاعِينَ وَقَدْ يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إِلَى الْفَاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إِمَّا بِأَنَّهُ هُوَ أَوْ بِأَنَّهُ دَاعٍ لَهُ وَلَيْسَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ أَمْرِ الْفَاطِمِي وَلاَ مَاهُوَ وَأَكْثَرُ الْمُنْتَحِلِينَ

لِمِثْلِ هَـــذَا تَجِدُهُمْ مُوَسْوَسِينَ أَوْ مَجَانِينَ أَوْ مُلَبَّسِينَ يَطْلُبُونَ بِمِـــثْلِ هذِهِ الدَّعْوَةِ رِئَاسَةً امْتَلأَتْ بِهَا جَوَانِحُهُمْ وَعَجِزُوا عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَيْهَا بِشَيْءٍ مِنْ أَسْبَـــابِهَا الْعَادِيَّةِ فَيَحْسِبُونَ أَنَّ هَــــذَا مِنَ الأَسْبَابِ الْبَالِغَةِ بِهِمْ إِلَى مَا يُؤَمِّلُونَهُ مِنْ ذلِكَ وَلاَيَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ فِيـــهِ مِنَ الْهَلَكَةِ فَيُسْرِعِ إِلَيْـــهِمِ الْقَتْلُ بِمَا يُحْدِثُونَهُ مِنَ الْفِتْنَةِ وَتَسُوءُ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ وَقَدْ كَانَ لأَوَّلِ هذِهِ الْمِائَةِ خَرَجَ بِالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التُّوبَذْرِيَّ عَمَدَ إِلَى مَسْجِدِ مَاسَةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ تَلْبِيـــساً عَلَى الْعَامَّةِ هُنَالِكَ بِمَا مَلأَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحَدَثَانِ بِانْتِظَارِهِ هُنَالِكَ وَأَنَّ مِنْ ذلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ فَـــتَهَافَتَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَّةِ الْبَرْبَرِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ ثُمَّ خَشِيَ رُؤَسَاؤُهُمُ اتِّسَاعَ نِطَاقِ الْفِتْنَةِ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيـــرُ الْمَصَامِدَةِ يَوْمَئِذٍ عُمَرُ السَّكْسِيـوِيُّ مَنْ قَتَلَهُ فِي فِرَاشِهِ وَكَذلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارِهِ أَيْضاً لأَوَّلِ هَـــذِهِ الْمِائَةِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ وَادَّعَى مِثْلَ هذِهِ الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيـــقَهُ الأَرْذَلُونَ مِنْ سُفَهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ وَزَحَفَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عَنْوَةً . ثُمَّ قُتِلَ لأَرْبَعِينَ يَوْماً مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِ

وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الأَوَّلِينَ وَأَمْثَالُ ذلِكَ كَثِيرٌ وَالْغَلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ اعْتِبَارِ الْعَصَبِيَّةِ فِي مِثْلِهَا وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَأَحْرَى أَنْ لاَ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنْ يَبُوءَ بِإِثْمِهِ وَذلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ لاَرَبَّ غَيْرَهُ وَلاَ مَعْبُودَ سِوَاهُ .

الفصل السابع
في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

وَالسَّبَبُ فِي ذلِكَ أَنَّ عِصَابَةَ الدَّوْلَةِ وَقَوْمَهَا الْقَائِمِينَ بِهَا الْمُمَهِّدِينَ لَهَا لاَبُدَّ مِنْ تَوْزِيعِهِمْ حِصَصاً عَلَى الْمَمَالِكِ وَالثُّغُورِ الَّتِي تَصِيرُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَوْلُونَ عَلَيْهَا لِحِمَايَتِهَا مِنَ الْعَدُوِّ وَإِمْضَاءِ أَحْكَامِ الدَّوْلَةِ فِيهَا مِنْ جِبَايَةٍ وَرَدْعٍ وَغَيْرِ ذلِكَ فَإِذَا تَوَزَّعَتِ الْعَصَائِبُ كُلُّهَا عَلَى الثُّغُورِ وَالْمَمَالِكِ فَلاَبُدَّ مِنْ نَفَادِ عَدَدِهَا وَقَدْ بَلَغَتِ الْمَمَالِكُ حِينَئِذٍ إِلَى حَدٍّ يَكُونُ ثَغْراً لِلدَّوْلَةِ وَتَخْماً لِوَطَنِهَا وَنِطَاقاً لِمَرْكَزِ مُلْكِهَا فَإِنْ تَكَفَّلَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذلِكَ زِيَادَةً عَلَى مَا بِيَدِهَا بَقِيَ دُونَ

حَامِيَةٍ وكَانَ مَوْضِعاً لانْتِهَازَ الْفُرْصَةِ مِنَ الْعَدُوّ وَالْمُجَاوِرِ وَيَعُودُ وبَالُ ذلكَ علَى الدَّوْلَةِ بِمَا يكُونُ فِيـــه مِنَ التَّجَاسُرِ وَخَرْقِ سِيَاجِ الْهَيْبَةِ وَمَا كَانَتِ الْعِصَابَةُ مَوْفُورَةً وَلَمْ ينْفدْ عَدَدُهَا فِي تَوْزِيعِ الْحِصَصِ علَى الثُّغُورِ وَالنَّوَاحِي بقيَ فِي الـدَّوْلَـةِ قُوَّةٌ علَى تنَاوُلِ مَا وَرَاءَ الْغَايَةِ حتَّى ينْفَسِحَ نِطَاقُهَا إلَى غَايَتِهِ وَالْعِلَّةُ الطَّبِيـعِيَّةُ فِي ذلكَ هِيَ قُوَّةُ الْعَصَبِيَّةِ مِنْ سَائِرِ الْقُوَى الـطَّبِيـــعِيَّةِ وكُلُّ قُوَّةٍ يَصْدُرُ عَنْهَا فِعْلٌ مِنَ الأَفْعَالِ فَشَأْنُهَا ذلِكَ فِي فِعْلِهـــا والـدَّوْلَةُ فِي مَرْكَزِهَا أَشَدُّ مِمَّا يكُونُ فِي الطَّرَفِ وَالنِطَاقِ وَإِذَا انْتَهَتْ إِلَى النِطَاقِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ عَجِزَت وَأَقْصَرَتْ عَمَّا وَرَاءَهُ شَأْنَ الأَشِعَّةِ وَالأَنْوَارِ إِذَا انْبَعَثَتْ مِنَ الْمَرَاكِزِ وَالـدَّوَائِرِ الْمـنْفَسِحَةِ علَى سَطْحِ الْمَاءِ مِـنَ الـنَّقْرِ عليْهِ ثُمَّ إِذَا أَدْرَكَهَا الْهَرَمُ وَالـضُّعْفُ فَإِنَّمَا تَأْخُذُ فِي الـــــــتَّنَاقُصِ مِنْ جِهَةِ الأَطْرَافِ ولاَ يَزَالُ الْمَرْكَزُ مَحْفُوظاً إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ الـلـهُ بِانْقِرَاضِ الأَمْرِ جُمْلَةً فَحِيـنَئِذٍ يكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكَزِ وَإِذَا غُلِبَ علَى الـدَّوْلَةِ مِنْ مَرْكَزِهَا فَلاَ يَنْفَعُهَا بَقَاءُ الأَطْرَافِ وَالــنِّطَاقِ بَلْ تَضْمَحِلُّ لِوَقْتِهَا فَإِنَّ الْمَرْكَزَ كَــالْقَلْبِ الَّذِي تَنْبَعِثُ مِنْهُ الـرُّوحُ فَإِذَا

غُلِبَ علَى الْقلْبِ وَمُلِكَ انْهزَمَ جَمِيعُ الأَطْرَافِ وَانْظُرْ هـذاَ فِي الـدَّوْلَةِ الْفَارِسِيَّةِ كَانَ مَرْكـزُهاَ الْمدَائِنَ فلَمَّا غلَبَ الْمُسْلِمُون علَى الْمدَائِنِ انْقرَضَ أَمْرُ فَارِسَ أَجْمعَ ولَمْ ينْفعْ يزْدَجُردَ ماَ بقِيَ بِيدِهِ منْ أَطْرَافِ ممَالِكهِ وَبِالـعكْسِ منْ ذلِكَ الـدَّوْلَةُ الـرُّومِيَّةُ بِالـشَّامِ لمَّا كَانَ مَرْكَزُهاَ الْقُسْطنْطِينِـيَّةَ وَغلَبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِالـشَّامِ تَحيَّزُوا إِلَى مَرْكَزِهِمْ بِالْقُسْطنْطِينِيَّةِ ولَمْ يَضُرَّهُمُ انْتِزاَعُ الشَّامِ أَيْدِيهِمْ فلَمْ يزَلْ ملْكُهُمْ متَّصِلاً بِهاَ إِلَى أَنْ تأَذَّنَ الـلـهُ بِانْقِرَاضِهِ وَانْظُرْ أَيْضاً شأنَ الْعرَبِ أَوَّلَ الإِسْلاَمِ لمَّا كَانَتْ عصَائِبُهُمْ موْفُورَةً كيْفَ غلَبُوا علَى ماَ جاَورَهُمْ منَ الـشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِصْرَ لأَسْرَعِ وقْتٍ ثُمَّ تَجاَوزُوا ذلِكَ إِلَى ماَ وراَءهُ منَ الـسِّنْدِ وَالْحبَشَةِ وَأَفْرِيـقِيَّةَ والْمغْرِبِ ثُمَّ إِلَى الأَنْدَلُسِ فلَمَّا تفَرَّقُوا حِصَصاً علَى الْممَالِكِ وَالـثُّغُورِ ونَـزلُوهاَ حاَمِيَةً ونَفَدَ عدَدُهُمْ فِي تِلْكَ التَّوْزِيعاَتِ أَقْصرُوا عنِ الْفُتُوحاَتِ بعْدُ وَانْتهَى أَمْرُ الإِسْلاَمِ ولَمْ يتَجاَوزْ تِلْك الْحدُودَ ومِنْهاَ ترَاجعَتِ الـدَّوْلَةُ حتَّى تأَذَّنَ الـلـهُ بِانْقِراَضِهاَ وكَذَا كَانَ حاَلُ الـدُّوَلِ مِنْ بعْدِ ذلِكَ كُلُّ دوْلَةٍ علَى نِسْبَةِ الْقاَئِمِينَ بِهاَ فِي

الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ وَعِنْدَ نَفَادِ عَدَدِهِم بِالتَّوْزِيعِ يَنْقَطِعُ لَهُمُ الْفَتْحُ وَالاسْتِيلاَءُ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُلْكَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالْعَصَبِيَّةُ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عُصَبَاتٍ كَثِيـرَةٍ تَكُونُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا أَقْوَى مِنَ الأُخْرَى كُلِّهَا فَتَغْلِبُهَا وَتَسْـتَوْلِي عَلَيْهَا حَتَّى تُصَيِّرَهُمَا جَمِيـعًا فِي ضِمْنِهَا وَبِذَلِكَ يَكُونُ الاجْتِمَاعُ وَالْغَلَبُ عَلَى النَّاسِ وَالدُّوَلِ وَسِرُّهُ أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ الْعَامَّةَ لِلْقَبِيلِ هِيَ مِثْلُ الْمِزَاجِ لِلْمُتَكَوِّنِ وَالْمِزَاجُ إِنَّمَا يَكُونُ عَنِ الْعَنَاصِرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ أَنَّ الْعَنَاصِرَ إِذَا اجْتَمَعَتْ مُتَكَافِئَةً فَلاَ يَقَعُ مِنْهَا مِزَاجٌ أَصْلاً بَلْ لاَبُدَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةٌ مِنْهَا هِيَ الْغَالِبَةَ عَلَى الْكُلِّ حَتَّى تَجْمَعَهَا وَتُؤَلِّفَهَا وَتُصَيِّرَهَا عَصَبِيَّةً وَاحِدَةً شَامِلَةً لِجَمِيـعِ الْعَصَائِبِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي ضِمْنِهَا وَتِلْكَ الْعَصَبِيَّةُ الْكُبْرَى إِنَّمَا تَكُونُ لِقَوْمٍ أَهْلِ بَيْتٍ وَرِئَاسَةٍ فِيهِمْ وَلاَبُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ رَئِيسًا لَهُمْ غَالِبًا عَلَيْهِمْ فَيَتَعَيَّنُ رَئِيسًا لِلْعَصَبِيَّاتِ كُلِّهَا

لِغَلَبِ مِنْيتِهِ لِجَمِيـــعِهَا وَإِذَا تَعَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ فَمِنَ الطَّبِيـــعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ خُلُقُ الْكِبْرِ وَالأَنَفَةِ فَيَأْنَفُ حِينَئِذٍ مِـنَ الْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي اسْتِتْبَاعِهِمْ وَالـتَّحَكُّمِ فِيـــهِمْ وَيَجِيءُ خُلُقُ التَّأَلُّهِ الَّذِي فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ مَعَ مَا تَقْتَضِيــهِ السِّيَاسَةُ مِنِ انْفِرَادِ الْحَاكِمِ لِفَسَادِ الْكُلِّ بِاخْتِلاَفِ الْحُكَّامِ لَوْ كَانَ فِيـهِمَا إِلاَّ اللهَ لَفَسَدَتْ فَتُجْدَعُ حِينَئِذٍ أُنُوفُ الْعَصَـــبِيَّاتِ وَتُفْلَحُ شَكَائِمُهُمْ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَـى مُشَارَكَتِهِ فِي الـتَّحَكُّمِ وَتُقْرَعُ عَصَبِيَّتُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْفَرِدُ بِهِ مَا اسْتَطَاعَ حَتَّى لا يَتْرُكَ لأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي الأَمْرِ لاَ نَاقَةً وَلا جَمَلاً فَيَنْفَرِدُ بِذَلِكَ الْمَجْدُ بِكُلِّيَّتِهِ وَيَدْفَعُهُمْ عَنْ مُسَاهَمَتِهِ وَقَدْ يَتِمُّ ذَلِكَ لِلأَوَّلِ مِنْ مُلُوكِ الدَّوْلَةِ وَقَدْ لاَ يَتِمُّ إِلاَّ لِلثَّانِي وَالثَّالِثِ عَلَى قَدَرِ مُمَانَعَةِ الْعَصَبِيَّاتِ وَقُوَّتِهَـا إِلاَّ أَنَّهُ أَمْرٌ لاَبُدَّ مِنْهُ فِي الدُّوَلِ سُنَّةُ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي عشر
في أن من طبيعة الملك الترف

وَذَلِكَ أَنَّ الأُمَّةَ إِذَا تَغَلَّبَتْ وَمَلَكَتْ مَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْمُلْكِ قَبْلَهَا كَثُـــرَ رِيَاشُهَا وَنِعْمَتُهَا فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَيَتَجَاوَزُونَ

ضَرُورَاتِ الْعَيْشِ وَخُشُونَتَهُ إِلَى نَوَافِلِهِ وَرِقَّتِهِ وَزِينَتِهِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى اتِّبَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي عَوَائِدِهِم وَأَحْوَالِهِمْ وَتَصِيرُ لِتِلْكَ النَّوَافِلِ عَوَائِدُ ضَرُورِيَّةٌ فِي تَحْصِيلِهَا وَيَنْزِعُونَ مَعَ ذَلِكَ إِلَى رِقَّةِ الأَحْوَالِ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلاَبِسِ وَالْفُرُشِ وَالآنِيَةِ وَيَتَفَاخَرُونَ فِي ذَلِكَ وَيُفَاخِرُونَ فِيهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الأُمَمِ فِي أَكْلِ الطَّيِّبِ وَلُبْسِ الأَنِيقِ وَرُكُوبِ الْفَارِهِ وَيُنَاغِي خَلَفُهُمْ فِي ذَلِكَ سَلَفَهُمْ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ وَعَلَى قَدَرِ مُلْكِهِمْ يَكُونُ حَظُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ وَتَرَفُهُمْ فِيهِ إِلَى أَنْ يَبْلُغُوا مِنْ ذَلِكَ الْغَايَةَ الَّتِي لِلدَّوْلَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَهَا بِحَسَبِ قُوَّتِهَا وَعَوَائِدِ مَنْ قَبْلَهَا سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثاني عشر
في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون

وَذَلِكَ أَنَّ الأُمَّةَ لاَ يَحْصُلُ لَهَا الْمُلْكُ إِلاَّ بِالْمُطَالَبَةِ وَالْمُطَالَبَةُ غَايَتُهَا الْغَلَبُ وَالْمُلْكُ وَإِذَا حَصَلَتِ الْغَايَةُ انْقَضَى السَّعْيُ إِلَيْهَا (قال الشاعر) :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فَإِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ أَقْصَرُوا عَنِ الْمَتَاعِبِ الَّتِي كَانُوا يَتَكَلفُونَهَا فِي طَلَبِهِ وَآثَرُوا الرَّاحَةَ وَالسُّكُونَ وَالدَّعَةَ وَرَجَعُوا إِلَى تَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِنَ الْمَبَانِي وَالْمَسَاكِنِ وَالْمَلاَبِسِ فَيَبْنُونَ الْقُصُورَ وَيُجْرُونَ الْمِيَاهَ وَيَغْرِسُونَ الرِيَاضَ وَيَسْتَمْتِعُونَ بِأَحْوَالِ الدُّنْيَا وَيُؤْثِرُونَ الرَّاحَةَ عَلَى الْمَتَاعِبِ وَيَتَأَنَّقُونَ فِي أَحْوَالِ الْمَلاَبِسِ وَالْمَطَاعِمِ وَالآنِيَةِ وَالْفُرُشِ مَا اسْتَطَاعُوا وَيَأْلَفُونَ ذلك وَيُورِثُونَهُ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَجْيَالِهِم وَلاَ يَزَالُ ذلكَ يَتَزَايَدُ فِيهِمْ إِلَى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الثالث عشر
في أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ . الأَوَّلُ أَنَّهَا تَقْتَضِي الانْفِرَادَ بِالْمَجْدِ كَمَا قُلْنَاهُ وَمَهْمَا كَانَ الْمَجْدُ مُشْتَرِكاً بَيْنَ الْعِصَابَةِ وكَانَ سَعْيُهُمْ لَهُ وَاحِداً كَانَتْ هِمَمُهُمْ فِي التَّغَلُّبِ عَلَى الْغَيْرِ وَالذَّبِ عَنِ الْحَوْزَةِ أُسْوَةً فِي طُمُوحِهَا وَقُوَّةِ شَكَائِمِهَا

وَمَرْمَاهُمْ إِلَى الْعِـزِ جَمِيـعاً يَسْتَطِيـبُونَ الْمَوْتَ فِي بِنَاءِ مَجْدِهِمْ وَيُؤْثِرُونَ الْهَلَكَةَ عَلَى فَسَادِهِ وَإِذَا انْفَرَدَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِالْمَجْدِ قَرَعَ عَصَبِيَّتَهُمْ وَكَبَحَ مِنْ أَعِنَّتِهِمْ وَاسْتَأْثَرَ بِالأَمْوَالِ دُونَهُمْ فَتَكَاسَلُوا عَنِ الْغَزْوِ وَفَشِلَ رِيحُهُمْ وَرَئِمُوا الْمَذَلَّةَ وَالاسْتِعْبَاد ثُمَّ رُبِّيَ الْجِيـلُ الـثَّانِي مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَحْسِبُونَ مَا يَنَالُهُمْ مِنْ الْعَطَاءِ أَجْراً مِنَ السُّلْطَانِ لَهُمْ عَنِ الْحِمَايَةِ وَالْمَعُونَةِ لا يَجْرِي فِي عُقُولِهِم سِوَاهُ وَقَلَّ أَنْ يَسْتَأْجِرَ أَحَدٌ نَفْسَـهُ عَلَى الْمَوْتِ فَيَصِيـرُ ذَلِكَ وَهْنَاً فِي الدَّوْلَةِ وَخَضْدَاً مِنَ الشَّوْكَةِ وَتُقْبِلُ بِهِ عَلَى مَنَاحِي الضَّعْفِ وَالْهَرَمِ لِفَسَادِ الْعَصَبِيَّةِ بِذَهَابِ الْبَأْسِ مِنْ أَهْلِهَا . وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ طَبِيـعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي التَّرَفَ كَمَا قَدَّمْنَاهُ فَتَكْثُرُ عَوَائِدُهُمْ وَتَزِيـدُ نَفَقَاتُهُمْ عَلَى أَعْطِيَاتِهِمْ وَلاَ يَفِي دَخْلُهُمْ بِخَرْجِهِمْ فَالْفَقِيـرُ مِنْهُمْ يَهْلِكَ وَالْمُتْرَفُ يَسْتَغْرِقُ عَطَاءَهُ بِتَرَفِهِ ثُمَّ يَزْدَاد ذَلِكَ فِـي أَجْيَالِهِم الْمُتَأَخِّرَةِ إِلَى أَنْ يَقْصُرَ الْعَطَاءُ كُلُّهُ عَنِ التَّرَفِ وَعَوَائِدِهِ وَتَمَسُّهُمُ الْحَاجَةُ وَتُطَالِبَهُمْ مُلُوكُهُمْ بِحَصْرِ نَفَقَاتِهِـمْ فِي الْغَزْوِ وَالْحُرُوبِ فَلاَ يَجِدُونَ وَلِيجَةً عَنْهَا فَيُوقِعُونَ بِهِمِ الْعُقُوبَاتِ وَيَنْتَزِعُونَ مَا فِي أَيْدِي الْكَثِيـر مِنْهُمْ يَسْتَأْثِرُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ أَوْ يُؤْثِرُونَ بِهِ أَبْنَاءَهُمْ

وَصَنَائِعَ دَوْلَتِهِمْ فَيُضْعِفُونَهُمْ لِذلكَ عَنْ إِقَامَةِ أَحْوَالِهِمْ وَيَضْعُفُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ بِضَعْفِهِمْ وَأَيْضاً إِذَا كَثُرَ التَّرَفُ فِي الدَّوْلَةِ وَصَارَ عَطَاؤُهُمْ مُقَصِراً عَنْ حَاجَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمِ احْتَاجَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ الَّذِي هُوَ السُّلْطَانُ إِلَى الزِيَادَةِ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ حَتَّى يَسُدَّ خَلَلَهُمْ وَيُزِيحَ عِلَلَهُمْ وَالْجِبَايَةُ مِقْدَارُهَا مَعْلُومٌ وَلاَ تَزِيدُ وَلاَ تَنْقُصُ وَإِنْ زَادَتْ بِمَا يُسْتَحْدَثُ مِنَ الْمُكُوسِ فَيَصِيرُ مِقْدَارُهَا بَعْدَ الزِّيَادَةِ مَحْدُوداً فَإِذَا وُزِعَتِ الْجِبَايَةُ عَلَى الأَعْطِيَاتِ وَقَدْ حَدَثَتْ فِيهَا الزِيَادَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمَا حَدَثَ مِنْ تَرَفِهِمْ وَكَثْرَةِ نَفَقَاتِهِمْ نَقَصَ عَدَدُ الْحَامِيَةِ حِينَئِذٍ عَمَّا كَانَ قَبْلَ زِيَادَةِ الأَعْطِيَاتِ ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ وَتَكْثُرُ مَقَادِيرُ الأَعْطِيَاتِ لِذلِكَ فَيَنْقُصُ عَدَدُ الْحَامِيَةِ وَثَالِثاً وَرَابِعاً إِلَى أَنْ يَعُودَ الْعَسْكَرُ إِلَى أَقَلِ الأَعْدَادِ فَتَضْعُفُ الْحِمَايَةُ لِذلِكَ وَتَسْقُطُ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ وَيَتَجَاسَرُ عَلَيْهَا مَنْ يُجَاوِرُهَا مِنَ الدُّوَلِ أَوْ مَنْ هُوَ تَحْتَ يَدَيْهَا مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ وَيَأْذَنُ اللهُ فِيهَا بِالْفَنَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ وَأَيْضاً فَالتَّرَفُ مُفْسِدٌ لِلْخُلُقِ بِمَا يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ مِنْ أَلْوَانِ الشَّرِ وَالسَّفْسَفَةِ وَعَوَائِدِهَا كَمَا يَأْتِي فِي فَصْلِ الْحِضَارَةِ فَتَذْهَبُ مِنْهُمْ خِلاَلُ الْخَيْرِ الَّتِي كَانَتْ عَلاَمَةً

عَلَى المُلْكِ وَدَلِيلاً عَلَيْهِ وَيَتَّصِفُونَ بِمَا يُنَاقِضُهَا مِنْ خِلاَلِ الشَّرِ فَيَكُونُ عَلاَمَةً عَلَى الإِدْبَارِ وَالاِنْقِرَاضِ بِمَا جَعَلَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَلِيقَتِهِ وَتَأْخُذُ الدَّوْلَةُ مَبَادِىءَ الْعَطَبِ وَتَتَضَعْضَعُ أَحْوَالُهَا وَتَنْزِلُ بِهَا أَمْرَاضٌ مُزْمِنَةٌ مِنَ الْهَرَمِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهَا . اَلْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْمُلْكِ تَقْتَضِي الدَّعَةَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ وَإِذَا اتَّخَذُوا الدَّعَةَ وَالرَّاحَةَ مَأْلَفَاً وَخُلُقَاً صَارَ لَهُمْ ذَلِكَ طَبِيعَةً وَجِبِلَّةً شَأْنَ الْعَوَائِدِ كُلِّهَا وَإِيلاَفِهَا فَتَرْبَى أَجْيَالُهُمُ الْحَادِثَةُ فِي غَضَارَةِ الْعَيْشِ وَمِهَادِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ وَيَنْقَلِبُ خُلُقُ التَّوَحُّشِ وَيَنْسَوْنَ عَوَائِدَ الْبِدَاوَةِ الَّتِي كَانَ بِهَا الْمُلْكُ مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ الاِفْتِرَاسِ وَرُكُوبِ الْبَيْدَاءِ وَهِدَايَةِ الْقَفْرِ فَلاَ يُفَرَقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّوقَةِ مِنَ الْحَضَرِ إِلاَّ فِي الثَّقَافَةِ وَالشَّارَةِ فَتَضْعُفُ حِمَايَتُهُمْ وَيَذْهَبُ بَأْسُهُمْ وَتَنْخَضِدُ شَوْكَتُهُمْ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ بِمَا تَلْبَسُ مِنْ ثِيَابِ الْهَرَمِ ثُمَّ لاَ يَزَالُونَ يَتَلَوَّنُونَ بِعَوَائِدِ التَّرَفِ وَالْحِضَارَةِ وَالسُّكُونِ وَالدَّعَةِ وَرِقَّةِ الْحَاشِيَةِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ وَيَنْغَمِسُونَ فِيهَا وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَبْعُدُونَ عَنِ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ وَيَنْسَلِخُونَ عَنْهَا شَيْئَاً

فَشَيْئاً وَيَنْسَوْنَ خُلُقَ الْبَسَالَةِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا الْحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ حَتَّى يَعُودُوا عِيَالاً عَلَى حَامِيَةٍ أُخْرَى إِنْ كَانَتْ لَهُمْ وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الدُّوَلِ الَّتِي أَخْبَارُهَا فِي الصُّحُفِ لَدَيْكَ تَجِدْ مَا قُلْتُهُ لَكَ مِنْ ذَلِكَ صَحِيحاً مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ وَرُبَّمَا يَحْدُثُ فِي الدَّوْلَةِ إِذَا طَرَقَهَا هَذَا الْهَرَمُ بِالتَّرَفِ وَالرَّاحَةِ أَنْ يَتَخَيَّرَ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ أَنْصَاراً وَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ مِمَّنْ تَعَوَّدَ الْخُشُونَةَ فَيَتَّخِذُهُمْ جُنْداً يَكُونُ أَصْبَرَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَقْدَرَ عَلَى مُعَانَاةِ الشَّدَائِدِ مِنَ الْجُوعِ وَالشَّظَفِ وَيَكُونُ ذَلِكَ دَوَاءً لِلدَّوْلَةِ مِنَ الْهَرَمِ الَّذِي عَسَاهُ أَنْ يَطْرُقَهَا حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ فِيهَا بِأَمْرِهِ وَهَذَا كَمَا وَقَعَ فِي دَوْلَةِ التُّرْكِ بِالْمَشْرِقِ فَإِنَّ غَالِبَ جُنْدِهَا الْمَوَالِي مِنَ التُّرْكِ فَتَتَخَيَّرُ مُلُوكُهُمْ مِنْ أُولَئِكَ الْمَمَالِيكِ الْمَجْلُوبِينَ إِلَيْهِمْ فُرْسَاناً وَجُنْداً فَيَكُونُونَ أَجْرَأَ عَلَى الْحَرْبِ وَأَصْبَرَ عَلَى الشَّظَفِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُمْ وَرَبُوا فِي مَاءِ النَّعِيمِ وَالسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةَ فَإِنَّ صَاحِبَهَا كَثِيراً مَا يَتَّخِذُ أَجْنَادَهُ مِنْ زَنَاتَةَ وَالْعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ وَيَتْرُكُ أَهْلَ الدَّوْلَةِ الْمُتَعَوِّدِينَ لِلتَّرَفِ

فَتَسْتَجِدُّ الــدَّوْلَةَ بِذلِكَ عُمْراً آخَرَ سَالِماً مِنَ الْهَرَمِ وَالــلــهُ وَارِثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهاَ .

الفصل الرابع عشر
في أن الدولة لها اعمار طبيعية كما للأشخاص

إِعْلَمْ أَنَّ الْعُمْرَ الــطَّبِيعِــيَّ لِلأَشْخَاصِ عَلَى مَا زَعَمَ الأَطِبَّاءُ وَالْمُنَجِّمُونَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً وَهِيَ سِنُو الْقَمَرِ الْكُبْرَى عِنْدَ الْمُنَجِّمِينَ وَيَخْتَلِفُ الْعُمْرُ فِي كُلِّ جِيــلٍ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ فَيَزِيدُ عَنْ هذَا وَيَنْقُصُ مِنْهُ فَتَكُونُ أَعْمَارُ بَعْضِ أَهْلِ الْقِرَانَاتِ مِائَةً تَامَّةً وَبَعْضِهِمْ خَمْسِينَ أَوْ ثَمَانِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَلَى مَا تَقْتَضِيــهِ أَدِلَّةُ الْقِرَانَاتِ عِنْدَ النَّاظِرِينَ فِيــهَا وَأَعْمَارُ هذِهِ الْمِلَّةِ مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ وَلاَ يَزِيدُ عَلَى الْعُمْرِ الطَّبِيعِي الَّذِي هُوَ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ إِلاَّ فِي الصُّوَرِ النَّادِرَةِ وَعَلَى الأَوْضَاعِ الْغَرِيبَةِ مِنَ الْفَلَكِ كَمَا وَقَعَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَقَلِيلٍ مِنْ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُــودَ وَأَمَّا أَعْمَارُ الدُّوَلِ أَيْضاً وَإِنْ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْقِرَانَاتِ إِلاَّ أَنَّ الــدَّوْلَةَ فِي الْغَالِبِ لاَتَعْدُو أَعْمَارَ ثَلاَثَةِ أَجْيَالٍ وَالْجِيلُ هُوَ عُمْرُ شَخْصٍ وَاحِــدٍ مِنَ الْعُمْرِ

الوَسَطِ فيَكُونُ أَرْبَعِينَ الَّذِي هُوَ انْتِهاءُ النُّمُوِّ وَالنُّشُوءِ إِلَى غَايَتِهِ قالَ تَعَالَى حتَّى إِذا بلَغَ أَشُدَّهُ وبلَغ أَرْبَعِينَ سنَةً ولِهذَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ هُوَ عُمْرُ الْجِيلِ ويُؤَيِّدهُ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي حِكْمَةِ التِّيهِ الَّذِي وقَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وأَنَّ الْمَقْصُودَ بالأَرْبَعِينَ فِيهِ فنَاءُ الْجِيلِ الأَحْيَاءِ ونَشْأَةُ جِيلٍ آخَرَ لَمْ يَعْهَدُوا الذُّلَّ ولاَ عرَفُوهُ فدَلَّ علَى اعْتِبَارِ الأَرْبَعِينَ فِي عُمْرِ الْجِيلِ الَّذِي هُوَ عُمْرُ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ وإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ عُمْرَ الدَّوْلَةِ لاَ يَعْدُو فِي الْغَالِبِ ثَلاَثَةَ أَجْيَالٍ لأَنَّ الْجِيلَ الأَوَّلَ لَمْ يَزَالُوا علَى خُلُقِ الْبدَاوةِ وَخُشُونَتِهَا وَتَوَحُّشِهَا مِنْ شَظَفِ الْعَيْشِ وَالْبَسَالَةِ وَالافْتِرَاسِ وَالاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ فَلاَ تَزَالُ بِذلِكَ سَوْرَةُ الْعَصَبِيَّةِ مَحْفُوظَةً فِيهِمْ فَحَدُّهُمْ مُرْهَفٌ وَجَانِبُهُمْ مَرْهُوبٌ وَالنَّاسُ لَهُمْ مَغْلُوبُونَ وَالْجِيلُ الثَّانِي تَحَوَّلَ حَالُهُمْ بِالْمُلْكِ وَالتَّرَفُّهِ مِنَ الْبدَاوَةِ إِلَى الْحِضَارَةِ وَمِنَ الشَّظَفِ إِلَى التَّرَفِ وَالْخِصْبِ وَمِنَ الاشْتِرَاكِ فِي الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ وَكَسَلِ الْبَاقِينَ عَنِ السَّعْيِ فِيهِ وَمِنْ عِزِّ الاسْتِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الاسْتِكَانَةِ فَتَنْكَسِرُ سَوْرَةُ الْعَصَبِيَّةِ بَعْضَ الشَّيْءِ وَتُؤْنَسُ مِنْهُمُ الْمَهَانَةُ وَالْخُضُوعُ وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ ذلِكَ بِمَا أَدْرَكُوا

الْجِيلَ الأَوَّلَ وبَاشَرُوا أَحْوالَهُمْ وَشَاهَدُوا اعــــتزَازَهُمْ وَسَعْيَهُمْ إِلَى الْمَجَدِ ومَرَامِيــهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحَمَايَةِ فَلاَ يَسَعُهُمْ تَرْكُ ذلك بِالْكُلِّيَّةِ وإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَا ذَهَبَ ويَكُونُونَ عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مُرَاجَعَةِ الأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلْجِيل الأَوَّلِ أَوْ عَلَى ظَنٍ مِنْ وُجُودِهَا فِيــهِمْ وأَمَّا الْجِيلُ الثَّالِثُ فَيَنْسَوْنَ عَهْدَ الْبِدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ وَيَفْقِدُونَ حَلاوَةَ الْعِــزِّ وَالْعَصَبِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِن مَلَكَةِ الْقَهْرِ وَيَبْلُغُ فِيهِمِ التَّرَفُ غَايَتَهُ بِمَا تَبَنَّقُوهُ مِنَ النَّعِيمِ وَغَضَارَةِ الْعَيْشِ فَيَصِيــرُونَ عِيَالاً عَلَى الدَّوْلَةِ وَمِنْ جُمْلَةِ النِســاءِ وَالْوِلْدَانِ الْمُحْتَاجِينَ لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ وَتَسْقُطُ الْعَصَبِيَّةُ بِالْجُمْلَةِ وَيَنْسَوْنَ الْحِمَايَةَ وَالْمُطَالَبَةَ وَيَلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارَةِ وَالزِّيِّ وَرُكُوبِ الْخَيْلِ وَحُسْنِ الثِقَافَةِ يُمَــوِهُونَ بِهَا وَهُمْ فِــي الأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ النِسْوَانِ عَلَى ظُهُورِهَا فَإِذَا جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يُقَاوِمُوا مُدَافَعَتَهُ فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ الــدَّوْلَةِ حِيــنَئِذٍ إِلَى الاسْتِظْهَارِ بِسِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الــنَّجْدَةِ وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِي وَيَصْطَنِعُ مَنْ يُغْنِي عَنِ الــدَّوْلَةِ بَعْضَ الْغِنَاءِ حَتَّى يَتَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِــهَا فَتَذْهَبَ الدَّوْلَةُ بِمَا حَمَلَتْ فَهَذِهِ كَمَا تَرَاهُ ثَلاَثَةُ أَجْيَالٍ فِيــهَا يَكُونُ هَرَمُ الدَّوْلَةِ وَتَخَلُّفُهَا وَلِهَــذَا كَانَ

انْقِرَاضُ الْحَسَبِ فِي الجِيْلِ الرَّابِع كَمَا مَرَّ فِي أَنَّ الْمَجْدَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ أَرْبعةُ آبَاءٍ وقَدْ أَتيْنَاكَ فِيهِ بِبُرْهَانٍ طَبِيعِي كافٍ ظَاهِرٍ مبْنِي علَى ما مَهَّدْنَاهُ قبْلُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ فتَأَمَّلْهُ فلَنْ تَعْدُوَ وَجْهَ الْحَقِ إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الإنْصافِ وَهـذِهِ الأجْيَالُ الثَّلاثَةُ عُمْرُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سنَةً علَى مَا مَرَّ ولاَ تَعْدُو الدُّوَلُ فِي الْغَالِبِ هـذَا الْعُمْرَ بِتَقْرِيبٍ قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ إِلاَّ إِنْ عرَضَ لهَا عَارِضٌ آخَرُ مِنْ فِقْدَانِ الْمَطَالِبِ فَيَكُونُ الْهَرَمُ حَاصِلاً مُسْتَوْلِياً وَالطَّالِبُ لَمْ يَحْضُرْهَا ولَوْ قَدْ جَاءَ الطَّالِبُ لَمَا وَجَدَ مُدَافِعاً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ فهَذَا الْعُمْرُ لِلدَّوْلَةِ بِمَثَابَةِ عُمْرِ الشَّخْصِ مِنْ التَّزَيُّدِ إِلَى سِنِّ الْوُقُوفِ ثُمَّ إِلَى سِنِ الرُّجُوعِ ولِهذَا يَجْرِي علَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ فِي الْمَشْهُورِ أَنَّ عُمْرَ الدَّوْلَةِ مِائَةُ سنَةٍ وَهـذَا مَعْنَاهُ فَاعْتَبِرْهُ واتَّخِذْ مِنْهُ قَانُوناً يُصَحِحُ لَكَ عدَدَ الآبَاءِ فِي عَمُودِ النَّسَبِ الَّذِي تُرِيدُهُ مِنْ قِبَلِ مَعْرِفَةِ السِنِينَ الْمَاضِيَةِ إِذا كُنْتَ قَد اسْتَرَبْتَ فِي عَدَدِهِمْ وكَانَتِ السِّنُونَ الْمَاضِيَةُ مُنْذُ أَوَّلِهِمْ مُحَصَّلَةً لَدَيْكَ فَعُدَّ لِكُلِ مِائَةٍ مِنَ السِنِينَ ثَلاثَةً مِنَ الآبَاءِ فَإِنْ نَفِدَتْ علَى هذا الْقِياسِ مَعَ نُفُودِ عدَدِهِمْ فَهُوَ صَحِيحٌ وإِنْ نَقَصَتْ عَنْهُ بِجِيلٍ فَقَدْ غَلِطَ عَدَدُهُمْ بِزِيَادَةِ واحِدٍ فِي عَمُودِ النَّسَبِ وإِنْ

زَادَتْ بِمِثْله فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ وكَـذلكَ تَأْخُذُ عَدَدَ السِـنِينَ مِنْ عَدَدِهِـمْ إِذَا كَانَ مُحَصَّلاً لَدَيْكَ فَتَـأَمَّلْهُ تَجِدْهُ فـي الْغَالِبِ صَحِيحاً وَاللهُ يُقَدِرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

الفصل الخامس عشر
في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

إعْلَمْ أَنَّ هذه الأَطْوَارَ طَبِيـعِيَّةٌ لِلْدُوَلِ فَإِنَّ الْغَلَبَ الّذِي يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ بِـالْعَصَبِـيَّةِ وبِمَا يَتْبَعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَأْسِ وَتَعَوُّدِ الافـتِرَاسِ ولاَ يَكُونُ ذلكَ غـالباً إلاَّ مَعَ الْبِدَاوَةِ فَطَوْرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبِعهُ الرَّفَهُ وَاتِسَـاعُ الأَحْوَالِ وَالْحِضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفَنُّنٌ فِي الـتَّرَفِ وَإِحْكَامِ الـصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وُجُـوهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلاَبِسِ وَالْمَبَانِي وَالْفُرُشِ وَالأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ فَلِكُلِ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعُ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالـتَّأَنُّقِ فِيـهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضاً وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلاَفِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ الـنُّفُوسُ مِنَ الـشَّهَوَاتِ وَالْمَلاَذِ وَالتَّنَعُّمِ بِأَحـوَالِ الـتَّرَفِ وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ فَصَارَ طَوْرُ الْحِضَارَةِ فـي الْمُلْكِ يَتْبَعُ طَوْرَ الْبِدَاوَةِ ضَرُورَةً لِضَرُورَةِ تَبَعِيَّةِ الـرَّفَهِ لِلْمُلْكِ وَأَهْلُ الـدُّوَلِ أَبَداً يُقَلِدُونَ فِي

طَوْرِ الْحِضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ وَمِثْلُ هَـــــذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكُوا فَارِسَ وَالرُّومَ وَاسْتَخْدَمُـــوا بَنَاتِهِمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَلَمْ يَكُونُوا لِذَلِكَ الْعَهْدِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحِضَارَةِ فَقَدْ حُكِيَ أَنَّهُ قُدِّمَ لَهُمُ الْمُرَقَّقُ فَكَانُوا يَحْسِبُونَهُ رِقَاعاً وَعَثَرُوا عَلَى الْكَافُورِ فِي خَزَائِنِ كِسْرَى فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي عَجِينِهِمِ مِلْحاً وَمِثَالُ ذَلِكَ كَثِيـــرٌ فَلَمَّا اسْتَعْبَدُوا أَهْلَ الـــدُّوَلِ قَبْلَهُمْ وَاسْتَعْمَلُوهُمْ فِي مِهَنِهِمْ وَحَاجَاتِ مَنَازِلِهِـــمْ وَاخْتَارُوا مِنْهُمُ الْمَهَرَةَ فِي أَمْثَالِ ذَلِكَ وَالْقَوَمَةَ عَلَيْهِمْ أَفَادُوهُمْ عِلاَجَ ذَلِكَ وَالْقِيَامَ عَلَى عَمَلِهِ وَالتَّفَنُّنِ فِيـــــهِ مَعَ مَاحَصَلَ لَهُمْ مِنِ اتِّسَاعِ الْعَيْشِ وَالتَّفَنُّنِ فِي أَحْوَالِهِ فَبَلَغُوا الْغَايَةَ فِـــي ذَلِكَ وَتَطَوَّرُوا بِطَـــوْرِ الْحِضَارَةِ وَالـــتَّرَفِ فِي الأَحْـــــــوَالِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلاَبِسِ وَالْمَبَانِـــي وَالأَســــلِحَةِ وَالْفُرُشِ وَالآنِيَةِ وَسَائِرِ الْمَاعُونِ وَالْخُرْثِي وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي أَيَّامِ الْمُبَاهَاةِ وَالْوَلاَئِمِ وَلَيَالِي الأَعْرَاسِ فَأَتَوا مِنْ ذَلِكَ وَرَاءَ الْغَايَةِ وَانْظُرْ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ وَالطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا فِي أَعْرَاسِ الْمَأْمُونِ بِبُورَانَ بِنْتِ الْحَسَنِ بْنِ سَهَـــــلٍ وَمَا بَذَلَ أَبُوهَا لِحَاشِيَةِ الْمَأْمُونِ

حِينَ وَأفَاهُ فِـي خِطْبَتِهَا إِلى دَارِهِ بِفَمِ الـصُّلْحِ وَرَكِبَ إِلَيْهَا فِي السُّفِينَ وَمَا أَنْفَقَ فِي أَمْلاكِهَا وَمَا نَحلَهَا الْمأْمُونُ وَأَنْفَقَ فِي عِرْسِهَا تَقِفُ مِنْ ذلِكَ عَلَى الْعَجَبِ فَمِنْهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ نَثَرَ يَوْمَ الأَمْلاَكِ فِي الـصَّنِيـعِ الَّذِي حَضَرَهُ حَاشِيَةُ الْمأْمُونِ فَنَثَرَ عَلَى الـطَّبَقَةِ الأُوْلَى مِنْهُمْ بَنَادِقَ الْمِسْكِ مَلْثُوثَةً عَلَى الرِّقَاعِ بِالضِّيَاعِ وَالْعَقَارِ مُسَوِّغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ الاتِفَاقُ وَالْبَـخْتُ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بِدَرِ الدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بِدْرَةٍ عَشْرَةُ آلاَفٍ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بِدَرَ الدَّرَاهِمِ كَـذلِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَى مَقَامَةِ الْمأْمُونِ بِدَارِهِ اضْعَافَ ذلِكَ وَمِنْهُ أَنَّ الْمأْمُونَ أَعْطَاهَا فِي مَهْرِهَا لَيْلَةَ زِفَافِهَا أَلْفَ حَصَاةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ وَأَوْقَدَ شُمُوعَ الْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِائَةَ مَنٍ وَهُوَ رِطْلٌ وَثُلْثَانِ(١) وَبَسَطَ لَهَا فُرُشاً كَانَ الْحَصِيـرُ مِنْهَا مَنْسُوجاً بِالـذَّهَبِ مُكَلَّلاً بِالدُّرِ وَالْيَاقُوتِ وَقَالَ الْمـأْمُونُ حِينَ رَآهُ قَاتَلَ اللهُ أَبَا نُوَاسٍ كَأَنَّهُ أَبصـرَ هـذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْخَمْرِ :

(١) قوله وثلثان الذى كتب فى اللغة إن المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد فى النسخة التونسية ثلثان .

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا

حَصْبَاءُ دُرٍ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبْخِ مِنَ الْحَطَبِ لِلَيْلَةِ الوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةٍ وأرْبَعِينَ بَغْلاً مُدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ فِي كل يَوْمٍ وَفَنِي الْحَطَبُ لِلَيْلَتَيْنِ وَأَوقَدُوا الْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ وَأَوْعَزَ إِلَى النَّوَاتِيَةِ بِإِحْضَارِ السُّفُنِ لإِجَازَةِ الْخَوَاصِ مِنَ النَّاسِ بِدِجْلَةَ مِنَ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ الْمَلِكِ بِمَدِينَةِ الْمَأْمُونِ لِحُضُورِ الْوَلِيمَةِ فَكَانَتِ الْحَرَّاقَاتُ[1] الْمُعَدَّةُ لِذَلِكَ ثَلاَثِينَ أَلْفَاً أَجَازُوا النَّاسَ فِيهَا أُخْرَيَاتِ نَهَارِهِمْ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ وَكَذَلِكَ عُرْسُ الْمَأْمُونِ بْنِ ذِي النُونِ بِطُلَيْطِلَةَ نَقَلَهُ ابْنُ سَامٍ فِي كِتَابِ الذَّخِيرَةِ وَابْنُ حَيَّانَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا كُلُّهُمْ فِي الطَّوْرِ الأَوَّلِ مِنَ الْبِدَاوَةِ عَاجِزِينَ عَنْ ذَلك جُمْلَةً لِفِقْدَانِ أَسْبَابِهِ وَالْقَائِمِينَ عَلَى صَنَائِعِهِ فِي غَضَاضَتِهِمْ وَسَذَاجَتِهِمْ يُذْكَرُ أَنَّ الْحَجَّاجَ أَوْ لَمَ فِي اخْتِتَانِ بَعْضِ وُلْدِهِ فَاسْتَحْضَرَ بَعْضَ الدَّهَاقِينِ يَسْأَلُهُ عَنْ وَلاَئِمِ الْفُرْسِ وَقَالَ أَخْبِرْنِي بِأَعْظَمِ صَنِيعٍ شَهِدْتَهُ فَقَالَ لَهُ نَعَمْ أَيُّهَا الأَمِيرُ شَهِدْتُ بَعْضَ

(1) الحرافات بالفتح جمع حرافة سفينة فيها مرامى نار يرمى بها العدو أهـ مختار.

مَرَازِبَةِ كِسْرَى وَقَدْ صَنَعَ لأَهْلِ فَارِسَ صَنِيعاً أَحْضَرَ فِيهِ صِحَافَ الذَّهَبِ عَلَى أَخْوِنَةِ الْفِضَّةِ أَرْبَعاً عَلَى كُلِ وَاحِدٍ وَتَحْمِلُهُ أَرْبَعُ وَصَائِفَ وَيَجْلِسُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ مِنَ النَّاسِ فَإِذَا طَعِمُوا أُتْبِعُوا أَرْبَعَتُهُمُ الْمَائِدَةَ بِصِحَافِهَا وَوُصَفَائِهَا فَقَالَ الْحَجَّاجُ يَا غُلَامُ انْحَرِ الْجُزُرَ وَأَطْعِمِ النَّاسَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لاَ يَسْتَقِلُّ بِهَذِهِ الأُبَّهَةِ وَكَذَلِك كَانَتْ . وَمِن هذَا الْبَابِ أَعْطِيَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَوَائِزُهُمْ فَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهَا الإِبِلَ أَخْذاً بِمَذَاهِبِ الْعَرَبِ وَبِدَاوَتِهِمْ ثُمَّ كَانَتِ الْجَوَائِزُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْعُبَيْدِيِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَحْمَالِ الْمَالِ وَتُخُوتِ الثِيَابِ وَإِعْدَادِ الْخَيْلِ بِمَرَاكِبِهَا وَهكَذَا كَانَ شَأْنُ كُتَامَةَ مَعَ الأَغَالِبَةِ بِأَفْرِيقِيَّةَ وَكَذَا بَنِي طَفْجٍ بِمِصْرَ وَشَأْنُ لِمتُونَةَ مَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالأَنْدَلُسِ وَالْمُوَحِدِينَ كَذَلِكَ وَشَأْنُ زَنَاتَةَ مَعَ الْمُوَحِدِينَ وَهَلُمَّ جرًّا تَنْتَقِلُ الْحِضَارَةُ مِنَ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ إِلَى الدُّوَلِ الْخَالِفَةِ فَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ الفُرْسِ لِلْعَرَبِ بَي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ إِلَى مُلُوكِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْمُوَحِدِينَ وَزَنَاتَةَ لِهَذَا الْعَهْدِ وَانْتَقَلَتْ حِضَارَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ إِلَى الدَّيْلَمِ ثُمَّ إِلَى التُّرْكِ ثُمَّ إِلَى السَّلْجُوقِيَّةِ ثُمَّ إِلَى التُرْكِ الْمَمَالِيكِ بِمِصْرَ وَالتَّتَرِ

بِالْعِرَاقَيْنِ وَعَلَى قَدَرِ عِظَمِ الـــدَّوْلَةِ يَكُونُ شَأْنُهَا فِـــي الْحِضَارَةِ إِذْ أُمُورُ الْحِضَارَةِ مِنْ تَوَابِعِ التَّرَفِ وَالتَّرَفُ مِنْ تَوَابِعِ الثَّرْوَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالثَّرْوَةُ وَالنِّعْمَةُ مِنْ تَوَابِعِ الْمُلْكِ وَمِقْدَارِ مَا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ أَهْلُ الـــدَّوْلَةِ فَعَلَى نِسْبَةِ الْمُلْكِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ فَاعْتَبِرْهُ وَتَفَهَّمْهُ وَتَأَمَّلْهُ تَجِدْهُ صَحِيحًا فِي الْعُمْرَانِ وَاللهُ وَارِثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ.

الفصل السادس عشر

فى أن الترف يزيد الدولة فى أولها قوة إلى قوتها

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيـــلَ إِذَا حَصَلَ لَهُمُ الْمُلْكُ وَالتَّرَفُ كَثُرَ التَّنَاسُلُ وَالْوُلْدُ وَالْعُمُومِيَّةَ فَكَثُرَتِ الْعِصَابَةُ وَاسْتَكْثَرُوا أَيْضاً مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَرَبِيَتْ أَجْيَالُهُمْ فِي جَوِ ذَلِكَ النَّعِيمِ وَالرَّفَهِ فَازْدَادُوا بِهِ عَدَداً إِلَى عَدَدِهِمْ وَقُوَّةً إِلَى قُوَّتِهِمْ بِسَبَبِ كَثْرَةِ الْعَصَائِبِ حِينَئِذٍ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الْجِيـلُ الأَوَّلُ وَالثَّانِي وَأَخَلَتِ الدَّوْلَةُ فِي الْهَرَمِ لَمْ تَسْتَقِلَّ أُولَئِكَ الصَّنَائِعُ وَالْمَوَالِي بِأَنْفُسِهِمْ فِي تَأْسِيسِ الدَّوْلَةِ وَتَمْهِيــدِ مُلْكِهَا لأَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ إِنَّمَا كَانُوا عِيَالاً عَلَى أَهْلِهَا وَمَعُونَةً لَهَـــا فَإِذَا ذَهَبَ الأَصْلُ لَمْ

يَسْتَقِلُّ الْفَرْعُ بِالرُّسُوخِ فَيَذْهَبُ وَيَتَلاَشَى وَلاَ تَبْقَى الدَّوْلَةُ عَلَى حَالِهَا مِنَ الْقُوَّةِ وَاعْتَبِرْ هذَا بِمَا وَقَعَ فِي الدَّوْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الإِسْلاَمِ كَانَ عَدَدُ الْعَرَبِ كَمَا قُلْنَا لِعَهْدِ النُّبُوَّةِ وَالْخِلاَفَةِ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفاً وَمَا يُقَارِبُهَا مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ وَلَمَّا بَلَغَ التَّرَفُ مَبَالِغَهُ فِي الدَّوْلَةِ وَتَوَفَّرَ نُمُوُّهُمْ بِتَوَفُّرِ النِّعْمَةِ وَاسْتَكْثَرَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ بَلَغَ ذلِكَ الْعَدَدُ إِلَى أَضْعَافِهِ يُقَالُ إِنَّ الْمُعْتَصِمَ نَازَلَ عَمُّورِيَّةَ لَمَّا افْتَتَحَهَا فِي تِسْعِمَائَةِ أَلْفٍ وَلاَ يَبْعُدُ مِثْلُ هذَا الْعَدَدِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحاً إِذَا اعْتَبَرْتَ حَامِيَتَهُمْ فِي الثُّغُورِ الدَّانِيَةِ وَالْقَاصِيَةِ شَرْقاً وَغَرْباً إِلَى الْجُنْدِ الْحَامِلِينَ سَرِيرَ الْمُلْكِ وَالْمَوَالِي وَالْمُصْطَنِعِينَ وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ أَحْصَى بَنُو الْعَبَّاسِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ خَاصَّةً أَيَّامَ الْمَأْمُونِ لِلإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ فَكَانُوا ثَلاَثِينَ أَلْفاً بَيْنَ ذُكْرَانٍ وَإِنَاثٍ فَانْظُرْ مَبَالِغَ هذَا الْعَدَدِ لأَقَلَّ مِنْ مِائَتَي سَنَةٍ وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَهُ الرَّفَهُ وَالنَّعِيمُ الَّذِي حَصَلَ لِلدَّوْلَةِ وَرَبِيَ فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلاَّ فَعَدَدُ الْعَرَبِ لأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هذَا وَلاَ قَرِيباً مِنْهُ وَاللهُ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ .

الفصل السابع عشر

فى أطوار الدولة واختلاف أحوالها

وخلق أهلها باختلاف الأطوار

إِعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ تَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَالاَتٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَيَكْتَسِبُ الْقَائِمُونَ بِهاَ فِي كُلِّ طَوْرٍ خُلُقاً مِنْ أَحْوَالِ ذلِكَ الطَّوْرِ لاَ يَكُونُ مِثْلُهُ فِي الطَّوْرِ الآخَرِ لأَنَّ الْخُلُقَ تَابِعٌ بِالطَّبْعِ لِمِزَاجِ الْحَالِ الَّذِي هُوَ فِيهِ وَحَالاَتُ الدَّوْلَةِ وَأَطْوَارُهاَ لاَ تَعْدُو فِي الْغَالِبِ خَمْسَةَ أَطْوَارٍ . اَلطَّوْرُ الأَوَّلُ طَوْرُ الظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ وَغَلَبِ الْمُدَافِعِ وَالْمُمَانِعِ وَالاسْتِيلاَءِ عَلَى الْمُلْكِ وَانْتِزَاعِهِ مِنْ أَيْدِي الدَّوْلَةِ فِي هذَا الطَّوْرِ أُسْوَةَ قَوْمِهِ فِي اكْتِسَابِ الْمَجْدِ وَجِبَايَةِ الْمَالِ وَالْمُدَافَعَةِ عَنِ الْحَوْزَةِ وَالْحِمَايَةِ لاَ يَنْفَرِدُ دُونَهُمْ بِشَيْءٍ لأَنَّ ذلِكَ هُوَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي وَقَعَ بِهاَ الْغَلَبُ وَهِي لَمْ تَزَلْ بَعْدُ بِحَالِهاَ . اَلطَّوْرُ الثَّانِي طَوْرُ الاسْتِبْدَادِ عَلَى قَوْمِهِ وَالانْفِرَادِ دُونَهُمْ بِالْمُلْكِ وَكَبْحِهِمْ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْمُسَاهَمَةِ وَالْمُشَارَكَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هذا الطَّوْرِ مَعْنِيّاً بِاصْطِنَاعِ الرِجَالِ وَاتِّخَاذِ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ وَالاسْتِكْثَارِ

مِنْ ذَلِكَ لِجَدْعِ أُنُوفِ أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ الْمُقَاسِمِينَ لَهُ فِي نِسْبَةِ الضَّارِبِينَ فِي الْمُلْكِ بِمِثْلِ مَهْمِهِ فَهُوَ يُدَافِعُهُمْ عَنِ الأَمْرِ وَيَصُدُّهُمْ عَنْ مَوَارِدِهِ وَيَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنْ يُخْلِصُوا إِلَيْهِ حَتَّى يَقِرَّ الأَمْرَ فِي نِصَابِهِ وَيُفْرِدَ أَهْلَ بَيْتِهِ بِمَا يَبْنِي مِنْ مَجْدِهِ فَيُعَانِي مِنْ مُدَافَعَتِهِمْ وَمُغَالَبَتِهِمْ مِثْلَ مَا عَانَاهُ الأَوَّلُونَ فِي طَلَبِ الأَمْرِ أَوْ أَشَدَّ لأَنَّ الأَوَّلِينَ دَافَعُوا الأَجَانِبَ فَكَانَ ظُهَرَاؤُهُمْ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ أَهْلَ الْعَصَبِيَّةِ بِأَجْمَعِهِمْ وَهَذَا يُدَافِعُ الأَقَارِبَ لاَ يُظَاهِرُهُ عَلَى مُدَافَعَتِهِمْ إِلاَّ الأَقَلُّ مِنَ الأَبَاعِدِ فَيَرْكَبُ صَعْبًا مِنَ الأَمْرِ . اَلطَّوْرُ الثَّالِثُ طَوْرُ الْفَرَاغِ وَالدَّعَةِ لِتَحْصِيلِ ثَمَرَاتِ الْمُلْكِ مِمَّا تَنْزِعُ طِبَاعُ الْبَشَرِ إِلَيْهِ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَالِ وَتَخْلِيدِ الآثَارِ وَبُعْدِ الصِّيتِ فَيَسْتَفْرِغُ وُسْعَهُ فِي الْجِبَايَةِ وَضَبْطِ الدَّخْلِ وَالْخَرْجِ وَإِحْصَاءِ النَّفَقَاتِ وَالْقَصْدِ فِيهَا وَتَشْيِيدِ الْمَبَانِي الْحَافِلَةِ وَالْمَصَانِعِ الْعَظِيمَةِ وَالأَمْصَارِ الْمُتَّسِعَةِ وَالْهَيَاكِلِ الْمُرْتَفِعَةِ وَإِجَازَةِ الْوُفُودِ مِنْ أَشْرَافِ الأُمَمِ وَوُجُوهِ الْقَبَائِلِ وَبَثِّ الْمَعْرُوفِ فِي أَهْلِهِ هَذَا مَعَ التَّوْسِعَةِ عَلَى صَنَائِعِهِ وَحَاشِيَتِهِ فِي أَحْوَالِهِمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ وَاعْتِرَاضِ جُنُودِهِ وَإِدْرَارِ أَرْزَاقِهِمْ وَإِنْصَافِهِمْ فِي أَعْطِيَاتِهِمْ لِكُلِّ هِلاَلٍ حَتَّى

يَظْهَرُ أَثَرَ ذلكَ عَلَيْهِمْ فِي مَلاَبِسِهِمِ وَشُكْبِهِمْ وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزِّينَةِ فَيُبَاهِي بِهِمِ الدُّوَلَ الْمُسَالِمَةَ وَيُرْهِبُ الدُّوَلَ الْمُحَارِبَةَ وَهَذَا الطَّوْرُ آخِرُ أَطْوَارِ الاسْتِبْدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ لأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقِلُّونَ بِآرَائِهِمْ بَانُونَ لِعِزِّهِمِ مُوضِحُونَ الطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ . اَلطَّوْرُ الرَّابِعُ طَوْرُ الْقُنُوعِ وَالْمُسَالَمَةِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا قَانِعاً بِمَا بَنَى أَوَّلُوهُ سِلْماً لأَنْظَارِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ مُقَلِّداً لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَيَقْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاهِجِ الاقْتِدَاءِ وَيَرَى أَنَّ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فَسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُ بِمَا بَنَوا مِنْ مَجْدِهِ . اَلطَّوْرُ الْخَامِسُ طَوْرُ الإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ وَيَكُونُ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ فِي هَذَا الطَّوْرِ مُتْلِفاً لِمَا جَمَعَ أَوَّلُوهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلاَذِ وَالْكَرَمِ عَلَى بِطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ وَاصْطِنَاعِ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءِ الدِّمَنِ وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لاَ يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا وَلاَ يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا مُسْتَفْسِدَ الْكِبَارِ الأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ حَتَّى يَضْطَغِنُوا عَلَيْهِ وَيَتَخَاذَلُوا عَنْ نُصْرَتِهِ مُضَيِّعاً مِنْ جُنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِيَاتِهِم فِي شَهَوَاتِهِ وَحَجَبَ عَنْهُمْ وَجْهَ

مَبَاشَرَتِهِ وَتَفَقُّدِهِ فَيَكُونُ مُخَرِّبًا لِمَا كَانَ سَلَفُهُ يُؤَسِّسُونَ وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ وَفِي هَذَا الطَّوْرِ تَحْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ الْهَرَمِ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمُزْمِنُ الَّذِي لاَ تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ وَلاَ يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرْءٌ إِلَى أَنْ تَنْقَرِضَ كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي الأَحْوَالِ الَّتِي نَسْرِدُهَا وَاللهُ خَيْرُ الوَارِثِينَ .

الفصل التاسع عشر
فى استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالى والمصطنعين

إِعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا يَتِمُّ أَمْرُهُ كَمَا قُلْنَاهُ بِقَوْمِهِ فَهُمْ عِصَابَتُهُ وَظُهَرَاؤُهُ عَلَى شَأْنِهِ وَبِهِمْ يُقَارِعُ الْخَوَارِجَ عَلَى دَوْلَتِهِ وَمِنْهُمْ يُقَلِّدُ أَعْمَالَ مَمْلَكَتِهِ وَوِزَارَةَ دَوْلَتِهِ وَجِبَايَةَ أَمْوَالِهِ لأَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ عَلَى الْغَلَبِ وَشُرَكَاؤُهُ فِي الأَمْرِ وَمُسَاهِمُوهُ فِي سَائِرِ مُهِمَّاتِهِ هَذَا مَا دَامَ الطَّوْرُ الأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كَمَا قُلْنَاهُ فَإِذَا جَاءَ الطَّوْرُ الثَّانِي وَظَهَرَ الاسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ وَالانْفِرَادُ بِالْمَجْدِ وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالْمَرَاحِ صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَاحْتَاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الأَمْرِ وَصَدِّهِمْ عَنِ الْمُشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءَ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ

جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَيَتَوَلاَّهُمْ دُونَهُمْ فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ وَأَخَصَّ بِهِ قُرْبًا وَاصْطِنَاعًا وَأَوْلَى إِيثَارًا وَجَاهًا لِمَا أَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ الأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ وَالرُّتْبَةِ الَّتِي أَلِفُوهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَخُصُّهُمْ بِمَزِيدِ التَّكْرِمَةِ وَالإِيثَارِ وَيَقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلْكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيلَ الأَعْمَالِ وَالْوِلاَيَاتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجِبَايَةِ وَمَا يَخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنْ أَلْقَابِ الْمَمْلَكَةِ لأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ الأَقْرَبُونَ وَنُصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤْذِنٌ بِاهْتِضَامِ الدَّوْلَةِ وَعَلاَمَةٌ عَلَى الْمَرَضِ الْمُزْمِنِ فِيهَا لِفَسَادِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءُ الْغَلَبِ عَلَيْهَا وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الامْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ السُّلْطَانِ فَيَضْغَنُونَ عَلَيْهِ وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ وَيَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ وَلاَ يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ هَذَا الدَّاءِ لأَنَّهُ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يُذْهِبَ رَسْمَهَا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِنَّمَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوِلاَيَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ مِثْلِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ

وَالْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ وَالْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ وَخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْقَسْرِيِّ وَابْنِ هُبَيْرَةَ وَمُوسَى بْنِ نُصَيْرٍ وَبِلَالِ ابْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَنَصْرِ بْنِ سَيَّار وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ رِجَالَاتِ الْعَرَبِ وَكَذَا صَدْرٌ مِنْ دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاس كَانَ الِاسْتِظْهَارُ فِيهَا أَيْضاً بِرِجَالَاتِ الْعَرَبِ فَلَمَّا صَارَتِ الدَّوْلَةُ لِلِانْفِرَادِ بِالْمَجْدِ وَكَبَحَ الْعَرَبُ عَنِ التَّطَاوُلِ لِلْوِلَايَات صَارَتِ الْوِزَارَةُ لِلْعَجَمِ وَالصَّنَائِعِ مِنَ الْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ نُوبَخْتَ وَبَنِي طَاهِرٍ ثُمَّ بَنِي بُوَيْهِ وَمَوَالِي التُّرْك مِثْلَ بُغَا وَوَصِيفٍ وَأَتَامِشَ وَبَاكِنَاكَ وَابْنِ طُولُونَ وَأَبْنَائِهِمْ وَغَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنْ مَوَالِي الْعَجَمِ فَتَكُونُ الدَّوْلَةُ لِغَيْرِ مَنْ مَهَّدَهَا وَالْعِزُّ لِغَيْرِ مَنِ اجْتَلَبَهُ سُنَّةُ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَاللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

الفصل العشرون
فى أحوال الموالى والمصطنعين فى الدول

إِعْلَمْ أَنَّ الْمُصْطَنَعِينَ فِي الدُّوَلِ يَتَفَاوَتُونَ فِي الِالْتِحَامِ بِصَاحِبِ الدَّوْلَةِ بِتَفَاوُتِ قَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ فِي الِالْتِحَامِ بِصَاحِبِهَا وَالسَّبَبُ فِي ذلكَ أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الْعَصَبِيَّةِ مِنَ

الْمُدَافعَةَ وَالْمُغَالَبَةَ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالنَّسَبِ لأَجْلِ التَّنَاصُرِ فِي ذَوِي الأَرْحَامِ وَالْقُرْبَى وَالتَّخَاذُلِ فِي الأَجَانِبِ وَالْبُعَدَاءِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَالْوِلاَيَةُ وَالْمُخَالَطَةُ بِالرِقِ أَوْ بِالْحِلْفِ تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ذلِكَ لأَنَّ أَمْرَ النَّسَبِ وَإِنْ كَانَ طَبِيعِياً فَإِنَّمَا هُوَ وَهْمِيٌّ وَالْمَعْنَى الَّذِي كَانَ بِهِ الالْتِحَامُ إِنَّمَا هُوَ الْعِشْرَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَطُولُ الْمُمَارَسَةِ وَالصُّحْبَةِ بِالْمَرْبَى وَالرَّضَاعِ وَسَائِرِ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَالْحيَاةِ وَإِذَا حَصَلَ الالْتِحَامُ بِذلِكَ جَاءَتِ النُّعْرَةُ وَالتَّنَاصُرُ وَهذَا مُشَاهَدٌ بَيْنَ النَّاسِ وَاعْتَبِرْ مِثْلَهُ فِي الاصْطِنَاعِ فَإِنَّهُ يَحْدُثُ بَيْنَ الْمُصْطَنِعِ وَمَنِ اصْطَنَعَهُ نِسْبَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ الْوُصْلَةِ تَتَنَزَّلُ هذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَتُؤَكِدُ اللحْمَةَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَسَبٌ فَثَمَرَاتُ النَّسَبِ مَوْجُودَةٌ فَإِذا كَانَتْ هذِهِ الوِلاَيَةُ بَيْنَ الْقَبِيلِ وَبَيْنَ أَوْلِيَائِهِمْ قَبْلَ حُصُولِ الْمُلْكِ لَهُمْ كَانَتْ عُرُوقُهَا أَوْشَجَ وَعَقَائِدُهَا أَصَحَّ وَنَسَبُهَا أَصْرَحَ لِوَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ قَبْلَ الْمُلْكِ أُسْوَةٌ فِي حَالِهِمْ فَلاَ يَتَمَيَّزُ النَّسَبُ عَنِ الْوِلاَيَةِ إِلاَّ عِنْدَ الأَقَلِ مِنْهُمْ فَيَتَنَزَّلُونَ مِنْهُمْ مَنْزِلَةَ ذَوِي قَرَابَتِهِمْ وَأَهْلِ أَرْحَامِهِمْ وَإِذَا اصْطَنَعُوهُمْ بَعْدَ الْمُلْكِ كَانَتْ مَرْتَبَةُ الْمُلْكِ مُمَيِزَةً لِلسَّيِّدِ عَنِ الْمَوْلَى وَلأَهْلِ الْقَرَابَةِ عَنْ أَهْلِ الْوِلاَيَةِ وَالاصْطِنَاعِ لِمَا تَقْتَضِيهِ

أَحْوَالُ الرئَاسةَ وَالْمُلْك مِنْ تَمــيُّزِ الرُّتَبِ وَتَفَاوُتِهاَ فتَتَمَيَّزُ حَالَتُهُمْ وَيَتَنَزَّلـــونَ مَنْزِلَةَ الأَجَانِبِ وَيكُونُ الالْتِحاَمُ بَيْنَهُمْ أَضْعَفَ وَالــتَّنَاصرُ لِذلكَ أَبْعَدَ وَذلكَ أَنْقَصُ مِنَ الاصْطِنَاعِ قَبْلَ الْمُلْكِ . اَلْوَجْهُ الــثَّانِي أَنَّ الاصْطِنَاعَ قبلَ الْمُلْك يبْعدُ عَهْدُهُ عَنْ أَهْلِ الــدَّوْلَةِ بِطُولِ الــزَّمَانِ وَيُخْفِي شأْنَ تِلْكَ اللُّحْمَةِ وَيُظَنُّ بِهاَ فِي الأَكْثَرِ النَّسَبُ فَيَقْوَى حَالُ الْعَصَبِيَّةِ وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَيَقْرُبُ الْعَهْدُ وَيَسْتَوِي فِي مَعْرِفَتِه الأَكْـثَرُ فَتَتَبَـــيَّنُ اللُّحْمَةُ وَتَتَمَيَّزُ عَنِ الـنَّسَبِ فَتَضْعُفُ الْعَصَبِيَّةُ بِالـنِسبَةِ إِلَى الْوِلاَيَةِ الَّتِي كَانَتْ قبْلَ الـدَّوْلَةِ وَاعْتَبِرْ ذلكَ فِي الـــدُّوَلِ وَالــــرئَاسَاتِ تَجِدْهُ فَكُلُّ مَنْ كَانَ اصْطِنَاعُهُ قَبْلَ حُصُولِ الــرئَاسةَ والْمُلْك لِمُصْطَنِعه تَجِدُهُ أَشَدَّ الْتِحاَماً بِهِ وَأَقْرَبَ قرَابَةً إِلَيْه وَيَتَنَزَّلُ مِنْهُ مَنْزِلَةَ أَبْنَائِه وَإِخْوَانِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ وَمَنْ كَانَ اصْطِـنَاعُهُ بَعْدَ حُصُولِ الْمُلْكِ وَالـــرئَاسةَ لِمُصْطَنِعه لاَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْقِرَابَةِ وَاللُّحْمَةِ ماَ لِلأَوَّلِينَ وَهـذاَ مُشَاهَدٌ بِالْعِيَانِ حتَّى إِنَّ الــدَّوْلَةَ فِي آخِرِ عُمْرِهاَ تَرْجِعُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الأَجَانِبِ وَاصْطِنَاعِهِمْ وَلاَ يُبْنَى لَهُمْ مَجْدٌ كَماَ بَنَاهُ الْمُصْطَنَعُونَ قَبْلَ الــدَّوْلَةِ لِقُرْبِ الْعَهْدِ حيــنَئِذٍ بِأَوَّلِيَّتِهِمْ وَمُشَارَفَةِ الــدَّوْلَةِ عَلَى الانْقِرَاضِ فَيَكُونُونَ مُــنْحَطِينَ فِي

مَهَاوِي الضّعَةِ وَإِنَّمَا يَحْمِلُ صَاحِبَ الدَّوْلَةِ عَلَى اصطِنَاعِهِمْ وَالْعُدُولِ إِلَيْهِمْ عَنْ أَوْلِيَائِهَا الأَقْدَمِينَ وَصَنَائِعِهَا الأَوَّلِينَ مَا يَعْتَرِيهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ عَلَى صَاحِبِ الدَّوْلَةِ وَقِلَّةِ الْخُضُوعِ لَهُ وَنَظَرِهِ بِمَا يَنْظُرُهُ بِهِ قَبِيلُهُ وَأَهْلُ نَسَبِهِ لِتَأَكُّدِ اللُّحْمَةِ مُنْذُ الْعُصُورِ الْمُتَطَاوِلَةِ بِالْمَرْبَى وَالاتِّصَالِ بِآبَائِهِ وَسَلَفِ قَوْمِهِ وَالانْتِظَامِ مَعَ كُبَرَاءِ أَهْلِ بَيْتِهِ فَيَحْصُلُ لَهُمْ بِذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَيْهِ وَاعْتِزَازٌ فَيُنَافِرُهُمْ بِسَبَبِهَا صَاحِبُ الدَّوْلَةِ وَيَعْدِلُ عَنْهُمْ إِلَى اسْتِعْمَالِ سِوَاهُمْ وَيَكُونُ عَهْدُ اسْتِخْلاصِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ قَرِيباً فَلاَ يَبْلُغُونَ رُتَبَ الْمَجْدِ وَيَبْقَوْنَ عَلَى حَالِهِمْ مِنْ الْخَارِجِيَّةِ وَهَكَذَا شَأْنُ الدُّوَلِ فِي أَوَاخِرِهَا وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ اسْمُ الصَّنَائِعِ وَالأَوْلِيَاءِ عَلَى الأَوَّلِينَ وَأَمَّا هَؤُلاءِ الْمُحْدَثُونَ فَخَدَمٌ وَأَعْوَانٌ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

الفصل الحادى والعشرون
فيما يعرض فى الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إِذَا اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ فِي نِصَابٍ مُعَيَّنٍ وَمَنْبِتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِالدَّوْلَةِ وَانْفَرَدُوا بِهِ وَدَفَعُوا سَائِرَ الْقَبِيلِ عَنْهُ وَتَدَاوَلَهُ بَنُوهُمْ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ بِحَسَبِ التَّرْشِيحِ فَرُبَّمَا حَدَثَ التَّغَلُّبُ عَلَى الْمُنَصَبِ مِنْ وُزَرَائِهِمْ وَحَاشِيَتِهِمْ وَسَبَبُهُ فِي الأَكْثَرِ وِلاَيَةُ صَبِيٍّ صَغِيرٍ أَوْ مُضْعَفٍ مِنْ أَهْلِ الْمَنْبِتِ يَتَرَشَّحُ لِلْوِلاَيَةِ بِعَهْدِ أَبِيهِ أَوْ بِتَرْشِيحِ ذَوِيهِ وَخَوَلِهِ وَيُؤْنَسُ مِنْهُ الْعَجْزُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْمُلْكِ فَيَقُومُ بِهِ كَافِلُهُ مِنْ وُزَرَاءِ أَبِيهِ وَحَاشِيَتِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ قَبِيلِهِ وَيُوَرِّي بِحِفْظِ أَمْرِهِ عَلَيْهِ حَتَّى يُؤْنَسَ مِنْهُ الاسْتِبْدَادُ وَيَجْعَلَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً لِلْمُلْكِ فَيَحْجُبُ الصَّبِيَّ عَنِ النَّاسِ وَيُعَوِّدُهُ إِلَيْهَا تَرَفُ أَحْوَالِهِ وَيَسِيمُهُ فِي مَرَاعِيهَا مَتَى أَمْكَنَهُ وَيُنْسِيهِ النَّظَرَ فِي الأُمُورِ السُّلْطَانِيَّةِ حَتَّى يَسْتَبِدَّ عَلَيْهِ وَهُوَ بِمَا عَوَّدَهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ حَظَّ السُّلْطَانِ مِنَ الْمُلْكِ إِنَّمَا هُوَ جُلُوسُ السَّرِيرِ وَإِعْطَاءُ الصَّفْقَةِ وَخِطَابُ التَّهْوِيلِ وَالْقُعُودُ مَعَ النِّسَاءِ خَلْفَ

الحِجَابِ وَأَنَّ الْحَلَّ وَالرَّبْطَ وَالأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَمُبَاشَرَةَ الأَحْوَالِ الْمُلُوكِيَّةِ وَتَفَقُّدَهَا مِنَ النَّظَرِ فِي الْجَيْشِ وَالْمَالِ وَالثُّغُورِ إِنَّمَا هُوَ لِلْوَزِيرِ وَيُسَلِّمُ لَهُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ تَسْتَحْكِمَ لَهُ صِبْغَةُ الرِّئَاسَةِ وَالاسْتِبْدَادِ وَيَتَحَوَّلَ الْمُلْكُ إِلَيْهِ وَيُؤْثِرَ بِهِ عَشِيرَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا وَقَعَ لِبَنِي بُوَيْهِ وَالتُّرْكِ وَكَافُورِ الأَخْشِيدِيِّ وَغَيْرِهِمْ بِالْمَشْرِقِ وَلِلْمَنْصُورِ ابْنِ أَبِي عَامِرٍ بِالأَنْدَلُسِ وَقَدْ يَتَفَطَّنُ ذَلِكَ الْمَحْجُورُ الْمُغَلَّبُ لِشَأْنِهِ فَيُحَاوِلُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِبْقَةِ الْحَجْرِ وَالاسْتِبْدَادِ وَيُرْجِعِ الْمُلْكَ إِلَى نِصَابِهِ وَيَضْرِبُ عَلَى أَيْدِي الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِ إِمَّا بِقَتْلٍ أَوْ بِرَفْعٍ عَنِ الرُّتْبَةِ فَقَطْ إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّادِرِ الأَقَلِّ لأَنَّ الدَّوْلَةَ إِذَا أَخَذَتْ فِي تَغَلُّبِ الْوُزَرَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ اسْتَمَرَّ لَهَا ذَلِكَ وَقَلَّ أَنْ تَخْرُجَ عَنْهُ لأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ فِي الأَكْثَرِ عَنْ أَحْوَالِ التَّرَفِ وَنَشْأَةِ أَبْنَاءِ الْمُلْكِ مُنْغَمِسِينَ فِي نَعِيمِهِ قَدْ نَسُوْا عَهْدَ الرُّجُولَةِ وَأَلِفُوا أَخْلاَقَ الدَّايَاتِ وَالأَظْآرِ وَرَبَوْا عَلَيْهَا فَلاَ يَنْزِعُونَ إِلَى رِئَاسَةٍ وَلاَ يَعْرِفُونَ اسْتِبْدَاداً مِنْ تَغَلُّبٍ إِنَّمَا هَمُّهُمْ فِي الْقُنُوعِ بِالأُبَّهَةِ وَالتَّنَفُّسِ فِي اللَّذَّاتِ وَأَنْوَاعِ التَّرَفِ وَهَذَا التَّغَلُّبُ يَكُونُ لِلْمَوَالِي وَالْمُصْطَنَعِينَ عِنْدَ اسْتِبْدَادِ عَشِيرِ الْمَلِكِ عَلَى قَوْمِهِمْ وَانْفِرَادِهِمْ بِهِ

دُونَهُمْ وَهُوَ عَارِضٌ لِلــدَّوْلَةِ ضَرُورِيٌ كَمَا قَدَّمْنَاهُ وَهَــذَانِ مَرَضَانِ لاَ بُرْءَ لِلدَّوْلَةِ مِنْهُمَا إلاَّ فِي الأَقَلِ النَّادِرِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الفصل الثامن والعشرون
في انقلاب الخلافة إلى الملك

إعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ غَايَةٌ طَبِيعِيةٌ لِلْعَصَبِيَّةِلَيْسَ وقُوعهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ إِنَّمَا هُوَ بِضَــرُورَةِ الْوُجُودِ وتَرْتِيـبِهِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وأَنَّ الـشَّرَائِعَ وَالـدِيَانَـاتِ وكُلُّ أَمْرٍ يَحْلُّ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ فَلاَبُدَّ فِيــــهِ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ إِذِ الْمُطَالَبَةُ لا تَتِمُّ إِلاَّ بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ. فَالْعَصَبِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ وَبِوجُودِهَا يَتِّم أَمْرُ الـلـهِ مِنْهَا وَفِي الصَّحِيحِ مَا بَعَثَ الـلهُ نَبِيًا إِلاَّ فِي مِنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ثُمَّ وَجَدْنَا الــــشَّارِعَ قَدْ ذَمَّ الْعَصَبِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى اطِرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ إِنَّ الـلــهَ أَذْهَبَ عَنــكُمْ عُبِيَّةَ[1] الجاهلية وَفَخْــرَهَا بِالآبَاءِ أَنْتُمْ بَنُـو آدمَ وَأدمَ مِــنْ تُرَابٍ وَقَالَ تَعَالَـى ﴿ إِنَّ أَكْرمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وَوَجَدْنَاهُ أَيْضَاً قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ

(١) عبية بضم العين وكسرها وكسر الموحدة مشددة وتشديد المثناة التحتية الكبر والفخر والنخوة اهـ. قاموس.

وأَهْلَهُ ونَعَى علَى أَهْلِه أَحْوَالَهُـــمْ مِنَ الاسْتِمْتَاعِ بِالْخلاَفِ وَالإِسْرَافِ فِي غَيـرِ الْقَصْدِ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ صِراطِ اللهِ وإِنَّمَا حَضَّ علَى الإِلْفَةِ فِي الـــدِّينِ وَحَذَّرَ من الْخِلاَفِ وَالْفُرْقَةِ *
وَاعْلَمْ أَنَّ الـــدُّنـــيَا كلُّهَا وأَحْوَالَهَا مَطِيَّةٌ لِلآخِرَةِ ومَنْ فقدَ الْمَطِيَّةَ فقَدَ الْوُصُولَ ولَيْسَ مُرَادُهُ فِيـــمَا يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَذُمُّهُ مِنْ أَفْعَالِ الْبَشَرِ أَوْ يَنْدُبُ إِلَى تَرْكِهِ إِهْمَالَهُ بِالْكُلِّـــــيَّةِ أَوِ اقْتِلاَعَهُ مِنْ أَصْلِه وتَعْطِيلُ الْقُوَى الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا بِالْكُلِّيَّةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ تَصْرِيـــفُهَا فِي أَغْرَاضِ الْحَقِ جُهْدَ الاسْتِطَاعَةِ حَتَّى تَصِيـــرَ الْمَقَاصِدُ كلُّهَا حقًّا وَتَتَّحِدَ الْوِجْهَةُ كَمَا قَالَ صلَّى الـلـهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ ورَسُولِه فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ ورَسُولِه ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيـبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيـهِ فلَمْ يَذُمَّ الْغَضَبَ وَهُوَ يَقْصِدُ نَزْعَهُ مِنَ الإِنْسَانِ فَإِنَّهُ لَوْ زَالَتْ مِنْهُ قُوَّةُ الْغَضَبِ لَفُقِدَ مِنْهُ الانْتِصَارُ لِلْحَقِ وبَطَلَ الْجِهَادُ وَإِعْلاَءُ كَلِمَةِ اللهِ وَإِنَّمَا يَذُمُّ الْغَضَبَ لِلـــشَّيْطَانِ وَلِلأَغْرَاضِ الـذَّمِيـــمَةِ فَإِذَا كَانَ الْغَضَبُ لِذلِكَ كَانَ مَذْمُومًا وَإِذا كَانَ الْغَضَبُ فِي اللهِ ولِلهِ كَانَ مَمْدُوحًا وَهُوَ مِنْ شَمَائِلِه صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ وكَذَا ذَمُّ الشَّهَوَاتِ أَيْضًا لَيْسَ الْمُرَادُ إِبْطَالَهَا

بِالْكُلِّيَّةِ فَإِنَّ مَنْ بَطَلَتْ شَهْوَتُهُ كَانَ نَقْصاً فِي حَقِّهِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَصْرِيفُهَا فِيمَا أُبِيحَ لَهُ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْمَصَالِحِ لِيَكُونَ الإِنْسَانُ عَبْداً مُتَصَرِّفاً طَوْعَ الأَوَامِرِ الإِلَهِيَّةِ وَكَذَا الْعَصَبِيَّةُ حَيْثُ ذَمَّهَا الشَّارِعُ وَقَالَ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ فَإِنَّمَا مُرَادُهُ حَيْثُ تَكُونُ الْعَصَبِيَّةُ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْوَالِهِ كَمَا كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنْ يَكُونَ لأَحَدٍ فَخْرٌ بِهَا أَوْ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ لأَنَّ ذَلِكَ مَجَانٌ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلاَءِ وَغَيْرُ نَافِعٍ فِي الآخِرَةِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْقَرَارِ فَأَمَّا إِذَا كَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ فِي الْحَقِّ وَإِقَامَةِ أَمْرِ اللهِ فَأَمْرٌ مَطْلُوبٌ وَلَوْ بَطَلَ لَبَطَلَتِ الشَّرَائِعُ إِذْ لاَ يَتِمُّ قِوَامُهَا إِلاَّ بِالْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَكَذَا الْمُلْكُ لَمَّا ذَمَّهُ الشَّارِعُ لَمْ يَذُمَّ مِنْهُ الْغَلَبَ بِالْحَقِّ وَقَهْرَ الْكَافَّةِ عَلَى الدِّينِ وَمُرَاعَاةَ الْمَصَالِحِ وَإِنَّمَا ذَمَّهُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّغَلُّبِ بِالْبَاطِلِ وَتَصْرِيفِ الآدَمِيِّينَ طَوْعَ الأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَوْ كَانَ الْمُلْكُ مُخْلِصاً فِي غَلَبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ للهِ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْمُوماً وَقَدْ قَالَ سُلَيْمَانُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ رَبِّ هَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي لِمَا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ * وَلَمَّا لَقِيَ مُعَاوِيَةُ

عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أُبَّهَةِ الْمُلْكِ وَزِيِّهِ مِنَ الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ أَكِسْرَوِيَّةً يَا مُعَاوِيَةُ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَا فِي ثَغْرٍ تِجَاهَ الْعَدُوِّ وَبِنَا إِلَى مُبَاهَاتِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ فَسَكَتَ وَلَمْ يُخَطِّئْهُ لِمَا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدٍ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالدِّينِ فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُقْنِعْهُ الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ وَانْتِحَالِهَا بَلْ يُحَرِّضُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي مُلْكِهِمْ مِنِ ارْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سُبُلِهِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ اللهِ وَأَجَابَهُ مُعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلَهُمْ وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهُ اللهِ فَسَكَتَ * وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمُلْكِ وَأَحْوَالِهِ وَنِسْيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنَ الْتِبَاسِهَا بِالْبَاطِلِ فَلَمَّا اسْتُحْضِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى الصَّلَاةِ إِذْ هِيَ أَهَمُّ أُمُورِ الدِّينِ وَارْتَضَاهُ النَّاسُ لِلْخِلَافَةِ وَهِيَ حَمْلُ الْكَافَّةِ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَلَمْ يَجْرِ لِلْمُلْكِ ذِكْرٌ لِمَا أَنَّهُ مَظِنَّةٌ لِلْبَاطِلِ وَنِحْلَةٌ يَوْمَئِذٍ لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَأَعْدَاءِ الدِّينِ فَقَامَ عَلَى الإِسْلَامِ ثُمَّ عَهِدَ إِلَى عُمَرَ فَاقْتَفَى

أَثَرَهُ وَقَاتَلَ الأُمَمَ فَغَلَبَهُمْ وَأَذِنَ لِلْعَرَبِ بِانْتِزَاعِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْمُلْكِ فَغَلَبُوهُمْ عَلَيْهِ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ثُمَّ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَالْكُلُّ مُتَبَرِئُونَ مِنَ الْمُلْكِ مُنَكِبُونَ عَنْ طُرُقِهِ وَأَكَّدَ ذَلِكَ لَدَيْهِمْ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ غَضَاضَةِ الإِسْلاَمِ وَبِدَاوَةِ الْعَرَبِ فَقَدْ كَانُوا أَبْعَدَ الأُمَمِ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَتَرَفِهَا لاَ مِنْ حَيْثُ دِينُهُمُ الَّذِي يَدْعُوهُمْ إِلَى الزُّهْدِ فِي النَّعِيمِ وَلاَ مِنْ حَيْثُ بِدَاوَتُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ خُشُونَةِ الْعَيْشِ وَشَظَفِهِ الَّذِي أَلِفُوهُ فَلَمْ تَكُنْ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ أَسْغَبَ عَيْشاً مِنْ مُضَرَ لَمَّا كَانُوا بِالْحِجَازِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ زَرْعٍ وَلاَ ضَرْعٍ وَكَانُوا مَمْنُوعِينَ مِنَ الأَرْيَافِ وَحُبُوبِهَا لِبُعْدِهَا وَاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ وَلِيَهُمَا مِنْ رَبِيعَةَ وَالْيَمَنِ فَلَمْ يَكُونُوا يَتَطَاوَلُونَ إِلَى خِصْبِهَا وَلَقَدْ كَانُوا كَثِيراً مَا يَأْكُلُونَ الْعَقَارِبَ وَالْخَنَافِسَ وَيَفْخَرُونَ بِأَكْلِ الْعِلْهِزِ وَهُوَ وَبَرُ الإِبِلِ يَمْهُونَهُ بِالْحِجَارَةِ فِي الدَّمِ وَيَطْبُخُونَهُ وَقَرِيباً مِنْ هَذَا كَانَتْ حَالُ قُرَيْشٍ فِي مَطَاعِمِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَتْ عَصَبِيَّةُ الْعَرَبِ عَلَى الدِّينِ بِمَا أَكْرَمَهُمُ اللهُ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَحَفُوا إِلَى أُمَمِ فَارِسَ وَالرُّومِ وَطَلَبُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُمْ مِنَ

الأَرْضِ بِوَعْدِ الصِّدْقِ فَابْتَزُّوا مُلْكَهُمْ وَاسْتَبَاحُوا دُنْيَاهُمْ فَزَخَرَتْ بِحَارُ الرِّفْهِ لَدَيْهِمْ حَتَّى كَانَ الْفَارِسُ الْوَاحِدُ يُقْسَمُ لَهُ فِي بَعْضِ الْغَزَاوَاتِ ثَلاَثُونَ أَلْفاً مِنَ الذَّهَبِ أَوْ نَحْوِهَا فَاسْتَوْلَوْا مِنْ ذلِكَ عَلَى مَا لاَ يَأْخُذُهُ الْحَصْرُ وَهُمْ مَعَ ذلِكَ عَلَى خُشُونَةِ عَيْشِهِمْ فَكَانَ عُمَرُ يُرَقِّعُ ثَوْبَهُ بِالْجِلْدِ وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ يَا صَفْرَاءُ وَيَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي وَكَانَ أَبُو مُوسَى يَتَجَافَى عَنْ أَكْلِ الدَّجَاجِ لأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْهَا لِلْعَرَبِ لِقِلَّتِهَا يَوْمَئِذٍ وَكَانَتِ الْمَنَاخِلُ مَفْقُودَةً عِنْدَهُمْ بِالْجُمْلَةِ وَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ الْحِنْطَةَ بِنِخَالِهَا وَمَكَاسِبُهُمْ مَعَ هذَا أَتَمُّ مَا كَانَتْ لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمِ قَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي أَيَّامِ عُثْمَانَ اقْتَنَى الصَّحَابَةُ الضِّيَاعَ وَالْمَالَ فَكَانَ لَهُ يَوْمَ قُتِلَ عِنْدَ خَازِنِهِ خَمْسُونَ وَمِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَقِيمَةُ ضِيَاعِهِ بِوَادِي الْقُرَى وَحُنَيْنَ وَغَيْرِهِمَا مِائَتَا أَلْفِ دِينَارٍ وَخَلَّفَ إِبِلاً وَخَيْلاً كَثِيرَةً وَبَلَغَ الثُّمُنُ الْوَاحِدُ مِنْ مَتْرُوكِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ وَفَاتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَخَلَّفَ أَلْفَ فَرَسٍ وَأَلْفَ أَمَةٍ وَكَانَتْ غَلَّةُ طَلْحَةَ مِنَ الْعِرَاقِ أَلْفَ دِينَارٍ كُلَّ يَوْمٍ وَمِنْ نَاحِيَةِ السَّرَاةِ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ وَكَانَ عَلَى مَرْبِطِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ عَوفٍ أَلْفُ فَرَسٍ وَلَهُ أَلْفُ بَعِيرٍ وَعَشَرَةُ آلافِ

مِنَ الْغَنَمِ وَبَلَغَ الـرُّبْعُ مِنْ مَتْرُوكِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ أَلْفاً وَخَلَّفَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَالـذَّهَبِ مَا كَانَ يُكْسَرُ بِالْفُؤُوسِ غَيْرَ مَا خَلَّفَ مِنَ الأَمْوَالِ وَالـضِّيَاعِ بِمِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَبَنَى الـزُّبَيْرُ دَارَهُ بِالْبَصْرَةِ وَكَذَلِكَ بَنَى بِمِصْرَ وَالْكُوفَةِ وَالإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَكَذَلِكَ بَنَى طَلْحَةُ دَارَهُ بِالْكُوفَةِ وَشَيَّدَ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَبَنَاهَا بِالْجِصِّ وَالآجُرِ وَالسَّاجِ وَبَنَى سَعْدُ ابْنُ أَبِي وَقَّاصٍ دَارَهُ بِالْعَقِيقِ وَرَفَعَ سَمْكَهَا وَأَوْسَعَ فَضَاءَهَا وَجَعَلَ عَلَى أَعْلاَهَا شُرُفَاتٍ وَبَنَى الْمِقْدَادُ دَارَهُ بِالْمَدِينَةِ وَجَعَلَهَا مُجَصَّصَةَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وَخَلَّفَ لِعَلِيِّ بْنِ مُنَبِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَعَقَاراً وَغَيْرَ ذَلِكَ مَا قِيمَتُهُ ثَلاثُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ اهـ كَلاَمُ الْمَسْعُودِيِّ فَكَانَتْ مَكَاسِبُ الْقَوْمِ كَمَا تَرَاهُ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَنْعِيّاً عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ إِذْ هِيَ أَمْوَالٌ حَلاَلٌ لأَنَّهَا غَنَائِمُ وَفُيُوءٌ وَلَمْ يَكُنْ تَصَرُّفُهُمْ فِيهَا بِإِسْرَافٍ إِنَّمَا كَانُوا عَلَى قَصْدٍ فِي أَحْوَالِهِمْ كَمَا قُلْنَاهُ فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِقَادِحٍ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ الاسْتِكْثَارُ مِنَ الدُّنْيَا مَذْمُوماً فَإِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الإِسْرَافِ وَالْخُرُوجِ بِهِ عَنِ الْقَصْدِ وَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ قَصْداً وَنَفَقَاتُهُمْ فِي سُبُلِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ كَانَ ذَلِكَ الاسْتِكْثَارُ عَوْناً لَهُمْ عَلَى طُرُقِ الْحَقِّ

وَاكْتِسَابِ الـــدَّارِ الآخِرَةِ فَلَمَّا تَدَرَّجَتِ الْبِدَاوَةُ وَالْغَضَاضَةُ إِلَى نِهَايَتِهَا وَجَاءَتْ طَبِيـــــعَةُ الْمُلْكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَمَا قُلْنَاهُ وَحَصَلَ التَّغَلُّبُ وَالْقَهْرُ كَانَ حُكْمُ ذَلِكَ الْمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمَ ذَلِكَ الرَّفَهِ وَالاسْتِكْثَارِ مِنَ الأَمْوَالِ فَلَمْ يَصْرِفُوا ذَلِكَ الـــتَّغَلُّبَ فِي بَاطِلٍ وَلاخَرَجُوا بِهِ عَنْ مَقَاصِدِ الـــــدِّيَانَةِ وَمَذَاهِبِ الْحَقِ * وَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ بَيْنَ عَلِيٍ وَمُعَاوِيَةَ وَهِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ كَانَ طَرِيقُهُمْ فِيـــهَا الْحَقَّ وَالاجْتِهَـــــادَ وَلَمْ يَكُونُوا فِي مُحَارَبَتِهِمْ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍ أَوْ لإِيـثَارِ بَاطِلٍ أَوْ لاسْتِشْعَارِ حِقْدٍ كَمَا قَدْ يَتَوَهَّمُهُ مُـــتَوَهِـمٌ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ مُلْحِدٌ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِ وَسَفَّهَ كُلٌّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِـــاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِ فَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْمُصِيبُ عَلِيًا فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةَ قَائِمًا فِيـــهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍ ثُمَّ اقْتَضَتْ طَبِيـــــعَةُ الْمُلْكِ الانْفِرادَ بِالْمَجْدِ وَاسْتِئْثَارَ الْوَاحِدِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِمُعَاوِيَـــةَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيـــعِيٌ سَاقَتْهُ الْعَصَبِـــيَّةُ بِطَبِيـــعَتِهَا وَاسْتَشْعَرَتْهُ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيـقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي اقْتِفَاءِ الْحَقِ مِنْ أَتْبَاعِهِم فَاعْصَوْصَبُوا عَلَيْهِ وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ

ولَـوْ حَمَلَهُمْ مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الـطَّرِيـقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الانْفِرَادِ بِالأَمْرِ لِوُقُوعِ فِي افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيـفُهَا أَهَمُّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيـرُ مُخَالَفَةٍ وَقَدْ كَانَ عُـمَـرُ بْنُ عَبْدِ الْعَـزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ لَوْ كَانَ لِي مِنَ الأَمْرِ شَيْءٍ لَوَلَّيْتُهُ الْخِلافَةَ وَلَوْ أَرَادَ أَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ لَفَعَلَ وَلَـكِنَّهُ كَانَ يَخْشَى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ أَهْلَ الْحَلِ وَالْعَقْدِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ فَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يُحَوِلَ الأَمْرَ عَنْهُمْ لِئَلاَّ تَقَعَ الْفُرْقَةُ وَهَـذَا كُلُّهُ إِنَّمَا حَمَلَ عَلَيْهِ مَنَازِعُ الْمُلْكِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَصَبِيَّةِ فَالْمُلْكُ إِذَا حَصَلَ وَفَرَضْنَا أَنَّ الْوَاحِدَ انْفَرَدَ بِهِ وَصَرَفَهُ فِي مَذَاهِبِ الْحَقِ وَوُجُوهِهِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ نَكِيـرٌ عَلَيْهِ وَلَقَدِ انْفَرَدَ سُلَيْمَانُ وَأَبُوهُ دَاودُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمَا بِمُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَا اقْتَضَتْهُ طَبِيـعَةُ الْمُلْكِ مِنَ الانْفِرَادِ بِهِ وَكَانُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ الـنُّبُوَّةِ وَالْحَقِ وَكَذَلِـكَ عَهِدَ مُعَاوِيَةُ إِلَى يَزِيدَ خَوْفًا مِنَ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ بِمَا كَانَتْ بَنُو أُمَيَّةَ لَمْ يَرْضَوا تَسْلِيمَ الأَمْرِ إِلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلَوْقَدْ عَهِدَ إِلَى غَيْرِهِ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ مَعَ أَنَّ ظَنَّهُمْ كَانَ بِهِ صَالِحًا وَلاَ يَرْتَابُ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ وَلاَ يُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُهُ فَلَمْ يَكُنْ لِيَعْهِدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْتَقِدُ مَا كَانَ

عَلَيْهِ مِنَ الْفِسْقِ حَاشَا اللهَ لِمُعَاوِيَةَ مِنْ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ كَانَ مَرْوَانُ ابْنُ الْحَكَمِ وَابْنُهُ وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا لَمْ يَكُنْ مَذْهَبُهُمْ فِي الْمُلْكِ مَذْهَبَ أَهْلِ الْبِطَالَةِ وَالْبَغْيِ إِنَّمَا كَانُوا مُتَحَرِّينَ لِمَقَاصِدِ الْحَقِّ جُهْدَهُمْ إِلاَّ فِي ضَرُورَةٍ تَحْمِلُهُمْ عَلَى بَعْضِهَا مِثْلَ خَشْيَةِ افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّذِي هُوَ أَهَمُّ لَدَيْهِمْ مِنْ كُلِّ مَقْصِدٍ يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الاتِّبَاعِ وَالاقْتِدَاءِ وَمَا عَلِمَ السَّلَفُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ فَقَدِ احْتَجَّ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّإِ بِعَمَلِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَمَّا مَرْوَانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الأُولَى مِنَ التَّابِعِينَ وَعَدَالَتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ ثُمَّ تَدَرَّجَ الأَمْرُ فِي وُلْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَنَزَعَ إِلَى طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُهْدَهُ وَلَمْ يُهْمِلْ ثُمَّ جَاءَ خَلَفُهُمْ وَاسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمُلْكِ فِي أَغْرَاضِهِمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَنَسُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحَرِّي الْقَصْدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ نَعَوْا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا بِالدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ وَوَلِيَ رِجَالُهَا الأَمْرَ فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ بِمَكَانٍ وَصَرَّفُوا الْمُلْكَ فِي وُجُوهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا حَتَّى جَاءَ بَنُو

الرَّشِيـــدِ مِنْ بَعْدِهِ فكَانَ مِنْهُمُ الـصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ثُمَّ أَفْضَى الأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ فَـأَعْطَوُا الْمُلْكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ وَانْغَمَسُوا فِي الـدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا وَنَبَذُوا الـدِينَ وَرَاءَهُمْ ظِهْـــرِيًّا فَتَأَذَّنَ اللهُ بِحَرْبِهِمْ وَانْتِزَاعِ الأَمْرِ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً وَأَمـــكَنَ سِوَاهُمْ وَاللهُ لاَ يَظْـلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَرَ هَـؤُلاَءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَاخْتِلاَفَهُمْ فِي تَحَرِي الْحَقِ مِنَ الْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَاهُ وَقَدْ حَكَاهُ الْمَسْعُودِيُّ مِثْلَهُ فِي أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتَهُ وَذَكَــرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ أَمَّا عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ جَبَّارًا لاَ يُبَالِي بِمَا صَنَعَ وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَـــكَانَ هَمُّهُ بَطْنَهُ وَفَرْجَهُ وَأَمَّا عُمَرُ فَـــكَانَ أَعْوَرَ بَيْنَ عُمْيَانٍ وَكَانَ رَجُلَ الْقَوْمِ هِشَامٌ قَالَ وَلَمْ يَزَلْ بَنُو أُمَيَّةَ ضَابِطِينَ لِمَا مُهِّدَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ يَحُوطُونَهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ اللهُ لَهُمْ مِنْهُ مَعَ تَسَنُّمِهِمِ مَعَالِي الأُمُورِ وَرَفْضِهِمْ دَنِيَّاتِهَا حَتَّى أَفْضَى الأَمْرُ إِلَى أَبْنَائِهِم الْمُتْرَفِينَ فَكَانَتْ هِمَّتُهُمْ قَصْدَ الشَّهَوَاتِ وَرُكُوبَ الـلَّذَّاتِ مِنْ مَعَاصِي اللهِ جَهْلاً بِاسْتِدْرَاجِـــهِ وَأَمْنًا لِمَكْرِهِ مَعَ اطِرَاحِهِمْ صِيَانَةَ الْخِلاَفَةِ وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِحَقِ الرِئَاسَةِ وَضَعْفِهِمْ عَنَ السِيَاسَةِ فَسَلَبَهُمُ اللهُ الْعِزَّ وَأَلْبَسَهُمُ الـــذُّلَّ وَنَفَى عَنْهُمُ الـــنِعْمَةَ ثُمَّ

استحضر عبد الله[1] بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فاراً أيام السفاح قال أقمت ملياً ثم أتاني ملكهم فقعد على الأرض وقد بسطت لي فرش ذات قيمة فقلت ما منعك عن القعود على ثيابنا فقال إني ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ثم قال لي لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا قال فلم تطئون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحرير وهو محرم عليكم في كتابكم قلت ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منا فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه إلي وقال ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما عنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم والله نقمة لم تبلغ

(١) قوله عبدالله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبدالملك واظنه تصحيفاً قاله نذير.

غَايَتُهَا فِيـــكُمْ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَحِلَّ بِكُمُ الْعَذَابُ وَأَنْتُمْ بِبَلَدِي فَيَنَالَنِي مَعَكُمْ وَإِنَّمَا الضِّيَافَةُ ثَلَاثٌ فَتَزَوَّدْ مَا احْتَجْتَ إِلَيْهِ وَارْتَحِلْ عَنْ أَرْضِي فَتَعَجَّبِ الْمَنْصُورُ وَأَطْرَقَ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ كَيْفَ انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ وَأَنَّ الأَمْرَ كَانَ فِي أَوَّلِهِ خِلَافَةً وَوَازِعُ كُلِّ أَحَـدٍ فِيـهَا مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ الدِّينُ وَكَانُوا يُؤْثِرُونَهُ عَلَى أُمُورِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ أَفْضَتْ إِلَى هَلَاكِهِمْ وَحْدَهُمْ دُونَ الْكَافَّةِ فَهَـذَا عُثْمَانُ لَمَّا حُصِرَ فِي الدَّارِ جَاءَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ وَابْنُ جَعْفَرٍ وَأَمْثَالُهُمْ يُرِيـدُونَ الْمُدَافَعَةَ عَنْهُ فَـأَبَى وَمَنَعَ مِنْ سَلِّ السُّيُوفِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ وَحِفْظًا لِلإِلْفَةِ الَّتِي بِهَا حِفْظُ الْكَلِمَةِ وَلَوْ أَدَّى إِلَى هَلَاكِهِ وَهَــــذَا عَلِيٌّ أَشَارَ عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ لأَوَّلِ وِلَايَتِهِ بِاسْتِبْقَاءِ الزُّبَيْرِ وَمُعَاوِيَةَ وَطَلْحَةَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى بَيْـعَتِهِ وَتَتَّفِقَ الْكَلِمَةُ وَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا شَاءَ مِنْ أَمْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ سِيَاسَـةِ الْمُلْكِ فَأَبَى فِرَارًا مِنَ الْغِشِّ الَّذِي يُنَافِيـــهِ الإِسْلَامُ وَغَدَا عَلَيْهِ الْمُغِيرَةُ مِنَ الْغَدَاةِ فَقَالَ لَقَدْ أَشَرْتُ عَلَيْكَ بِالأَمْسِ بِمَا أَشَرْتُ ثُمَّ عُدْتُ إِلَى نَظَرِي

---

(١) البيعة بفتح الموحدة إما بكسرها على وزن شيعة بسكون الياء فيهما فهي معبد النصارى . اهـ.

فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة وأن فيما رأيته أنت فقال علي لا والله بل أعلم أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم ولكن منعني مما أشرت به زائد الحق وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا   فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغير إلا في الوازع الذي كان دينا ثم انقلب عصبية وسيفا وهكذا كان الأمر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بني العباس إلى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها وصار الأمر ملكا بحتا وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها واستعملت في أغراضها من القهر والتقلب في الشهوات والملاذ وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقيا فيهم لبقاء عصبية العرب والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب

عَصَبِيَّةِ الْعَرَبِ وَفَنَاءِ جِيلِهِمْ وَتَلاَشِي أَحْوَالِهِم وَبَقِيَ الأَمْرُ مُلْكاً بَحْتاً كَمَا كَانَ الشَّأْنُ فِي مُلُوكِ الْعَجَمِ بِالْمَشْرِقِ يَدِينُونَ بِطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ تَبَرُّكاً وَالْمُلْكُ بِجَمِيعِ أَلْقَابِهِ وَمَنَاحِيهِ لَهُمْ وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُلُوكُ زَنَاتَةَ بِالْمَغْرِبِ مِثْلَ صِنْهَاجَةَ مَعَ الْعُبَيْدِيِّينَ وَمِغْرَاوَةَ وَبَنِي يَفْرُنَ أَيْضاً مَعَ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالأَنْدَلُسِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ بِالْقَيْرَوَانِ فَقَدَ تَبَيَّنَ أَنَّ الْخِلاَفَةَ قَدْ وُجِدَتْ بِدُونِ الْمُلْكِ أَوَّلاً ثُمَّ الْتَبَسَتْ مَعَانِيهِمَا وَاخْتَلَطَتْ ثُمَّ انْفَرَدَ الْمُلْكُ حَيْثُ افْتَرَقَتْ عَصَبِيَّتُهُ مِنْ عَصَبِيَّةِ الْخِلاَفَةِ وَاللهُ مُقَدِّرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة(١)

إِعْلَمْ أَنَّ الْبَيْعَةَ هِيَ الْعَهْدُ عَلَى الطَّاعَةِ كَأَنَّ الْمُبَايِعَ يُعَاهِدُ أَمِيرَهُ عَلَى أَنَّهُ يُسَلِّمُ لَهُ النَّظَرَ فِي أَمْرِ نَفْسِهِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ لا يُنَازِعُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَيُطِيعُهُ فِيمَا يُكَلِّفُهُ

---

(١) قوله عبدالله كذا في النسخة التونسية وبعض الفارسية وفي بعضها عبدالملك واظنه تصحيفاً قاله نذير.

بــــــه منَ الأمْرِ علَى المُنَشطِ والمُكْرِهِ وكَانُوا إذَا بَايَعُوا الأمِيــرَ وَعَقَدُوا عهْدَهُ جَعلُوا أيْديهَمْ فِي يَدِهِ تأكِيــداً للْعَهْدِ فأشْبَهَ ذلكَ فعْل البَائِعِ والمُشتَرِي فَسُمِّيَ بيْعةً مَصْدَرَ بَاعَ وَصَارَتِ البَيْعةُ مُصَافَحةً بِالأيْدِي هــــذَا مدْلُولهَا في عرْفِ اللُّغَةِ ومَــــعْهُودِ الشَرْعِ وَهُوَ المُرَادُ فِي الحَدِيثِ فِي بيْعةِ الــنَّبِي صلَّى اللهُ علَيْهِ وسَلَّمَ ليْلةَ العقَبةِ وعِنْدَ الــشَّجْرَةِ وَحيْثُمَا ورَدَ هــذَا الــلَّفْظُ ومِنْهُ بيْعةُ الخُلَفَاءِ ومِنْهُ أيْمَانُ البَيْعةِ كَانَ الخُلفَاءُ يَسْتَحْلِفُونَ علَى العَهْدِ ويَسْتَــوعِبُونَ الأيْمَانَ كلَّهَا لِذلِكَ فَسُمِّيَ هذَا الاسْتِيــــعَابُ أيْمَانَ البَيْعةِ وكَانَ الإكْرَاهُ فِيهَا أكْثَرَ وأغْلَبَ ولِهــذَا لَمَّا أفْتى مَالكٌ رَضِي اللهُ عنْهُ بِسقُوطِ يَمِينِ الإكْرَاهِ أنْكَرَهَا الوُلاةُ علَيْهِ ورَأوهَا قَادِحةً فِي أيْمَانِ البَيْعةِ وَوَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ مِحْنَةِ الإمَامِ رَضِي اللهُ عنْهُ وأمَّا البَيْعةُ المَشْهُورةُ لِهذَا العَهْدِ فَهِيَ تَحِيَّةُ المُلُوكِ الكِسْرَوِيَّةِ مِنْ تَقْبِــــيلِ الأرْضِ أَو اليَدِ أَوِ الرِجْلِ أَوْ الـذَّيْلِ أُطْلِقَ علَيْهَا اسْمُ البَيْعَةِ الَّتِي هِيَ العَهْدُ علَى الـطَّاعةِ مَجَازاً لِمَا كَانَ هذَا الخُضُوعُ فِي الـتَّحِيَّةِ والتِزَامُ الآدَابِ مِنْ لَوَازِمِ الطَّاعةِ وتَوابِعِهَا وغَلَبَ فِيــهِ حتَّى صَارَتْ حقِيــقــيَّةً عُرْفِيَّةً

وَاسْتَغْنَى بِهاَ عَنْ مُصاَفَحَةِ أَيْدِي النَّاسِ الَّتِي هِيَ الْحَقِيقَةُ فِي الأَصْلِ لِماَ فِي الْمُصاَفَحَةِ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالابْتِذَالِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلرِئَاسَةِ وَصَوْنِ الْمَنْصِبِ الْمُلُوكِي إِلاَّ فِي الأَقَلِّ مِمَّنْ يَقْصِدُ التَّوَاضُعَ مِنَ الْمُلُوكِ فَيَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مَعَ خَوَاصِهِ وَمَشَاهِيرِ أَهْلِ الدِينِ مِنْ رَعِيَّتِهِ فَافْهَمْ مَعْنَى الْبَيْعَةِ فِي الْعُرْفِ فَإِنَّهُ أَكِيدٌ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهُ لِماَ يَلْزَمُهُ مِنْ حَقِ سُلْطَانِهِ وَإِمَامِهِ وَلاَ تَكُونُ أَفْعَالُهُ عَبَثًا وَمَجَّانًا وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِكَ مَعَ الْمُلُوكِ وَاللهُ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

الفصل الثلاثون

في ولاية العهد

إِعْلَمْ أَنَّا قَدَّمْنَا الْكَلاَمَ فِي الإِمَامَةِ وَمَشْرُوعِيَتِهاَ لِماَ فِيهاَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَأَنَّ حَقِيقَتَهاَ لِلنَّظَرِ فِي مَصاَلِحِ الأُمَّةِ لِدِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ وَالأَمِينُ عَلَيْهِمْ يَنْظُرُ لَهُمْ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَنْ يَنْظُرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ وَيُقِيمَ لَهُمْ مَنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَماَ كَانَ هُوَ يَتَوَلاَّهاَ وَيَثِقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَماَ وَثِقُوا بِهِ فِيماَ قَبْلُ وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ

بإجْمَاعِ الأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَانْعِقَادِهِ إذْ وَقَعَ بِعَهْدِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِمَحْضَرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازُوهُ وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ وَكَذَلِكَ عَهِدَ عُمَرُ فِي الشُّورَى إِلَى السِّتَّةِ بَقِيَّةِ الْعَشَرَةِ وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ فَفَوَّضَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوفٍ فَاجْتَهَدَ وَنَاظَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفِقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍ فَآثَرَ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُوَافَقَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الاقْتِدَاءِ بِالشَّيْخَيْنِ فِي كُلِّ مَا يَعِنُّ دُونَ اجْتِهَادِهِ فَانْعَقَدَ أَمْرُ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ وَالْمَلأُ مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَلَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ وَالإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ وَلاَ يُتَّهَمُ الإِمَامُ فِي هَذَا الأَمْرِ وَإِنْ عَهِدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ فَأَوْلَى أَنْ لاَ يَحْتَمِلَ فِيهَا تَبِعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ خِلاَفًا لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ أَو لِمَنْ خَصَّصَ التُّهَمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الظِّنَّةِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لاَ سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ إِيثَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِي الظِّنَّةُ فِي ذَلِكَ رَأْسًا كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ

مُعَاوِيَةَ لابِنْه يَزِيدَ وَإِنْ كَانَ فِعلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وِفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ وَالَّذِي دعا مُعَاوِيَةَ لإِيثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ إِنَّمَا هُوَ مُرَاعَاةُ المَصْلَحَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِفَاقِ أَهْوَائِهِم بِاتِفَاقِ أَهْلِ الْحلِ وَالْعَقْدِ عَلَيْهِ حِينَئِذٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِذْ بَنُو أُمَيَّةَ يَوْمَئِذٍ لايَرْضَوْنَ سِوَاهُمْ وَهُمْ عِصَابَةُ قُرَيْشٍ وَأَهْلُ الْمِلَّةِ أَجْمَعَ وَأَهْلُ الْغَلَبِ مِنْهُمْ فَآثَرَهُ بِذلِكَ دُونَ غَيْرِهِ مِمَّنْ يُظَنُّ أَنَّهُ أَوْلَى بِهَا وَعَدَلَ عَنِ الْفَاضِلِ إِلَى الْمَفْضُولِ حِرْصاً عَلَى الاتِفَاقِ وَاجْتِمَاعَ الأَهْوَاءِ الَّذِي شَأْنُهُ أَهَمُّ عِنْدَ الشَّارِعِ وَإِنْ كَانَ لايُظَنُّ بِمُعَاوِيَةَ غَيْرُ هذا فَعَدَالَتُهُ وَصُحْبَتُهُ مَانِعَةٌ مِنْ سِوَى ذلِكَ وَحُضُورُ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ لِذلِكَ وَسُكُوتُهُمْ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى انْتِفَاءِ الرَّيْبِ فِيهِ فَلَيْسُوا مِمَّنْ يَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِ هَوَادَةٌ وَلَيْسَ مُعَاوِيَةُ مِمَّنْ تَأْخُذُهُ الْعِزَّةُ فِي قَبُولِ الْحَقِ فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ أَجَلُّ مِنْ ذلِكَ وَعَدَالَتُهُمْ مَانِعَةٌ مِنْهُ وَفِرَارُ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عُمَرَ مِنْ ذلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى تَوَرُّعِهِ مِنَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ مِنَ الأُمُورِ مُبَاحاً كَانَ أَوْ مَحْظُوراً كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمُخَالَفَةِ لِهذَا الْعَهْدِ الَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ إِلاَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَنُدُورُ الْمُخَالِفِ مَعْرُوفٌ ثُمَّ إِنَّهُ وَقَعَ مِثْلُ ذلِكَ مِنْ

بَعْدِ مُعَاوِيَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّونَ الْحَقَّ وَيَعْمَلُونَ بِهِ مِثْلَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَسُلَيْمَانَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَالسَّفَّاحِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالرَّشِيدِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ عُرِفَتْ عَدَالَتُهُمْ وَحُسْنُ رَأْيِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ وَالنَّظَرُ لَهُمْ وَلَا يُعَابُ عَلَيْهِمْ إِيثَارُ أَبْنَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَخُرُوجُهُمْ عَنْ سُنَنِ الْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ فِي ذَلِكَ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِ أُولَئِكَ الْخُلَفَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حِينِ لَمْ تَحْدُثْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ وَكَانَ الْوَازِعُ دِينِيًّا فَعِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ وَازِعٌ مِنْ نَفْسِهِ فَعَهِدُوا إِلَى مَنْ يَرْتَضِيهِ الدِّينُ فَقَطْ وَآثَرُوهُ عَلَى غَيْرِهِ وَوَكَلُوا كُلَّ مَنْ يَسْمُو إِلَى ذَلِكَ إِلَى وَازِعِهِ وَأَمَّا مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ لَدُنْ مُعَاوِيَةَ فَكَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى غَايَتِهَا مِنَ الْمُلْكِ وَالْوَازِعُ الدِّينِيُّ قَدْ ضَعُفَ وَاحْتِيجَ إِلَى الْوَازِعِ السُّلْطَانِيِّ وَالْعَصَبَانِيِّ فَلَوْ عَهِدَا إِلَى غَيْرِ مَنْ تَرْتَضِيهِ الْعَصَبِيَّةُ لَرَدَّتْ ذَلِكَ الْعَهْدَ وَانْتَقَضَ أَمْرُهُ سَرِيعًا وَصَارَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْفُرْقَةِ وَالاخْتِلافِ . سَأَلَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ اخْتَلَفُوا عَلَيْكَ وَلَمْ يَخْتَلِفُوا عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ لأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ كَانَا وَالِيَيْنِ عَلَى مِثْلِي وَأَنَا الْيَوْمَ وَالٍ عَلَى مِثْلِكَ يُشِيرُ إِلَى وَازِعِ الدِّينِ أَفَلاَ تَرَى

إِلَى الْمَـــــأْمُونِ لَمَّا عَهِدَ إِلَى عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ الـــصَّادِقِ وَسَمَّاهُ الـــرِضَا كَيْفَ أَنْكَرَتِ الْعَبَّاسِيَّةُ ذَلِكَ وَنَقَضُوا بَيْعَتَهُ وَبَايَعُوا لِعَمِّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ وَظَهَرَ مِنَ الْهَرْجِ وَالْخِلاَفِ وَانْقِطَاعِ السُّبُلِ وَتَعَدُّدِ الثُّوَّارِ وَالْخَوَارِجِ مَا كَادَ أَنْ يَصْطَلِمَ الأَمْرُ حَتَّى بَادَرَ الْمَأْمُونُ مِنْ خُرَاسَانَ إِلَى بَغْدَادَ وَرَدَّ أَمْرَهُمْ لِمَعَاهِدِهِ فَلاَبُدَّ مِنِ اعْتِبَارِ ذَلِكَ فِي الْعَهْدِ فَالْعُصُورُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ مَا يَحْدُثُ فِيـــهَا مِنَ الأُمُورِ وَالْقَبَائِلِ وَالْعَصَبِيَّاتِ وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلاَفِ الْمَصَالِحِ وَلِكُلِّ وَاحِــدٍ مِنْهَا حُكْمٌ يَخُصُّهُ لُطْفًا مِنَ اللهِ بِعِبَادِهِ وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ بِالْعَهْدِ حِفْظَ الـــتُرَاثِ عَلَى الأَبْنَاءِ فَلَيْسَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدِينِيَّةِ إِذْ هُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ يَخُصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَنْبَغِي أَنْ تُحَسَّنَ فِيهِ النِيَّةُ مَا أَمْكَنَ خَوْفًا مِنَ الْعَبَثِ بِالْمَنَاصِبِ الدِينِيَّةِ وَالْمُلْكُ للهِ يُؤْتِيـــهِ مَنْ يَشَاءُ * وَعَرَضَ هُنَا أُمُورٌ تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيـــهَا * فَالأَوَّلُ مِنْهَا مَا حَدَثَ فِي يَزِيـــدَ مِنَ الْفِسْقِ أَيَّامَ خِلاَفَتِهِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ بِمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ فَإِنَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلُ بَلْ كَانَ يَعْذُلُهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَيَنْهَاهُ عَنْهُ وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً

وَلَمَّا حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ الْفِسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي شَأْنِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقَضَ بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَمَنِ اتَّبَعَهُمَا فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ لأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمَئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ وَتَسْتَتْبِعُ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ أَجْمَعَ وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ وَلاَ تُطَاقُ مُقَاوَمَتُهُمْ فَأَقْصَرُوا عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَأَقَامُوا عَلَى الدُّعَاءِ بِهِدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ وَهَذَا كَانَ شَأْنَ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلاَ يُنْكَرُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَمَقَاصِدُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحَرِّي الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ وَفَّقَنَا اللهُ لِلاقْتِدَاءِ بِهِمْ * وَالأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا تَدَّعِيهِ الشِّيعَةُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلاَ نَقَلَهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ النَّقْلِ وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ لِيَكْتُبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنَّ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ فَقَالَ إِنْ أَعْهَدْ فَقَدْ عَهِدَ مَنْ

هُوَ خَيْرٌ مِنِي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ وَإِنْ أَتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِي يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْهَدْ وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيٍ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلاَنِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ إِنْ مَنَعَنَا مِنْهَا فَلاَ نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيّاً عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُوصِ وَلاَ عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ وَشُبْهَةُ الإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِينِ كَمَا يَزْعَمُونَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمُفَوَّضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلاَةِ وَلَكَانَ يُسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلاَةِ وَلَكَانَ يَشْتَهِرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلاَةِ وَاحْتِجَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلاَفَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلاَةِ فِي قَوْلِهِمِ ارْتَضَاهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِدِينِنَا أَفَلاَ نَرْضَاهُ لِدُنْيَانَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ وَيَدُلُّ ذَلِكَ أَيْضاً عَلَى أَنَّ أَمْرَ الإِمَامَةِ وَالْعَهْدِ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُهِمّاً كَمَا هُوَ الْيَوْمَ وَشَأْنُ الْعَصَبِيَّةِ الْمُرَاعَاةُ فِي الاجْتِمَاعِ وَالافْتِرَاقُ فِي مَجَارِي الْعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ الاعْتِبَارِ لأَنَّ أَمْرَ الدِينِ وَالإِسْلاَمِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ وَاسْتِمَاتَةِ النَّاسِ

دُونَهُ وَذلكَ مِنْ أَجَلِ الأحْوَالِ الَّتي كَانُوا يشَاهِدُونَهَا فِي حضُورِ الْمَـــلائكَةِ لنصْرِهِمْ وتَرَدُّدِ خَبَرِ السَّمَاءِ بيْنَهُمْ وَتَجدُّدِ خِطَابِ اللهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى مُرَاعَاةِ الْعَصَبِيَّةِ لِمَا شَمَلَ الـــنَّاسَ مِنْ صِبْغَةِ الانْقِيَادِ وَالإذْعَانِ وَمَا يَسْتَفِزُّهُمْ مِنْ تَتَابُعِ الْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالأَحْوَالِ الإلهِـيَّةِ الْوَاقِعَةِ وَالْمَلائِكَةِ الْمُتَرَدِّدَةِ الَّتِي وَجِمُوا مِنْهَا وَدُهِشُوا مِنْ تَتَابُعِهَا فَكَانَ أَمْرُ الْخِلافَةِ وَالْمُلْكِ وَالْعَهْدِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَسَائِرِ هذِهِ الأَنْوَاعِ مُنْدرجًا فِي ذلكَ الْقَبِيلِ كَمَا وَقَعَ فَلَمَّا انْحَصَرَ ذلكَ الْمَدَدُ بِذَهَابِ تِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ ثُمَّ بِفَنَاءِ الْقُرُونِ الَّذِيــنَ شَاهَدُوهَا فَاسْتَحَالَتْ تِلْكَ الـصِّبْغَةُ قَلِيلاً قَلِيلاً وَذَهَبَتِ الْخَوَارِقُ وَصَارَ الْحُكْمُ لِلْعَادَةِ كَمَا كَانَ فَاعْتَبِرْ أَمْرَ الْعَصَبِيَّةِ وَمَجَارِ الْعَوَائِدِ فِيـمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَأَصْبَـحَ الْمُلْكُ وَالْخِلافَةُ وَالْعَهْدُ بِهِمَا مُهِمًّا مِنَ الْمُهِمَّاتِ الأَكِــيدَةِ كَمَا زَعَمُوا وَلَمْ يَكُنْ ذلكَ مِنْ قَبْلُ فَانْظُرْ كَيْـفَ كَانَتِ الْخِلافَةُ لِعَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُهِمَّةٍ فَلَمْ يَعْهَدْ فِيــهَا ثُمَّ تَدَرَّجَتِ الأَهَمِّيَّةُ زَمَانَ الْخِلافَةِ بَعْضَ الشَّيْءِ بِمَا دَعَتِ الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ فِي الْحِمَايَةِ وَالْجِهَادِ وَشَأْنِ الرِّدَّةِ وَالْفُتُوحَاتِ فَكَانُوا بِالْخِيَارِ فِي الْفِعْلِ وَالــتَّرْكِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثُمَّ صَارَتِ

الْيَوْمَ مِنْ أَهَمِ الأُمُورِ لِلإِلْفَةِ عَلَى الْحِمَايَةِ وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ فَاعْتُبِرَتْ فِيهَا الْعَصَبِيَّةُ الَّتِي هِيَ سِرُّ الْوَازِعِ عَنِ الْفُرْقَةِ وَالتَّخَاذُلِ وَمَنْشأُ الاجْتِمَاعِ وَالتَّوَافُقِ الْكَفِيلُ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا * وَالأَمْرُ الثَّالِثُ شَأْنُ الْحُرُوبِ الْوَاقِعَةِ فِي الإِسْلاَمِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فَاعْلَمْ أَنَّ اخْتِلاَفَهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ فِي الأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَيَنْشأُ عَنِ الاجْتِهَادِ فِي الأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَدَارِكِ الْمُعْتَبَرَةِ وَالْمُجْتَهِدُونَ إِذَا اخْتَلَفُوا فَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْحَقَّ فِي الْمَسَائِلِ الاجْتِهَادِيَّةِ وَاحِدٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ وَمَنْ لَمْ يُصَادِفْهُ فَهُوَ مُخْطِىءٌ فَإِنَّ جِهَتَهُ لاَ تَتَعَيَّنُ بِإِجْمَاعٍ فَيَبْقَى الْكُلُّ عَلَى احْتِمَالِ الإِصَابَةِ وَلاَ يَتَعَيَّنُ الْمُخْطِئُ مِنْهَا وَالتَّأْثِيمُ مَدْفُوعٌ عَنِ الْكُلِ إِجْمَاعاً وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ الْكُلَّ حَقٌّ وَإِنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ فَأَحْرَى بِنَفْيِ الْخَطَإِ وَالتَّأْثِيمِ وَغَايَةُ الْخِلاَفِ الَّذِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّهُ خِلاَفٌ اجْتِهَادِيٌ فِي مَسَائِلَ دِينِيَّةٍ ظَنِّيَّةٍ وَهَذَا حُكْمُهُ وَالَّذِي وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الإِسْلاَمِ إِنَّمَا هُوَ وَاقِعَةُ عَلِيٍ مَعَ مُعَاوِيَةَ وَمَعَ الزُّبَيْرِ وَعَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَوَاقِعَةُ الْحُسَيْنِ مَعَ يَزِيدَ وَوَاقِعَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ مَعَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَأَمَّا وَاقِعَةُ عَلِيٍ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا عِنْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ مُفْتَرِقِينَ فِي الأَمْصَارِ فَلَمْ

يَشْهَدُوا بَيْعَةَ عَلِي وَالَّذِينَ شَهِدُوا فَمِنْهُمْ مَنْ بَايَعَ وَمِنْهُم مَنْ تَوَقَّفَ حَتَّى يَجْتمِعَ النَّاسُ وَيَتَّفِقُوا عَلَى إمامٍ كَسَعْدٍ وَسَعِيدٍ وَابْنِ عمَرَ وَأُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ وَالْمُغِيرَةِ بْنِ شَعْبَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ وَقُدَامَةَ بْنِ مَظْعُونٍ وَأَبِي سَعِيــدٍ الْخدْرِي وَكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَالنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيــرٍ وَحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ وَمَسْلمَةَ بْنِ مُخْلدٍ وَفُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ وَأَمْثــالِهِمْ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ وَالَّذِينَ كَانُوا فِي الأَمْصَارِ عدَلُوا عَنْ بَيْعَتِهِ أَيْضاً إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِ عثْمَانَ وَتَرَكُوا الأَمْرَ فَوْضَى حَتَّى يَكُونَ شُورَى بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِمَنْ يوَلُّونَهُ وَظَنُّوا بِعلِي هوَادَةً فِي السُّكُوتِ عَنْ نَصْرِ عثْمَانَ مِنْ قَــاتِلِهِ لاَ فِي الْمُمَالأَةِ عَلَيْهِ فَحَاشَ للهِ مِنْ ذلِكَ وَلَقَدْ كَانَ مُعَاوِيَةُ إِذَا صرَّحَ بِمَلاَمَتِهِ إِنَّمَا يُوَجِهُهَا عَلَيْهِ فِــي سُــكُوتِهِ فَقَطْ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَــعْدَ ذلِكَ فَرَأَى عَلِيٌّ أَنَّ بَيْعَتَهُ قَدِ انْعَقَدَتْ وَلَزِمَتْ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا بِاجْتِمَاعِ مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا بِالْمَدِيــنَةِ دَارِ الــنَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَوْطِنِ الصَّحَابَةِ وَأَرْجـأَ الأَمْرَ فِي الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عثْمَانَ إِلَى اجْتِمَاعِ النَّاسِ وَاتِفَاقِ الْكَلِمَةِ فَيَتَمَكَّنُ حِينَئِذٍ مِنْ ذلِكَ وَرَأَى الاخَرُونَ أَنَّ بَيْعَتَهُ لَمْ تَنْعَقِدْ لافْتِرَاقِ الصَّحَابَةِ أَهْلِ الْحلِ وَالْعقْدِ بِالآفَاقِ وَلَمْ يَحْضرْ إِلاَّ قَلِيــلٌ وَلاَ تَكُونُ الْبَيْعَةُ إِلاَّ

بـاتفاق أهْلِ الْحلِّ والْعقْدِ ولاَ تـلْزمُ بعقْدِ مـنْ تولاَّها منْ غيْرِهم أوْ من الْقليلِ منْهُمْ وإنَّ الْمُسْلمـين حينئذٍ فوْضى فيُطالبُون أوَّلاً بدم عثْمان ثُمَّ يجْتمعُون على إمامٍ وذهب إلى هـذا معاوِيةُ وعمْرُو بْنُ الْعاصِ وأُمُّ الْمؤْمنين عائشةُ والزُّبيْرُ وابْنُهُ عبْدُ اللهِ وطلْحةُ وابْنُهُ مُحمَّدٌ وسعْدٌ وسعيـد والنُّعْمانُ بْنُ بشيرٍ ومُعاوِيةُ بْنُ خديجٍ ومنْ كان على رأْيِهِمْ من الـصَّحابةِ الَّذيـن تخلَّفُوا عـنْ بيْعةِ علـيٍ بالْمديـنةِ كما ذكرْنا إلاَّ أنَّ أهْل الْعصْرِ الـثَّاني منْ بعْدِهِمِ اتَّفقُوا على انْعقادِ بيْعةِ عليٍ ولُزُومِها لِلْمُسْلمين أجْمعين وتصـويبِ رأْيِهِ فيـما ذهب إليْهِ وتعْيينِ الْخطإِ منْ جهةِ مُعاوِيةَ ومنْ كان على رأْيِهِ وخُصُوصاً طلْحةُ والـزُّبيْرُ لانْتقاضِهِما على عليٍ بعْد الْبيْعةِ لهُ فيـما نُقِل مع دفْعِ الـتَّأْثيمِ عنْ كُلٍ من الْفريقيْنِ كـالـشَّأْنِ في الْمُجْتهدين وصار ذلك إجْماعاً منْ أهْلِ الْعصْرِ الـثَّاني على أحدِ قوْليْ أهْلِ الْعصْرِ الأوَّلِ كما هُو معْرُوفٌ ولقدْ سُئِل عليٌّ رضي اللهُ عنْهُ عنْ قتْلى الْجملِ وصِفِّيْن فقال والَّذي نفْسي بيدِهِ لا يمُوتنَّ أحدٌ منْ هؤُلاءِ وقلْبُهُ نقيٌّ إلاَّ دخل الْجنَّة يُشيـرُ إلى الْفريقـيْنِ نقلهُ الـطَّبريُّ وغيْرُهُ فلا يقعنَّ عنْدك ريْبٌ في عدالـةِ أحدٍ منْهُمْ

وَلاَ قَدْحَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذلكَ فَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ وَأَقْوَالُهُمْ وَأَفْعَالُهُمْ إِنَّمَا هِيَ عَنِ الْمُسْتَنَدَاتِ وَعَدَالَتُهُمْ مَفْرُوغٌ مِنْهَا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلاَّ قَوْلاً لِلْمُعْتَزِلَةِ فِيمَنْ قَاتَلَ عَلِيّاً لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِ وَلاَ عَرَّجَ عَلَيْهِ وَإِذَا نَظَرْتَ بِعَيْنِ الإِنْصَافِ عَذَرْتَ النَّاسَ أَجْمَعِينَ فِي شَأْنِ الاخْتِلاَفِ فِي عُثْمَانَ وَاخْتِلاَفِ الصَّحَابَةِ مِنْ بَعْدُ وَعَلِمْتَ أَنَّهَا كَانَتْ فِتْنَةً ابْتَلَى اللهُ بِهَا الأُمَّةَ بَيْنَمَا الْمُسْلِمُونَ قَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَدُوَّهُمْ وَمَلَّكَهُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَنَزَلُوا الأَمْصَارَ عَلَى حُدُودِهِمْ بِالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ الَّذِينَ نَزَلُوا هَذِهِ الأَمْصَارَ جُفَاةً لَمْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ صُحْبَةِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلاَ ارْتَاضُوا بِخُلُقِهِ مَعَ مَا كَانَ فِيهِمْ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ وَالتَّفَاخُرِ وَالْبُعْدِ عَنْ سَكِينَةِ الإِيمَانِ وَإِذَا بِهِمْ عِنْدَ اسْتِفْحَالِ الدَّوْلَةِ قَدْ أَصْبَحُوا فِي مَلَكَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةَ وَثَقِيفٍ وَهُذَيْلٍ وَأَهْلِ الْحِجَازِ وَيَثْرِبَ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ إِلى الإِيمَانِ فَاسْتَنْكَفُوا مِنْ ذلكَ وَغَصُّوا بِهِ لِمَا يَرَوْنَ لأَنْفُسِهِمْ مِنَ التَّقَدُّمِ بِأَنْسَابِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ وَمُصَادَمَةِ فَارِسَ وَالرُّومِ مِثْلِ قَبَائِلِ بَكْرِ بْنِ وَائِلَ وَعَبْدِ الْقَيْسِ بْنِ رَبِيعَةَ وَقَبَائِلِ

كَنْدَةَ وَالأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَتَمِيمٍ وَقَيْس مِنْ مُضَرَ فَصَارُوا إِلَى الْغَضِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالأَنَفَةَ عَلَيْهِمْ وَالتَّمْرِيضِ فِي طَاعَتِهِمْ وَالتَّعَلُّلِ فِي ذَلِكَ بِالتَّظَلُّمِ مِنْهُمْ وَالاسْتِعْدَاءِ عَلَيْهِمْ وَالطَّعْنِ فِيهِمْ بِالْعَجْزِ عَنِ السَّوِيَّةِ وَالْعَدْلِ فِي الْقِسْمِ عَنِ السَّوِيَّةِ وَفَشَتِ الْمَقَالَةُ بِذَلِكَ وَانْتَهَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ مَنْ عَلِمْتَ فَأَعْظَمُوهُ وَأَبْلَغُوهُ عُثْمَانَ فَبَعَثَ إِلَى الأَمْصَارِ مَنْ يَكْشِفُ لَهُ الْخَبَرَ بَعَثَ ابْنَ عُمَرَ وَمُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَأَمْثَالَهُمْ فَلَمْ يُنْكِرُوا عَلَى الأُمَرَاءِ شَيْئًا وَلاَ رَأَوا عَلَيْهِمْ طَعْنًا وَأَدَّوا ذَلِكَ كَمَا عَلِمُوهُ فَلَمْ يَنْقَطِعِ الطَّعْنُ مِنْ أَهْلِ الأَمْصَارِ وَمَا زَالَتِ الشَّنَاعَاتُ تَنْمُو وَرُمِيَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَشَهِدَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ وَحَدَّهُ عُثْمَانُ وَعَزَلَهُ ثُمَّ جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنَ الأَمْصَارِ يَسْأَلُونَ عَزْلَ الْعُمَّالِ وَشَكَوا إِلَى عَائِشَةَ وَعَلِيٍّ وَالزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ وَعَزَلَ لَهُمْ عُثْمَانُ بَعْضَ الْعُمَّالِ فَلَمْ تَنْقَطِعْ بِذَلِكَ أَلْسِنَتُهُمْ بَلْ وَفَدَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِي وَهُوَ عَلَى الْكُوفَةِ فَلَمَّا رَجَعَ اعْتَرَضُوهُ بِالطَّرِيقِ وَرَدُّوهُ مَعْزُولاً ثُمَّ انْتَقَلَ الْخِلاَفُ بَيْنَ عُثْمَان وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِالْمَدِينَةِ وَنَقَمُوا عَلَيْهِ امْتِنَاعَهُ مِنَ الْعَزْلِ فَأَبَى إِلاَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى جُرْحَةٍ ثُمَّ نَقَلُوا

النكيـــرَ إلَى غَيْرِ ذلكَ منْ أَفْعَالِه وَهُوَ مُتَمَسكٌ بالاجْتِهادِ وَهُمْ أَيْضاً كَذَلكَ ثُمَّ تَجمَّعَ قَوْمٌ منَ الْغَوْغَاءِ وَجاءُوا إلَى الْمَدينَةِ يُظْهِرونَ طَلَبَ النّصفَةِ منْ عثْمَانَ وهُمْ يُضْمِـــرُونَ خلاَفَ ذلكَ منْ قتْلِه وَفِيــهِمْ منَ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ ومِصْرَ وَقَامَ مَعَهُمْ فِي ذلكَ عَلِيٌّ وعَائشَةُ والزُّبَيْرُ وطَلْحَةُ وغَيْرهُمْ يُحاوِلُونَ تَسْكِينَ الأُمُورِ ورُجُوعِ عثْمَانَ إلَى رأيِـــهِمْ وَعَزَلَ لَهُمْ عَامِلَ مِصْرَ فانْصرَفُوا قَليــــلاً ثُمَّ رَجَعُوا وَقَدْ لبَّسُوا بِكِتَابٍ مُدَلَّسٍ يَزْعَمُونَ أنَّهُمْ لَقُوهُ فِي يَدِ حَامِلِه إلَى عَامِلِ مِصْرَ بِأَنْ يَقْتُلَهُمْ وَحلَفَ عثْمَانُ عَلَى ذلكَ فقَالُوا مَكِّنَّا منْ مَرْوَانَ فَإنَّهُ كَاتِبُكَ فَحَلَفَ مَرْوَانُ فقَالَ لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أكْثَرُ منْ هَــذَا فَحَاصرُوهُ بِدَارِه ثُمَّ بيَّتُوهُ عَلَى حِينِ غَفْــلَةٍ منَ النَّاسِ وقَتَلُوهُ وانْفتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ فلِكلٍ منْ هَـؤُلاَءِ عُذْرٌ فِيــمَا وَقَعَ وكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ الدينِ ولاَ يُضيـــعُونَ شَيْئًا منْ تَعَلُّقَاتِه ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَـــذَا الْوَاقِعِ واجْتَهَدُوا وَاللهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أحْوَالِهِمْ وَعَالِمٌ بِهِمْ وَنَحْنُ لاَ نَظُنُّ بِهِمْ إلاَّ خَيْرًا لِمَا شَهِدَتْ بِه أَحْوَالُهُمْ وَمَقَالاَتُ الصَّادِقِ فِيــــــهِمْ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَإنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ يَزِيـــــدَ عِنْدَ الْكَافَّةِ منْ أَهْلِ عَصْرِهِ بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكُوفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ

فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيدَ مُتَعَيِّنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ لاَ سِيَّمَا مَنْ لَهُ الْقُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ وَظَنَّهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ فَأَمَّا الأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنَّ وَزِيَادَةً وَأَمَّا الشَّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ اللهُ فِيهَا لأَنَّ عَصَبِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصَبِيَّةَ عَبْدِ مَنَافٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي أُمَيَّةَ تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَائِرُ النَّاسِ وَلاَ يُنْكِرُونَهُ وَإِنَّمَا نُسِيَ ذَلِكَ أَوَّلَ الإِسْلاَمِ لِمَا شَغَلَ النَّاسَ مِنَ الذُّهُولِ بِالْخَوَارِقِ وَأَمْرِ الْوَحْيِ وَتَرَدُّدِ الْمَلاَئِكَةِ لِنُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ فَأَغْفَلُوا أُمُورَ عَوَائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصَبِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُهَا وَنُسِيَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ الْعَصَبِيَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ فِي الْحِمَايَةِ وَالدِّفَاعِ يُنْتَفَعُ بِهَا فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَجِهَادِ الْمُشْرِكِينَ وَالدِّينُ فِيهَا مُحْكَمٌ وَالْعَادَةُ مَعْزُولَةٌ حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقِ الْمَهُولَةِ تَرَاجَعَ الْحُكْمُ بَعْضَ الشَّيْءِ لِلْعَوَائِدِ فَعَادَتِ الْعَصَبِيَّةُ كَمَا كَانَتْ وَلِمَنْ كَانَتْ وَأَصْبَحَتْ مُضَرُ أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِنْ سِوَاهُمْ بِمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ قَبْلُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الْحُسَيْنِ إِلاَّ أَنَّهُ فِي أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ لا يَضُرُّهُ الْغَلَطُ فِيهِ وَأَمَّا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فِيهِ لأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ وَكَانَ ظَنُّهُ الْقُدْرَةَ عَلَى ذَلِكَ وَلَقَدْ عَذَلَهُ ابْنُ الْعَبَّاسِ

وَابْنُ الـــــزُّبَيْرِ وَابْنُ عُمَرَ وابْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيْرُهُمْ فِي مَسِيــرِهِ إِلَى الْكُوفَةِ وَعَلِمُوا غَلَطَهُ فِي ذلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ عَمَّا هُوَ بِسَبِيلِهِ لِمَا أَرَادَهُ اللهُ وَأَمَّا غَيْرُ الْحُسَيْنِ مِنَ الصَّحَابَةِ الَّذِيــنَ كَانُوا بِالْحِجَازِ وَمَعَ يَزِيـدَ بِالــشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ فَرَأَوا أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يَزِيـدَ وَإِنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَجُوزُ لِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرْجِ وَالـدِمَاءِ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذلِكَ وَلَمْ يُتَابِعُوا الْحُسَيْنَ وَلاَ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ وَلاَ أَثَّمُوهُ لأَنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أُسْوَةُ الْمُجْتَهِدِينَ وَلاَ يَذْهَبُ بِكَ الْغَلَطُ أَنْ تَقُولَ بِتَأْثِيمِ هــؤُلاَ بِمُخَالَفَةِ الْحُسَيْنِ وَقُعُودِهِمْ عَنْ نَصْرِهِ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الــصَّحَابَةِ وَكَانُوا مَعَ يَزِيــدَ وَلَمْ يَرَوا الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَشْهِدُ بِهِمْ وَهُوَ بِكَرْبِلاَءَ عَلَى فَضْلِهِ وَحَقِّهِ وَيَقُولُ سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِاللهِ وَأَبَا سَعِيدِ الْخُدْرِيَّ وَأَنَسَ بْنَ مَالِكٍ وَسَهْلَ بْنَ سَعِيـــدٍ وَزَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ وَأَمْثَالَهُمْ وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ قُعُودَهُمْ عَنْ نَصْرِهِ وَلاَ تَعَرَّضَ لِذلِكَ لِعِلْــمِهِ أَنَّهُ عَنِ اجْتِهــــادٍ وَإِنْ كَانَ هُوَ عَلَى اجْتِهَادٍ وَيَكُونُ ذلِكَ كَمَا يَحُدُّ الشَّافِعِيُّ وَالْمَالِكِيُّ وَالْحَنَفِيُّ عَلَى شُرْبِ النَّبِيــذِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأَمْرَ لَيْسَ كَذَلِكَ وَقِتَالُهُ لَمْ يَكُنْ عَنِ اجْتِهَادِ هؤُلاءِ وَإِنْ كَانَ خِلاَفُهُ عَنِ اجْتِهَادِهِمْ وَإِنَّمَا انْفَرَدَ بِقِتَالِهِ يَزِيـدَ وَأَصْحَابُهُ وَلاَ

تقُولَنَّ إنَّ يزَيدَ وإنْ كانَ فاسـقاً ولَمْ يُجزْ هـؤلاَءِ الْخرُوجَ علَيْهِ فلَفْعالَهُ عِندَهُمْ صَحيحةٌ واعْلَمْ أنَّهُ إنَّما ينَفذُ منْ أعمَالِ الْفاسِقِ ما كانَ مَشْرُوعاً وقِتالُ الْبُغاةِ عِندَهُمْ منْ شـرْطه أنْ يكُونَ مَعَ الإمَامِ الْعادِلِ وهُوَ مفْقُودٌ في مَسْألَتِنا فلاَ يَجُوزُ قِتالُ الْحُسيْنِ مَعَ يزَيدَ ولاَ ليزَيدَ بلْ هِيَ منْ فَعلاَتِه الْمُؤكِدَةِ لفِسقْهِ والْحُسيْنُ فيها شهِيدٌ مُثابٌ وهُوَ علَى حقٍ واجْتِهادٍ والـصَّحابَةُ الّذيـن كانُوا مَعَ يزَيـدَ علَى حقٍ أيْضاً واجْتِهادٍ وقَدْ غلَطَ الْقاضِي أبُو بكْرِ بْنُ الْعرَبِي الْمالِكي في هـذاَ فقَالَ في كتَابِهِ الّذِي سمَّاهُ بِالْعوَاصِمِ والْقوَاصِمِ ما معْنَاهُ . إنَّ الْحُسيْنَ قُتِلَ بِشرْعِ جدِهِ وهُوَ غلَطٌ حمَلَتْهُ علَيْهِ الْغفْلَةُ عَنِ اشْتِرَاطِ الإمَامِ الْعادِلِ ومَنْ أعْدَلُ مِنَ الْحُسيْنِ في زَمانِهِ في إمامَتِهِ وعَدالَتِهِ في قِتالِ أهْلِ الآرَاءِ .

رقم الإيداع : ٨٠٥٨ / ٩٧

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977 - 01 - 5318 - 4

■ ابن خلدون

يعتبر ابن خلدون المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع الحديث، والمؤرخ العربى الأول، بسبب نظراته الفلسفية القائمة على مناهج العلوم الإنسانية الحديثة، وهى النظرات التى يتضمنها كتابه الفريد «المقدمة» (وهو فى الحقيقة مقدمة حقيقية لكتابه فى التاريخ) والذى تفخر مكتبة الأسرة بتقديم فصول مختارة منه.

ولد ابن خلدون فى تونس عام ٧٣٢هجرية (١٣٣٢ ميلادية) وتوفى بالقاهرة عام ٨٠٧ هجرية (١٤٠٦ ميلادية) أى أنه سبق بآرائه التى أبدعها فى القرن الرابع عشر الميلادى معظم آراء المحدثين فى أوربا، وسوف تظل كتاباته ذات طابع فريد لا مثيل له فى النثر العربى قديمة وجديده.

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب